محمد محمود الزبيري

الأعمال الشعرية الكاملة





إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء


ارشيف اليمن
@YemenArchive
yemenarchive.com

١٤٢٥هـ - 2004 م

رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء

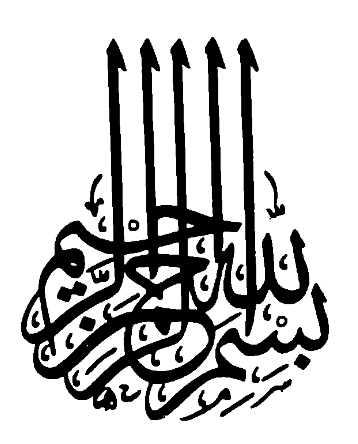
(٥١/٢٠٠٤)

الناشر

الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء الحصبة - ص.ب. (36)-(237)
هاتف: 235114 - فاكس: 235113
بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاءُ... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات..
حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة



— ١ —

ليس محمد محمود الزبيري شاعراً فحسب ولا هو مناضل فحسب، بل هو كذلك صحفي وزعيم وطني وروائي وكاتب وشهيد، لذلك فقبل محاولة الكتابة عنه لا بد أن يثور السؤال أو الأسئله التالية: ما الذي يمكن أن يستحضره الذهن حين يتذكر الزبيري؟.. هل تاريخ أول معارضة لحكم الإمامة في اليمن ثم انقلاب ١٩٤٨؟ أم تاريخ أو عمل صحفي حر في اليمن، ثم انقلاب ١٩٥٥؟.. هل كتابة أول عمل روائي أم ثورة ٢٦ سبتمبر؟.. ثم ذلك الجسد المضرج بالدم بعد رحلة الكفاح الطويل؟!.

كل هذا لا بد أن يستحضره الذهن قبل محاولة الكتابة عن الزبيري... فمن أين تكون البداية؟.

في الحقيقة أن الحديث هنا هو عن ديوان الزبيري... عن شِعره، لكن هل يمكن الفصل بين الأديب الخالق والأدب المخلوق... بين الشاعر المبدِع والنص المُبدَع... بين الزبيري الإنسان والزبيري الشاعر، إن شخصية الأديب ـ كما هو معروف ـ بل وظروفه العامة والخاصة ثم رؤيته للحياة وموقفه من أحداث عصره، لا بد أن تترك أثراً ظاهراً وعميقاً على ما يكتبه من شعر أو نثر، وبالمقابل لا بد ـ إن كان الأديب صادقاً ـ أن يُذيب حياته في النص الأدبي، وأن يذوب النص الأدبي في حياة صاحبه، وقد أذاب محمد محمود الزبيري حقاً حياته في شِعره، كما ذاب شِعره في حياته حتى لا يمكن الفصل بينهما، يقول في مقدمة ديوانه الثاني: «ثورة الشعر»... (وتفاعلت نفسي مع الشعر وتفاعل معها ونما خلال نموّها، فكانت طفولتي طفولته، وشبابي شبابه، ونضجي نضجه، وكان يسير جنباً إلى جنب حيث أسير فهو ساذج في سن المراهقة وطائش عندما أطيش،

وحزين عندما أحزن، وحالِم بالسعادة وقتما أحلم، وإذا لعِبْتُ لعِبَ مثلي، وإذا جدَّيْت قلَّد جَدّي)[١]. ولعلي بعد ذلك لا أكون مسرفاً في الخطأ ولا مبالغاً في التصوّر حين أزعم أن حياة الزبيري هي شِعره، وإن شئنا العكس فنقول: إن شعر الزبيري هو حياته، فقد وُلد الزبيري في صنعاء في عام ١٣٢٨ هـ من أسرةٍ تنتمي إلى الطبقة الوسطى ويشتغل بعض أفرادها بالقضاء والبعض الآخر بالتجارة، وقد نشأ شاعرنا ـ منذ طفولته الباكرة ـ نشأة روحية متصوِّفة: (بدأتُ حياتي طالب عِلم ينحو منحى الصوفية في العزوف، والروحانية، وتعشَّقتُ هذا اللون من الحياة رغم اليُتم والشظف والقِلَّة، ونعمت به كما لم أنعم بشيءٍ آخر بعد ذلك)[٢]. وهذه النشأة الروحانية الزاهدة المتصوِّفة جعلته غير ميّال إلى القضاء وغير مهتم بالتجارة رغم شظف العيش الذي عانى منه، فالقضاء لا يُشبع رغبته وطموحه إلى اكتشاف سر الحياة وما وراء العالم المباشر، أما التجارة فقد كانت أبعد ما تكون عن ميوله المثالية، حتى أخرجه الشعر إلى عالم الناس وربطه بحياتهم كما يقول: (مهما يكن الأمر فإن الحقيقة الواقعة أن الشعر هو الذي أخرجني من القمقم وقادني إلى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات)[٣]. وهكذا إذن نرى أن الشعر هو الذي أنقذه من التحليق بأفكاره إلى ما وراء الحياة وأرجعه إلى الحياة نفسها إلى ما تزخر به الأرض من صراع وعذاب وآلام، يقول مخاطباً الشعر:

---

(١) ديوان «ثورة الشعر»، ص ٧، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦٣.
(٢) ديوان «ثورة الشعر»، ص ٧، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦٣ .
(٣) ديوان «صلاة في الجحيم»، طبعة أولى، القاهرة ١٩٦١.

حـمـلـتـنـي آلامـهـا ودمـوعـهـا

ومـنـعـت عـنـي وصـلـهـا ومـنـعـتـهـا

نـاديـت أشـتـات الـجـراح . بـأمـتـي

فـجـمـعـتـهـا فـي أضـلـعـي وطـبـعـتـهـا

مـا قـال قـومـي: آه... إلا جـئـتـنـي

فـكـويـت أحـشـائـي بـهـا ولـسـعـتـهـا

وكانت الطبقة التي ينتمي إليها الشاعر بحكم المولد تعاني من إفلاس فكري جعلها تعيش في منأى عن محاولات التغيير، لكن هذا الإحساس قد تشكل في وجدان مجموعة من شعراء الصحوة، كان الزبيري في طليعتهم، وكانوا طليعة الدعوة إلى التغيير والالتزام بقضايا المجتمع والحياة، وكان التناقض واضحاً بينهم وبين المجتمع الذين يحيون بين ظهرانيه وبينهم وبين الأسر التي ينتمون إليها، فقد كانت هذه الأسر تحرص على حياة الجمود الممثلة في عصر الإمام يحيى وعلى تقديس كل ما هو موروث، وكانت كالإمام يحيى تقاوم كل أفكار التحوّل لما تسببه من اهتزاز في بنيان المجتمع التقليدي القائم على بناء طبقي فريد من نوعه قد لا يخضع لأي تحليل علمي، ومن هنا جاءت قصيدة الشاعر إلى عمه:

غفرتُ لكَ الحيف الذي سمتني به

فما أنتَ جانيه ولا أنت كاسبه

لقد كنت فيما جئت قائد عسكر
تصرفه فيما تريد كتائبه(١)

وقد بدأ الزبيري حياته في السياسة وهو طالب في القاهرة في كلية دار العلوم وعاد إلى اليمن حاملاً مشعل التنوير من خلال جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي ألفها بعد عودته، فكان جزاءه السجن ثم الفرار إلى عدن عاصمة الجزء المحتل من البلاد ـ حينئذ ـ، وقد نجح مع بعض رفاقه في تكوين أول عمل صحفي من نوعه للتعريف بالأحوال في مملكة الإمام يحيى وفي دعوة المواطنين إلى الثورة والقضاء على ذلك النظام العتيق الذي كان عاراً ووصمة في جبين الأمة العربية والإسلامية، وقد نجحت الدعوة وأثمرت الإطاحة بالإمام يحيى، وكان الزبيري وزيراً للمعارف في حكومة الانقلاب الأول، ولأنه كان في طليعة المحرّضين على الثورة بشعره ونثره وبمواقفه فإن فشل الانقلاب كان يعني بالنسبة له شيئاً واحداً هو الحكم عليه بالإعدام، لكنه سلم من الموت بأعجوبة فقد كان واحداً من أعضاء الوفد اليماني الذي أُختير للذهاب إلى المملكة العربية السعودية للتباحث مع وفد الجامعة العربية برئاسة عبد الرحمٰن عزام وبمرافقة هذا الوفد إلى صنعاء. وكانت المملكة السعودية قد عملت على تأخير وفد الجامعة في الأراضي الحجازية حتى يكتمل الحصار من حول الانقلاب الوليد. وحين يئس الزبيري عن إثناء الملك السعودي عن موقفه قرر مع رفاقه العودة إلى صنعاء، لكنهم فوجئوا بسقوط المدينة في يد البرابرة، وكان على الزبيري أن ينجو بنفسه غير مختار، ومن ذلك

(١) عبد الله البردوني، «رحلة في الأدب اليمني: قديمه وحديثه»، ص ١٢٥.

الحين ابتدأ حياة التشرّد ثم الغربة الطويلة في الباكستان حيث أمضى خمس سنوات يبكي مصرع الرفاق ويهدهده الحنين إلى الوطن.

وفي ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م قامت ثورة مصر الظافرة فكانت أملاً للثوار العرب في كل مكان، وفتحت القاهرة ذراعيها لتستقبل الزبيري وأمثاله ممن يَنشدون لأوطانهم الحرية والاستقلال، وفي القاهرة أعلن الزبيري قيام الاتحاد اليمني، التنظيم الحزبي الذي خلّف الجمعية اليمنية الكبرى وحزب الأحرار، وظل بين مدٍّ وجزر يتابع أمواج السياسة العربية ويعاني من تقلّباتها إلى أن قامت ثورة ٢٦ سبتمبر فعاد إلى وطنه وزيراً للتربية والتعليم، ثم نائباً لرئيس الوزراء لشؤون الإعلام والتربية. ولم يكن الزبيري ـ على مدى حياته ـ يحفل بالمناصب لذلك فقد هجر مكتبه في المدينة وذهب إلى الريف ليدافع عن منجزات الثورة الأساسية وفي مقدمتها النظام الجمهوري حتى سقط مضرجاً بدمائه في ٣٠ مارس ١٩٦٥.

إذاً فقد تقلّبت الحياة بالزبيري من شاعر إلى صحفي إلى وزير، إلى مهاجر، إلى زعيم سياسي، وهو في كل موقف منها ذلك الوطني الجَسور والثائر الزاهد، وفي الأخير توّج حياته المتنوعة النضال بالشهادة، حين استقرت رصاصة غادرة في قلبه الكبير لتضع حداً لطموح شاعر كبير ولتحقيق حلم قديم ظل يراود الشاعر:

بحثت عن هبة أحبوك يا وطني

فلم أجد لك إلاّ قلبي الدامي

ووقفة عابرة إزاء هذا البيت، تفسّر كيف لم يكن شعر الزبيري صورة

لحياته فحسب، بل وحدساً صادقاً بمستقبله كذلك وبحثاً عن المغامرات الخصبة الفذّة، على أن شعر الزبيري ـ وإدراك هذه الحقيقة من الأهمية بمكان ـ لا يعكس حياته الفردية إلاّ بمقدار ما كانت هذه الحياة مرآة لحياة الشعب، وصورة لآماله وآلامه، فهي حياة اختلط فيها الخاص بالعام، وكانت ملكاً لشعبها وقضاياه قبل أن تكون أن ملكاً لصاحبها، أو تعبيراً عن قلقه الفردي ومشاعره المعقدة.

— ٢ —

عندما يكون الحديث عن الزبيري فإن الحديث عن عنصرَي الزمان والمكان لا بد أن يأتي بالضرورة، وذلك للرد على بعض التخرصات التي ثارت من حول موقفه الوطني ثم من حول ظاهرة الانتماء المحلي في شعره. ويُفيدنا الحديث عن المكان التعرّف على المساحة الجغرافية التي ركّز عليها الشاعر اهتمامه وأولاها عنايته، لقد كان شاعراً إنسانياً، وشاعراً عربياً، لكن إنسانيته وعروبته لم تمنعاه من أن يكون شاعراً يمنياً بالدرجة الأولى وأن يكون صوته هو صوت اليمن وصرختها الداوية في الوطن العربي والعالم. ومن أجل اليمن وحدها اعتصر الزبيري أعصابه وروحه وأعطى جهده الكتابيّ والنفسيّ، وهذا ما لا يختلف عليه إثنان.

أما موضوع خلو شعر الزبيري من ذكر الأسماء المحلية ـ في شعره ـ وذكر الأسماء في الأدب نهج يُستحبّ في الأعمال الروائية على وجه الخصوص وفي كتب الجغرافيا على وجه أخصّ ـ فإنّه موضوع طريف يثير من علامات التعجّب أكثر مما يثير من التساؤل لأن الخصائص والروائح المحلية لا تنبع في الشعر أو النثر من الأسماء وإنما تصدر عن الموضوع ومن أسلوب التناول نفسه، وإذا كان ذكر الأسماء في الشعر يجعل طابع الشعر محلياً فإن شعر الزبيري لم يفقد ذلك الطابع فهو يتحدث عن صنعاء وعن تعز وعن ميدي وعدن وإب وحجه وعن اليمن واليمنيين، وما من قصيدة له تخلو من هذا الذكر أو ذاك:

أ ـ ثلث قرن لم يبرح (اليمن) الميمون

منه في ليلةٍ لَيْلاء[١]

ب ـ (صنعاء) ويحك ما للظلم

قد رسخت آثامه فيك واستشرت خطاياه[٢]

جـ ـ حجاج (حجة) باسم الشعب أطرده

وعنق (جنبول) باسم الشعب ألويه[٣]

د ـ أمل في جوانح (اليمن) المغمور

ألقى ملء الفضاء بيانه[٤]

على أن ثمة وسائل أخرى لتحقيق المحلية في شعر الزبيري وليس للأسماء أو البيئة الجغرافية دخل فيها، من ذلك تصوير حكام اليمن والسخرية منهم والنيل من نظامهم العتيق:

يبهرون الدنيا بزورة موسكو

وعليهم غبار دنيا ثمود[٥]

(١) «صلاة في الجحيم»، ص ١٠٠.
(٢) نفس المرجع، ص ١٠٤.
(٣) «ثورة الشعر».
(٤) نفس المرجع (ثورة الشعر).
(٥) المرجع السابق.

هذا الوصف لا يمكن أن ينطبق في القرن العشرين إلاّ على أسرة حميد الدين، الأسرة التي اعترفت بالاتحاد السوفييتي ـ دونما علاقة دبلوماسية معه ـ في عشرينات هذا القرن في حين ظل حكام هذه الأسرة يعتبرون كتاب «النظرات» للمنفلوطي خطراً على الإسلام وثورة على كل ما هو جامد ومعتاد!!

هذا قليل من كثير أو قطرة من مطرة كما يقولون، على أن ذكر الاسم المحلي مجرداً في العمل الأدبي لا معنى له في ذاته بالنسبة لوعي الإنسان المحلي أو العالمي، وهو لا يوفر للعمل الأدبي أي نقطة ضرورية يمكن الرجوع إليها، إن المحتوى ومضمون العمل الأدبي ثم القالب أو النظام أو الشكل الفني هي الأشياء التي من خلالها يتم التأثير، ثم يجيء الاسم بعد ذلك ـ إن جاء ملبياً حاجة فنية أو موضوعية ـ ليكون إطاراً أو إشارة إلى علاقة ما لا أكثر، وهو في الأعمال الروائية ـ والروائية القديمة منها ـ أشيع منه في الشعر والرواية الحديثة المتحررة من المفاهيم التقليدية عن الزمان والمكان حيث تختلط الأماكن والأشخاص والأزمان ويفقد العمل الأدبي هويته المكانية والزمانية وإن لم يفقد هويته الإنسانية، أو يكون ذلك في تأكيد هذه الهوية بخاصة.

وربما كان احتفال بعضهم بذكر الأسماء في الشعر المعاصر عائداً إلى تأثرهم بالشاعر الجاهلي الذي كان شديد الولع بذكر الأسماء والأطلال لأنها في عُرفه رموز لأشياء ذات علائق وجدانية، والإصرار على ذكر الأسماء في الشعر المعاصر نوع من التقليد لا ثمرة له قد يؤدي أحياناً إلى نتائج سلبية وذلك عندما لا تأتي هذه الأسماء عفو الخاطر وإنما تصدر لمجرد التعداد الجغرافي كما يفعل بعض الشعراء الصغار عندما يحشدون أسماء الأماكن والعواصم العربية في قصائدهم الوطنية أو القومية.

أما الحديث عن الزمان عند الحديث عن شعر الزبيري ـ وهو هنا زمن الشاعر وعصره بالتحديد ـ فيفيدنا أن نرى إلى أي مدى كان الشاعر متفاعلاً مع عصره ومع أفكار عصره ومتقدماً عليها أو متخلّفاً عنها، ولكي نتعرف على موقفه الاجتماعي والسياسي كشاعر رائد وذلك لأن بعضاً من ذوي النوايا غير الحسنة القافزين على الشروط الموضوعية للمكان والزمان يرفضون المتنبي ـ قبل أن يقرأوه ـ لأنه في نظرهم شاعر رجعي لم يتحدث عن الاشتراكية، هؤلاء أنفسهم هم الذين يرفضون الزبيري لأنه ـ على حد تعبيرهم ـ لم يوظِّف شعره في خدمة الاشتراكية، والحقيقة أن الزبيري قد كان ـ من خلال سلوكه الشخصي ومن خلال أشعاره ـ ابناً مخلصاً لعصره وكان اشتراكياً كبيراً بالمفهوم العام للاشتراكية وإن لم يذكر الاشتراكية في شعره بالاسم أو يتباهى بالانتماء إلى أي تنظيم يرفع شعاراتها:

أنا شمعة كدحت أشعتها وراء الكادحين
مدت بشعلتها إلى أحداقهم مد المعين
تذكو وتُطْفِئُها دموع البؤس من حين لحين
يشكو سناها جهل عميان وغدر مبصرين[١]

وإذا كان هذا هو موقفه في شعره فإنه في نثره يصر على أن يكون اشتراكياً. وهو على حد تعبير الزميل عمر الجاوي: (يحدد في كتابه «واق الواق» برنامجاً قد لا يحتمله بعض أدعياء الاشتراكية أنفسهم)[٢]. يقول

(١) «ثورة الشعر»، ص ١١٣.
(٢) عمر الجاوي، مجلة الحكمة، مارس ١٩٧٥.

الزبيري في كتابه المذكور: (نعم، إن هناك شيئاً جديداً لا بد أن ينظم إلى كلمة الديمقراطية وهو العدالة الاجتماعية... ولكن... الديموقراطية السليمة النزيهة... السليمة في عهد ثوري نظيف، سيتيح للأكثرية الكادحة أن تختار الاشتراكية نظاماً اقتصادياً وما يجعل العدالة والحرية والمساواة والوحدة القومية حقيقة واقعة لا كلاماً ضائعاً في الهواء)[1]. والزبيري بمثل هذه الآراء يسبق الكثيرين من أبناء جيله بل ومن أبناء جيلنا، فقد كان شاعراً يستوعب التحوّل الموضوعي للواقع ويبشّر بالثورة الكاملة وذلك على الرغم من نشأته الصوفية الدينية وعلى الرغم كذلك من محاولاته الدائبة على أن لا يتجاوز المألوف مسايرة منه لعقلية الغالبية العظمى من أبناء شعبه حتى ينفذ إلى أعماقهم ويكشف مواطن الداء فيها قبل أن ينفروا من دعوته لتحرر الوطن من الطغيان وحتى لا يستجيبوا لدعاة التخلّف الذين يرون في كل اتجاه نحو العدل الاجتماعي خروجاً عن الدين ومروقاً على مبادئه الأساسية.

هذا هو الزبيري شاعر اليمن أولاً وشاعر الاضطهاد الطبقي ثانياً، هو ذا تتأجج أعماقه حقداً على الإقطاع وحناناً بالفقراء ويمتلىء وجدانه باليمن لا يرضى بها بدلاً حتى لو كانت النجوم:

ولو أني حللت ربوع نجم

هممت به إلى اليمن الوثوبا

الكلاسيكية الجديدة مصطلح نقدي تقف فيه الموهبة الأدبية الفردية على خلفية عريضة من التقاليد، وبعبارة أخرى هو ذلك المفهوم القائم

(١) «واق الواق»، ص ٣٠٤، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٦٠.

على التأثر والتأثير بحيث تكون العلاقة بين الفنان والعمل الفني ليس بالتعبير عن المشاعر والإحساسات التي خبِرَها الفنان فحسب، بل والسير على نفس نهج التقاليد الأدبية التي أرساها مَن سبقه من الأدباء سواء من حيث الشكل أو المضمون. . . لذلك فالكلاسيكية الجديدة ليست تقليداً خالصاً لمن سبق من الكتّاب والشعراء، وليست إبداعاً خالصاً وإنما هي تجمع بين الإبداع والتقليد. وللكلاسيكية الجديدة في الشعر العربي المعاصر رواد في كل قطر. والزبيري رائد هذا الاتجاه في شعرنا اليمني الحديث لا ينازعه في ريادته هذه واحد من الشعراء الذين رافقوه أو الذين جاؤوا من بعده، فقد توزع إنتاج هؤلاء بين الكلاسيكية بمفهومها التقليدي والرومانسية ثم الواقعية الاشتراكية. وكان كثير من الكلاسيكيين الجدد ممن جاؤوا بعد الزبيري نسخاً مكررة منه في النهج الشعري وإن أضيف إلى إنتاج البعض منهم قدر من الجودة يفرضها تطور الزمن وتجدد الأساليب الشعرية بما فيها أسلوب الكلاسيكية الجديدة.

وكل الذين كتبوا عن الزبيري ينسبونه ـ بالإجماع ـ إلى الكلاسيكية الجديدة ويضعونه بمثابة الرائد للشعر المعاصر في اليمن، وهو جدير بتلك المكانة فقد كان شعره ـ بحق ـ شعر الصحوة الوطنية والفنية، وقد وصفته ذات مرة في مقابلة أدبية بأنه الشاعر التاريخي، والشاعر التاريخي يتحدى بمكانته الشعراء الكبار لأن اسمه يرتبط بتغيير جوهري في تاريخ الشعر وإليه يُنسَب هذا التغيير ويستطيع الشعراء الذين يأتون من بعده أن يستفيدوا من كشفه الأدبي وأن يسيروا على هداه وقد يتجاوزونه لكن بعد أن مهّد لهم الطريق.

وليس من شك في أن الزبيري شاعر اليمن المطلق قد مهّد الطريق

أمام الشعراء في وطنه، وبالإضافة إلى ذلك ـ وهذا هو الأهم ـ فإنه جعل الشعر في خدمة الوطن والإنسان بعد أن كان الشعر والوطن والإنسان في خدمة الحاكم الطاغية، وإليه ـ أي إلى الزبيري ـ يعود الفضل في انتشار هذا القدر من شعر الوطنية في شعر اليمن الحديث. ولعله من الهام أن نشير إلى أن الزبيري كان قد تفلت من قبضة الكلاسيكية الجديدة فترة من حياته، ربما كانت الفترة التي أعقبت سقوط انقلاب ١٩٤٨ وما تلاها من شعور بالإحباط وإحساس بالضياع، وقد كتب في هذه المرحلة قصيدتين رومانسيتيّ المنزع كانتا ـ وما تزالان ـ تمثلان طليعة الشعر الرومانسي في اليمن. وقد تحدث في الأولى عن البلبل:

بعثت الصبابة يا بلبل
كأنك خالقها الأول
غناؤك يملأ مجرى دمي
ويفعل في القلب ما يفعل
سكبت الحياة إلى مهجتي
كأنك فوق الربى منهل
ترتل فن الهوى والصبا
شجياً وإن كنت لا تعقل
وما الحب إلاّ جنون الحياة
وجانبها الغامض المشكل

غزتك إلى الوكر مأساته
ومسك من خطبه المعضل
فضاق بك الروض في رحبه
وأنت بأجوائه مرسل
نكبت بما نكب العاشقون
وحملت في الحب ما حملوا
هدوؤك في طيّه مرجل
وريشك من تحته مشعل
خفيف على الغصن لكنما
فؤادك من لوعه مثقل
أنينك ينساب بين الغصو
ن كما انساب من نبعه الجدول
ويسري إلى القلب مسرى الحياة
وفيه من الوجد ما يقتل(١)

كما تحدث في القصيدة الأخرى عن حنين الطائر، وعند هذه القصيدة يحسن بنا التوقف قليلاً لنتابع معاً الناحية الجمالية والفنية، وأول ما يلفت

(١) انظر كتابنا: «الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن»، ص ٩٣.

النظر إلى حد الدهشة هي هذه اللوحة الفنية التي تنعكس على معمار هذه القصيدة فتجعل منها تعبيراً شديد الترابط والتماسك، والقصيدة تجسد غربة الشاعر وحنينه الدائم إلى وطنه المستباح بعد سقوط حركة التغيير الأولى، وقد كان صادقاً مع نفسه حين لم يجد سوى الطائر يجسّد فيه حنينه وتشرده، فالطائر من أضعف ذوات الأجنحة:

أمـل غـيـر مـتـاح وفـؤاد غـيـر صـاح
أنا طير حطم المقدور عـشـي وجـنـاحـي
ورمـانـي فـي نـثـار مـن دمـوعـي ونـواحـي
وحـطـام مـن بـقـايـا وطـن غـيـر صـحـاح
ذهبت آهاتي السوداء أدراج الـريـاح
فتطامنت على همي وخـبـئـت سـلاحـي
لـم أجـد سـمـعـاً فأفرغت أنيني في جراحي[١]

إن الشاعر ينجح هنا في المطابقة بين نفسه والطائر، وبفضل ما في هذه المطابقة من بعد رمزي تتحول القصيدة إلى قيمة فنية عالية المستوى شديدة التأثر وهذا التلاحم والترابط العضوي والنفسي في القصيدة والتداخل والتطابق بين الشاعر والطائر يجعلهما شيئاً واحداً يجمعهما التشرد والضياع.

أما الصور الشعرية في هذا المقطع وفي بقية المقاطع من نفس

(١) "ثورة الشعر"، ص ١٥٣.

القصيدة فهي شديدة الإيجاز بعيدة عن الخطابية والصراخ (نثار الدموع)، (حطام من بقايا وطن)، (آمال سوداء)، (فراغ الأنين في الجراح) إلى آخر هذه الصور المترابطة المتنامية المرسومة باقتدار وبساطة كبيرين.

في سوى عشي لا تنزل أضواء الصباح
كنت أرويها بمنقاري من شعر قراح
كنت أعجوبة دهري في نشاطي ومراحي
بين أطيار بليغات وأفراخ فصاح
لم أميّز في لغاها بين صفو وتلاح[١]

إنها أول محاولة رمزية ناجحة ودالّة على خصوبة القصيدة اليمنية، ومن خلال صوره المتنامية ندرك أبعاد التجربة الإنسانية وملاءمة الصيغ المستخدمة للتعبير عن الشوق إلى الوطن. ويكون استرجاع أيام الطفولة بمثابة (الفلاش باك) المستخدم في الأفلام السينمائية الناضجة. كيف كان طفلاً يستقبل أضواء الصباح في وطنه، كيف كان يرى هذه الأضواء بشعره، ثم كيف كان أعجوبة دهره بين زملائه من الأطيار يلهو ويعبث ويمزح ثم إذا بالصورة فجأة تتغيّر وتصير إلى ما كانت عليه في المقطعَ السابق محض حطام، آمال سوداء تعبث بها الرياح وغابات فسيحة مخيفة... إلى آخره:

آه لو اجتذب العش بحبل الانتياح
آه لو يمحو مسافات النوى والبعد ماح[٢]

(١) «ثورة الشعر»، ص ١٥٥.
(٢) «ثورة الشعر»، ص ١٥٦.

وتظل القصيدة مسترسلة على هذا النحو من الإيقاع الحزين والموسيقى النائحة، وهنا لا يملك المرء إلا أن يرسل دموعه تعبيراً عن المشاركة الوجدانية المطلقة بعد أن يصل به التوتر إلى غايته ويصل المقطع الأخير من القصيدة إلى القمة في تداع بالغ الدقة والإرهاف.

— ٤ —

الزبيري السياسي، هو الزبيري الوطني، الشاعر، المتصوّف، الزاهد في الحياة ومناصبها، عند التضحية يريد أن يكون دوره الأول، وعند اقتسام المغانم أو المناصب يأبى إلا أن يكون الأخير، وعلى الرغم من أنه كان الناطق الأول باسم القضية الوطنية، والرجل الذي تهتز لكلماته جبال اليمن، فقد كان يرتضي الأدوار الثانوية ويجعل شؤون المال والرئاسة والإدارة من اختصاص غيره.

وكان بعضهم يرى ـ خطأ ـ أن مهارة الزبيري تقتصر على شاعريته لكنه فاشل كسياسي، والحقيقة أنه كان سياسياً شديد الذكاء بيد أنه في سياسته لا يعرف الكيد ولا يجيد الالتواء، وكان يعيش ـ في كل الظروف ـ بوجه واحد ـ ولسان واحد، لم يحاول يوماً أن يتخفّى وراء الأقنعة أو المساحيق، وبعبارة مختصرة كان سياسياً وطنياً ولم يكن سياسياً مصلحياً يقول (لا) في موضع (نعم)، ويقول (نعم) في موضع (لا) على حد تعبير الساسة الحواة، أو الساسة الماكرين اللاعبين على الحبال في مواقفهم اليومية من خصومهم ومن أنصارهم على السواء.

ونحن عندما نقول: إن الزبيري كان سياسياً لمّاحاً شديد الذكاء فنحن نعتمد في حيثيات هذا الحكم على مواقفه النظرية والعملية، ومواقفه النظرية مسجلة كلها في كتاباته الكثيرة وأساليبه الأدبية، في مواجهة الحكم المباد التي فضح بها الألاعيب الإمامية، وفي مقدمتها كتابه (الخدعة الكبرى) الذي يظهر فيه الزبيري كاتباً سياسياً من الطراز الفريد. لقد استطاع هذا الكتاب أن يظهر إلى أي مدى كان النظام الإمامي يخدع شعبه، وبعد أن يئس ذلك النظام من خداع الشعب نرى كذلك كيف برع

في منافقة السياسة الدولية والعربية: (إنهم متحللون من العصر الذي يعيشون فيه، فهم يعيشون صباحاً في القرن العشرين ومساء في القرن الخامس عشر... يتكلمون مع الزائر بلغة عبد الناصر ومع الشعب بلغة الحاكم بأمر الله)[١]. وفي مكان آخر يقول: (لقد أثبتنا فيما سلف أن للحكام المتوكلين مشيئة ثابتة، تستهدف الاحتفاظ بأوضاع الشعب في اليمن كما هي، وإن هذه المشيئة ليست نتيجة جهل أو آراء دينية أو جمود، وإنما هي ثمرة للإصرار الواعي والنزعة الأنانية الاستعلائية، التي لا تلين ولا تتراجع[٢]. وفي حديثه عن ينبوع «السياسة المتوكلية» يرد الزبيري على السؤال التالي: لماذا ينخدع الناس بحكامنا في الخارج؟.. فيقول: (لأنه منذ فجر النهضة الحديثة في بلاد العرب... كانت المشكلة الكبرى في الأقطار العربية الناهضة هي الاستعمار الذي شغل كل مشاعر الجيل العربي الحديث، حتى سادت فكرة عامة عند العرب، أن جميع آلامهم ومحنهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة، إنما هي من خلق الاستعمار. وهذه تعبئة روحية ضد الاستعمار تستحق الإعجاب، لولا أنها بلغت في التركيز حتى انحرفت عن المنطق السليم وأغفلت الأصول والعلل التي جلبت الاستعمار وكانت سبباً في تسلطه علينا!.. وقد كان الاستعمار وهو الذي كانت في يده مصائر العرب يشجّعهم على هذا التركيز الشديد ضده، وذلك ليصرفهم عن النظر إلى الأسباب والقواعد التي يقوم عليها وجوده في بلادنا)[٣].

إنها نظرات حكيمة وسديدة فقد كان التركيز على الأجنبي يجعل

---

(١) «الخدعة الكبرى»، ص ٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٩.
(٣) «الخدعة الكبرى»، ص ٦٥.

الطغيان المحلي على بشاعته مقبولاً، أو هكذا ينبغي أن يكون، فثمن الاستقلال ليس الحرية والعدل والبناء والتنظيم بل الجَلْد والسجن والقتل، وسلب الحقوق وتقييد الحريات، وهذه هي محنة اليمن أو بالأصح محنة نصفه المستقل حينذاك: (وحينما كان العرب يكابرون مظالم الاستعمار، ويرونه المحنة الوحيدة في الحياة، كان هناك قطر عربي واحد يتمتع ـ كما يظن العرب ـ بالاستقلال التام.. وقد أضفى الخيال العربي المنكوب بالاستعمار، على الأرض اليمنية المستقلة في زعمهم زخرفاً من الأحلام وسعادة من الأوهام، وبطولة لقادتها الحكام، وجنة تجري من فوقها ومن تحتها بركات الأصنام... ومن هنا كان من اليسير على حكام اليمن أن يواصلوا خداع الرأي العام العربي، ويؤكدون نظرياته الخاطئة عن اليمن)[١]، ولم يكن الزبيري لذلك في نظره السياسي يفرق بين مأساة جنوب اليمن المحتل وشماله المستقل صوَرياً، وقد لخّص موقفه هذا في بيت واحد من الشعر كان شعار وحدة الوطنين في شمال البلاد وجنوبها:

شطرنا يستغيث من غاصبٍ فضٍّ
وشطر من مستبدٍّ عنيد[٢]

ويتحلى ذكاؤه السياسي اللمّاح وسداد رأيه كذلك في مواقفه العملية من خلال ممارساته الوطنية، ولعل أبرز هذه المواقف وأكثرها جلاء موقفه بعد ثورة ٢٦ سبتمبر حينما نبذ الكراسي والمناصب وخرج إلى الشعب يواجه الرجعية الخائنة بصدره المفتوح وقلبه الطيّب. لقد عزّ عليه ـ وهو الذي أفنى زهرة شبابه وأحلى سنوات العمر في الكفاح ومنازلة الرجعية في

(١) «الخدعة الكبرى»، ص ٦٦.
(٢) «ثورة الشعر»، ص ١٤٠.

قصورها ـ عزّ عليه أن تعسكر الرجعية في الكهوف وعلى رؤوس الجبال لتضلل الشعب وتخدعه عن مصيره في الوقت الذي ينام فيه الثوار أصحاب الحق في مخادعهم المعطّرة، وفي حماية من جيش الجمهورية العربية المتحدة. كان يرى تناقضاً سافراً بين الطرفين، بين الذين وُلدوا وملاعق الذهب في أفواههم من أبناء الأسرة المبادة، وكيف يحاولون الاندماج في القبائل المخدوعة والحياة في صفوفها، وبين أبناء الثورة الفقراء الذين ينتمون إلى هذه القبائل المخدوعة الفقيرة حيث كان يحتمي بعضهم إلى المدن ويناضلون من المقاهي والمكاتب. صحيح أن الزبيري قد دفع حياته ثمناً لهذا الموقف السياسي الواضح لكنه لا يعني أنه كان موقفاً سياسياً فاشلاً أو مبهماً. ومهما قيل فيه بعد ذلك من أقوال، ومهما حاولت الرجعية المرتدية أثواب النظام الجديد أن توجّه إليه من سهام الحقد والنقد لعجزها عن القيام بما قام به وخوّفها من الاحتكام ـ مثل الزبيري ـ إلى الشعب صاحب المصلحة الأولى في الثورة بدلاً من الحديث إليه من خلف الأسوار.

ـ ٥ ـ

لم يقترب الزبيري من الطبيعة، ولم يعرف ما عرفه الشعراء الكلاسيكيون من وصف حسي للطبيعة، ولم يعرف كذلك سوى القليل جداً مما عرفه الشعراء الرومانسيون من مشاركة وجدانية للطبيعة في أحزانها وأفراحها، وذلك في حالة كونها ـ أي الطبيعة ـ عنده خلفية لوطنياته، سواء كانت هذه الوطنيات صرخات داوية أو حنيناً خافتاً.

يتحدث الزبيري عن ماضي اليمنيين فيقول:

لهم الجبال الراسيات
وأنفس مثل الجبال الراسيات عظام

أتراهمو صنعوا الذرى أم أنها
صنعتهم، أم أنهم أتوام

وُلدوا عمالقة محنَّطة كما
ولدت فراعنة لها الأهرام

أين (السعيدة) أن فيها جنَّةً
خضراء نماها الدهر وهو غلام؟.

أين القصور الشم أين بناتها
الأقيال، أين ملوكها الأعلام؟

أين البحار أين السدود، يرى لها
بين الشواهق زخرة وزحام[١]؟

ولم يقترب الزبيري من المرأة، المرأة الحبيبة، أو المرأة الأم، أو المرأة الرمز حيث تتعانق المرأة والوطن. وحين اقترب الزبيري من المرأة - وكانت المرة الوحيدة التي لم تتكرر - وفي أبيات محدودة العدد، عادت إليه روح الصوفيّ الذي لا يرى في المرأة جسداً لكنه يرى فيها عظمة الله ووحدة الوجود، إنه لم ينظر إليها نظرة سلفية فيهملها من حسابه، ولم ينظر إليها نظرة جنسية شأن معظم الشعراء الكلاسيكيين والجدد منهم بصفة خاصة، لكنه نظر إليها من خلال تصوّره الخاص للمرأة وللشعر. إن الشاعر كان يعرف أن الطبيعة ومن ثمة المرأة تعطي للواقع خصوصيته، لكنه مع ذلك كان يتصوّر أي شيء غير الوطن المباشر شريكاً له ينبغي تنحيته عن طريق شعره، فالطبيعة شريك للوطن ينبغي الإفلات منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والمرأة شريك ثانٍ ينبغي أن يتجنّبها كذلك. وقد استطاع إلاّ من هذه الأبيات:

اغفري لي إذا تطلّعت مأخو
ذاً إلى وجهك الطهور السَّني
ما على الشمس لو غسلت بومض
من سناها ظلام قلب شقي

(١) «صلاة في الجحيم»، ص ٦٤.

لمسة من هواك تشعل أعما
قي وتضفي عليَّ حسَّ نبي
أنتِ لستِ المها يصول عليها
كل ذئب على المها وحشي
لم يصغك الإله صيغته المثلى
لنسل أومأرب همجي
أنت من ناظريك روح إله
خالق كل خالق عبقري[(١)]

فيما عدا هذه الأبيات فقد أدار الزبيري ظهره للمرأة لا بوصفه شاعراً كلاسيكياً أو رومانسياً، بل باعتباره شاعر الوطن، وكان هذا خطأ من قِبل الشاعر مكّنت له طبيعته وتربيته المتصوّفة، فالحديث عن المرأة الحبيبة أو المرأة الرمز يمنح لعناصر الطبيعة معنى خاصاً، ويجعل للوطن في النفس تأثيراً مميزاً. إن الوطن من خلال منظوره الشعري ليس سوى اليماني البائس النظرات، الحزين الكلمات، وليس الوطن عنده سوى الظهور المحنية، والسجن والجوع، والإرهاب والإمام، لقد احتَلَّ الإنسان والإنسان اليماني المعذب كل تجربة الشاعر، وأصبح الشعب بجماهيره يشكل في رؤية الشاعر النهائية الطبيعة بأسرها، بل وصانع الطبيعة الذي إرادته عدل، ومشيئته حق:

(١) «الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن»، ص ٩١.

هـو الـشـعـب حـق مـشـيـئـاتـه
صـواب ورشـد خـطـيـئـاتـه
لـه نـبـضـنـا وأحـاسـيـسـنـا
فـمـا نـحـن إلاّ نـبـاتـاتـه[١]

وللإنصاف فإن المرأة ظلت غائبة تقريباً عن التجربة الشعرية المعاصرة في اليمن ربما لغياب دورها عن مسرح الحياة الاجتماعية، فهي حبيسة المنزل، لا تشارك الرجل معاناته النضالية والحضارية، بل إن الرجل نفسه يعيش في مجتمع منغلق خامد لا يقوم بدوره الحضاري والاجتماعي والسياسي، ولا يمارس أي نشاط إيجابي، لذلك فإن من افتعال القول، الحديث عن المرأة في الشعر والتمثل لدورها حتى لو كان دوراً رمزياً، لأن الرمز لا بد أن ينبع في البداية من الواقع، وما يزال دور المرأة اليمنية وتمثُّل همومها الاجتماعية والفنية والنضالية في انتظار الشاعر الذي لا تنقصه الحساسية الفنية الناضجة ووضوح الرؤيا.

(١) «ثورة الشعر»، ص ٥٠.

— ٦ —

في بداية حياته الشعرية ـ أو في سن الطفولة الأدبية والوطنية على حد تعبير الزبيري نفسه ـ كتب الشاعر مجموعة من القصائد توسم بالمديح وتَقَدَّمَ بها إلى الإمام يحيى وقبل مرحلة الصحوة التي انتهت، أو ابتدأت بانقلاب ١٩٤٨، وقد وجد فيها بعض المغرضين مجالاً خصباً لغمز قناة الزبيري والعدوان على ذكراه. فهل مدح الزبيري حقاً هذين الطاغيتين؟؟ . .

أنا أزعم ـ أولاً ـ أنه لم يمدح وأنه كان تارة يسيِّس الشعر فيجعله ـ كما يقول ـ رائداً يستكشف به أغوار الإمام الطاغية. . . (لقد كان شعر المديح في هذه الفترة البدائية هو الرائد المكتشف الأول وهو المجس العميق الدقيق الذي يتغلغل إلى أغوار الإمام وأعطانا المقاييس والمعايير لتقدير الحد البعيد الذي ذهب إليه الطاغية من التألُّه والقسوة والاستعلاء والإصرار. وبالنتيجة كان الشعر هو الذي أعطانا القدرة على الانتقال النفسي من مرحلة إلى مرحلة، وهز مشاعرنا ورواسبنا وملكاتنا ومخّضها مخضاً وأشعلها وصهرها، وحوَّلها إلى يقين ثوري عميق أصيل)[١].

وأزعم ـ ثانياً ـ أنه ـ أي الزبيري ـ كتب هذه القصائد أو بعضها مستعطِفاً وشاكياً من هول ما يلاقيه المناضل في سجون الإمام من بطش وتنكيل. . .(وأنا أذكر أن قصيدتي في استعطاف الإمام والشكوى من أهوال السجن انتشرت في أوساط الشعب انتشاراً سريعاً قبل أن تصل النسخة المرسَلة إلى الإمام، وأنها أحدثت أثراً عاطفياً في صالح الأحرار المعتقَلين وحسَّنَت نظرة الشعب إليهم، وهيَّأت الشعب لنقد تصرفات

(١) «ثورة الشعر»، ص ٢٤.

الإمام، ورغم أنه كان بها استعطاف ومدح للإمام يحيى فقد كانت تنطوي على وصف لآلام السجن قصدتُ به تسجيل هذه الحقيقة تاريخياً في صورة ضراعة واسترحام على قدر ما كانت تلهمنا الظروف يومئذ)[١].

وأزعم ـ ثالثاً ـ أن هذه المدائح ـ إن كانت كذلك ـ قد كانت الوسيلة الوحيدة والصوت المسموع. . . (وقد ولدت القضية الوطنية هناك في تعز في صورة قصائد كنا نلقيها على الجماهير في محافل الأعياد الضخمة لولي العهد. لقد كان عملنا يُعتبر تقدمية ونهضة وجرأة على تطور الأساليب القديمة في الأدب والشعر، وجرأة على الظهور والطموح والتبشير بوجود عصر حديث لم يكن للناس به علم في بلادنا)[٢].

وفي ظل هذه الاعتبارات والحيثيات لا يكون شاعرنا مادحاً بل سياسياً ماهراً يرى أن الكلمة خدعة، فالشعر أحياناً سلاح من أسلحة الحرب، ولا بأس في ميدان الصراع أن تكون الخدعة سلاحاً شاعراً[٣]، وقد تحول ذلك النوع من الشعر كما يقول الزبيري نفسه: (تحول بطبيعته إلى لون رمزي من ألوان الهجاء). وقد وقف الزبيري عند بيت واحد من شعره الموسوم بالمديح ليفند آراء بعض الأدعياء الذين كانوا يرون في قصائد الاستعطاف مدحاً، لقد قال من ضمن مرافعة بليغة طويلة: (لندع أمر الشاعر الذي قال هذا البيت ولنضرب صفحاً عما كان يعنيه من مدح أو ذم ولنفترض ـ وهذا فرض واقعي معقول ـ أن أديباً في مصر أو العراق أو غيرهما قرأ هذه القصيدة أو قرأ تاريخها والظروف التي قيلت فيها وعرف أن قائلها كان مسجوناً منفياً مكبّلاً بالحديد ثم وقف عند هذا حينئذ مأخوذاً

(١) المرجع السابق، ص ٢٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٣) "ثورة الشعر"، ص ٩.

ذاهلاً. . . ماذا؟. . . سجين منفي، جاثم تحت وطأة الحديد، ينادي ويصرخ في هذا البيت. . . لا أنت يا مَن عذَّبتني ونفيتني، وروّعت أهلي وحمّلتني أثقال الحديد، وسلبتني الحريات، وهددتني بالإعدام، وأنزلت عليَّ أفظع العقوبات بلا ذنب ولا جريرة إلا أني أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر. . . يا مَن أنتَ هذا كله، ويا مَن تعتقد أنك خليفة الله وأنك وكيل رسول الله والمهيمن على عباد الله حتى لو حاد امرؤ عن أمرك ما كان إلاّ يهودياً أو نصرانياً، يا مَن أنت هذا كله:

هب لي بقية مهجة أحيا بها
إني لأرضى بالحياة وأقنع

ويا مَن تستحسن أن تكون الناس عبيداً لجلالتك:

دعني لساناً عن جنابك ذائداً
أو لا فعبداً من عبيدك طيع

وإني لأناشد أدباء العربية جميعاً: هل يفهمون في هذا مدحاً أو ذماً؟. وهل يرون الشاعر مسرفاً في المدح أم قديراً على التهكم الموجع والهجاء المرير؟. . .[1].

وهنا تبدو الحجة واضحة والاقتران ثابتاً بين الحيثيات والقضية، كما أن إرهاق الشاعر نفسه وإرهاق قارئه بالتأكيد على براءته أمر يثير الإعجاب بالشاعر، ويثير الازدراء بالذين يغمزونه أو يلمزونه ومنهم مَن ينطبق عليه المثل الشائع (رمتني بدائها وانسلت).

(١) «صوت اليمن»، عدد ٤٦، ٢٥ سبتمبر ١٩٤٧.

وقد يكون من باب التذكير، التذكير فقط، الإشارة إلى قصيدة الزبيري في الملك عبد العزيز آل سعود (في أواخر الثلاثينات وقبل أن يتفجر البترول (فتلك القصيدة كما نرى من نوع المدح الكيدي أو المدح السياسي الذي يكيد فيه الشاعر للإمام يحيى ويتشفى بموقفه المهزوم، فقد كانت أول ضربة قاصمة يتلقاها نظامه العتيق من خصمه العنيد ابن سعود، وكان في مدح ذلك الخصم سخرية من الإمام وإذلال له، ومنها كذلك ما جاء في قصيدته الشهيرة: «ناشدتك الإحساس يا أقلام»:

ما كان ضرّهم وهم من هاشم

لو أنهم كابن السعود كرام

إنه لا يمدح حكام السعودية بقدر ما يستثير في حكام اليمن النخوة التاريخية، يوقظ في نفوسهم روح الهزيمة المرة، فربما انصاعوا إلى الحق وتعطّفوا على شعبهم المستعبد لكن هيهات... لذلك فقد قرر الشاعر ألاّ يمدح غير شعبه وألاّ يكتب إلاّ له:

وقفت لساني في هواك غنائها

فإذا تغنّت في سواكَ قطعتها[١]

(١) «صلاة في الجحيم»، ص ١.

— ٧ —

وبعد، فإنه من الصعب تقديم شاعر كبير كالزبيري بمثل هذه الكلمات القلائل، ومع ذلك فيكفي هذا التقديم أنه استطاع أن يضيء بعض الجوانب الصغيرة من تجربة الزبيري السياسي والشاعر. وما أصدق أستاذنا الدكتور عزالدين إسماعيل حين قال: (إن الشعر كالقصر المتعدد الشرفات والنوافذ والأبواب، نراه في كل مرة من زاوية بعينها فنستجلي جزءاً من حقيقته، ويبقى استجلاء حقيقته الكلية رهناً بأن ننظر إليه بمائة عين في وقت واحد، وهو ما ليس في مقدورنا، ولهذا يتحتم علينا دائماً أن نتحرك من موضعنا، ونحاول الدوران حوله المرة بعد المرة، علّنا نُبصر فيه شيئاً فاتنا من قبل إدراكه)[1]، وهذا ما بدأت أدركه تمام الإدراك وما أرجو أن يلقاه شعر الزبيري في الحاضر وفي المستقبل القريب والبعيد. ولست أرى ضرراً في اختلاف الدارسين من حول شعره فإنما يرجع ذلك إلى اختلاف المراحل التي مرّ بها تفكير الشاعر خلال ثلاثين عاماً وإلى رهافة الحس وصدق التجربة اللّتين رصد بهما تغيّرات الواقع في عصره.

ولقد قال والت وايتمان: «إن دليل شاعرية الشاعر أن تتشبع بلاده بحبه تشبّعه بحبها»، وأجزم أن هذا الوصف لا يصدق على شاعر في اليمن ـ ولا حتى في الوطن العربي بأسره ـ كما يصدق على شاعرنا الشهيد محمد محمود الزبيري، فقد ارتبطت حياة هذا الشاعر المناضل بحياة شعبه المناضل وكوّنا خلال ثلاثين عاماً (من أواسط الثلاثينات إلى أواسط الستينات) توأماً روحياً وعاطفياً يتبادل الحب والتضحية:

---

(١) «روح العصر» ص ٨٥ ، دار العربي ـ بيروت، ١٩٧٢.

وطني أنت نفحة الله ما تبرح

لا عن قلبي ولا عن لِسَاني

صوّر الله منك طينة قلبي

وبرى من شذاك روح بياني

شعلة القلب لو أذيعت لقالوا

مرّ عبر الأثير نصل يماني(١)

والشاعر الشهيد محمد محمود الزبيري يهدي ديوانه الأول إلى وطنه بهذه الأبيات:

الشاعرية في روائع سحرها

أنت الذي سوّيتها وصنعتها

ما لي بها جهد فأنت سكبتها

بدمي وأنت بمهجتي أودعتها

أنت الذي بشذاك قد عطّرتها

ونشرتها بين الورى وأذعتها

---

(١) «صلاة في الجحيم»، ص ٩١.

وقفت لساني في هواك غنائها
فإذا تغنّت في سواك قطعتها[١]

إن عظمة الزبيري تتمثل في هذا التوحد الخلاّق وفي الذوبان الكامل في الوطن، وعظمته كذلك تتمثل في قدرته الفائقة على ربط مشاعره بمشاعر شعبه حتى نال شعره من الذيوع والانتشار، وفي فترات الظلم والاضطهاد بصفة خاصة ما لم ينله شعر شاعر معاصر. وعلى الرغم من مضي عشر سنوات من استشهاده فما زال صوته يتردد عالياً، وكالنهر يشقّ طريقه في أعماق الأجيال الطالعة ويملأ شرايينها ببلازما الثورة، ويحصّنها ضد أخطار التخلّف والنكوص.

عبد العزيز المقالح

(١) "صلاة في الجحيم"، ص ٥ .



ثورة الشعر

قصتي مع الشعر

١ - قصتي مع الشّعر، هي قصتي مع الحياة، وقد كان من الأدق، والأصح، من حيث الواقع، والمنطق، أن أجعل العنوان: «قصة الشعر معي»، وذلك لأن الشعر نبضة من نبضات الحياة يدور معها حيث تدور، وهو ظل يعبّر عن ألوانها، وتقلّباتها، وليس الأمر بالعكس. ولكن الشعر في هذه المقدمة هو سيد الموقف، فلا بدّ أن نضعه في مكانه فنسير معه أو ندور حوله.

على أننا سوف نرى أن النتيجة سوف تكون واحدة، فسواء كنت مع الشعر، أو كان الشعر معي، فإن الحقيقة الجوهرية في كلا الحالين هو أن هناك تلازماً، وتشابهاً، وتشابكاً بين أطوار الحياة، وأطوار الشعر، وإذا كان لا يجرح كبرياء الشعر أن يكون تابعاً للحياة، فنحن نعلم أنه لن يمس كبرياء الحياة لو جعلناها كائناً شاعرياً، لأننا نكون حينئذ قد رفعناها فوق مكانتها، وفوق ما تستطيع أن تكون.

٢ - طور واحدمن أطوار حياتي لم يستطع الشعر أن يقترن به أو يعبر عنه، وهو طور التكوين الروحي، الذي انغلقت عليه أصول شخصيتي، وانغرست في أعماقه جذور نوازعي، واتجاهاتي، وتشكلت في قوالبه أطوال نفسي وألوانها، ومعاييرها، فلم تستطع منها فكاكاً حقيقياً.

ولقد أغلقت على قوالب هذا التكوين العنيدة كما تغلق الكبسولة على رجل الفضاء، فبينما هو يزعم الانفلات من سلطان الأرض، وقوانينها إلى مجاهل الكون الأجنبي القصيّ، إذ هو يجد نفسه في الواقع سجين قوالبه، ونواميسه ومعاييره الأرضية، أينما ذهب، وراح. وعند أن تستهويه طيوف

الفضاء، وألوانه، وأوهامه، وتغريه بالتمرد على الكبسولة، وعلى دروعها السميكة، أو يسمح بأن تتسرب إليه من خلالها ذرّات من أنفاس الأشعة الكونية حينئذ تتعرض حياته للخطر، ويحس بعوامل التشويه، والتدمير تدب في أوصال كيانه.

٣ ـ فلماذا إذن لم يسجل الشعر هذا الطور الأول من أطوار حياتي. .؟

الواقع أن الشعر هو الطيف الساحر الجذّاب الذي استدرجني من الحياة المنغلقة في كبسولتي، حتى جعل قبضتي تتراخى، وتسمح بتسرّب العوامل الخارجية، فتحدث الارتباك في جوّ القالب المدرع العنيد، وأذهلني الشعر المتسلل إلى حياتي عن تصوير الطور الروحي من أطوارها، وجعلني أحلم بأني قد أفلت منه، رغم أني لا زلت في قبضته القوية.

تسلم الشعر زمام نفسي، وأخذ يوجهها داخل النطاق الروحي، دون أن يدري، ويغامر بها في تجارب الأحلام، ويطير بها عبر ضروب عديدة من المسارات، فشرق بها، وغرَّب، وشمأل، وجنّب، وأقدم، وأحجم، وهادن، وحارب، واقتحم بها دنيا العصر الحديث قفزة ظافرة إجتازت القرون من سنين، وخاضت مع جيل العصر مختلَف الأفكار، والتيارات، ومصطرع المذاهب الدينية، والسياسية، والأدبية والاجتماعية.

وتفاعلت نفسي مع الشعر، وتفاعل معها ونما خلال نموّها، فكانت طفولتي طفولته، وشبابي شبابه، ونضجي نضجه، وكان يسير جنباً إلى جنب حيث أسير، فهو ساذج في سن المراهقة، وطائش عندما أطيش، وحزين عندما أحزن، وحالِم وقت ما أحلم، إذا لعبت لعبَ مثلي، وإذا جدَّيت قلَّد جَدِّي، وعندما كانت يدي تلعب بقطع الشطرنج للتدريب على

فنون الكرّ والفرّ، والهجوم، والدفاع، كان هو يعبث برؤوس الملوك يقذفها جواً، ويطرحها أرضاً، ويزغرد بها فرحاً، ويئن منها جزَعاً، ويطاردها وتطارده، ويقتلها وتقتله، السن بالسن، والعين بالعين، والحروب سِجال.

وإذا كانت اللسان غير معصومة في ثرثرتها، وهذرها، وانطلاقها خلال الغدو، والعشي، والجد، والهزل، والرضى، والغضب، فكذلك يكون الشعر عندما يكون عملاً عادياً تلقائياً من أعمال القلب واللسان، ونتاجاً طبيعياً من نتاج الحياة وصدى من أصدائها، ومظهراً من مظاهرها.

وأنا لست أدري لماذا يوضع الشعر وحده في قفص الإتهام، ولا توضع اللسان كذلك من جراء هذرها اليومي.

المجرد أن الشعر تجمّل وتزيّن، وأدخل على نفسه فن اللذة، وسحر الجمال...؟

أم لأنه من الكائنات الحية التي ترفض أن تموت، كما رفض الشيطان فحُقّت عليه لعنة المنظرين...؟

٥ - مهما يكن من أمر فإن الحقيقة الواقعة أن الشعر هو الذي أخرجني من القمقم، وقادني إلى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات.

وإذا كانت مناكب الأرض ليست مهاداً معبداً أملس يجري فيها الإنسان كما يجري النغم في جو رهو صحو، فكذلك الحياة كلها منحنيات، وعقابيل، وعراقيل، وكذلك فإن الشعر لا يجري إلا كما

تجري الحياة على ظهر الأرض، إذ هو صدى من أصدائها، ونتيجة من نتائجها.

وقد يكون الشعر كما أتصور يعني الصدق الذاتي، كما يعني الصدق الموضوعي، والذات منها الأعماق، ومنها السطح، ومنها القشور ومنها اللباب، فيها السوي والمعوج، وفيها الشر والخير، وفيها العدل والظلم، وفيها الحيلة والإلتواء، وفيها الإستقامة والوضوح.

وإذا كانت الحرب خدعة، فالشعر أحياناً سلاح من أسلحة الحرب، ولا بأس في ميدان الصراع أن تكون الخدعة سلاحاً شاعراً...

على أن المعيار الحق في وزن أقدار الرجال وآدابهم وأشعارهم لا يتجه إلى الاستثناءات والمواقف المؤقتة، والجانبية والسطحية، وإنما ينبغي أن يتجه إلى تقييم الاهتمامات الرئيسية ومظاهر السلوك، وأهدافه والطابع العام الأعمق، والنهايات الكبرى.

تلك هي ما ينبغي للمنصفين أن يضعوها في الميزان عندما يدرسون حياة الناس، وآثارهم كبشر، لا كمخلوقات خرافية، أو ملائكية سماوية وهذا التمييز بين ما هو رئيسي، وثانوي وبين ما هو حقيقة جوهرية، وعملية تحايل في سبيل الحقيقة، هو الطريق الآمن السوي وسط الدروب المشبوهة الماكرة، والمتاهات المظلمة المضلّلة.

٦ ـ بدأت حياتي طالب علم ينحو منحى الصوفية في العزوف، والروحانية وتعشّقت هذا اللون من الحياة رغم اليتم والشظف والقلّة، ونعمت به كما لم أنعم بشيء آخر بعد ذلك.

ولم يستطع أن ينتزعني من هذه الأجواء غير نشدان الشعر والأدب، وتعشقت الحياة الأدبية، وهمت بها هياماً، ولم تستطع أن تصرفني عنها، وتصدّني عن التفرغ لها إلا المعارك النضالية السياسية التي تمخضت عنها الحياة الأدبية.

فروحانيتي عليها جنى الأدب، وأدبي عوقب بالسياسة، فزجت به في المعارك المريرة الطويلة المدى، وانتقمت منه شر انتقام.

على أن هذه المراحل كلها إنما تتباين هكذا في مظاهرها السطحية، أما في أعماق الواقع، فإنها مراحل متداخلة تسودها روح واحدة، وتحوطها منها كما أسلفت بدروع كدروع الكبسولة التي تخوض غمار الفضاء الخارجي الرهيب وهي ترتعد.

وشعري أو معظمه تطغى عليه السياسة سواء ما كان منه مدحاً، وما كان رثاء، وما كان ثورة، وما كان شكوى، أو كما كان شيئاً غير ذلك وهذا هو المنطق الواقع، فإن حياتي كلها ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأي حال من الأحوال.

كنتُ مفتوناً بشعري إلى أبعد حدود الفتنة؛ فلقد كنت أتناوله في جو روحاني يمنحني الغبطة مضاعفة، ويعطيني ثقة خيالية بالنفس، وأمناً غامضاً لا مبرر له من الواقع المحسوس، كما كان يشعرني بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة، وبنزوع إلى الاستعلاء على الاهتمامات العادية، والإيمان بقدرة لا أمتلك في يدي شيئاً منها، كنت أحس إحساساً أسطورياً بأني قادر بالأدب وحده على أن أقوّض ألف عام من الفساد، والظلم، والطغيان، لست أدري أذلك من تخريف الخيال الشاعري الجامح، أم هو ومضة من ومضات الذخر الصوفي السجين في أعماقي.

مصدر اليقين في الثورة

١ ـ كانت طليعة الشباب الأحرار اليمنيين قبل الحرب العالمية، وأثناءها يقتحمون بأفكارهم الشابة المتفتحة عالماً ضخماً معقداً جديداً عليهم، مليئاً بالألغاز، والاحتمالات والمتاهات. هم ينتمون ببيئتهم، وأسرهم، ومجتمعهم، وعواملهم الوراثية، ودولتهم إلى ما قبل خمسمائة عام أو تزيد؛ ولكن كُتب عليهم أن يفتحوا أعينهم على عصر آخر غير العصر الذي ينتمون إليه، وأن يكونوا جسراً يعبر الشعب عليه، ويقطع مسافة قرون طويلة، وتلك رسالة من أصعب الرسالات التي يتحمّلها جيل من الأجيال.

إن هذا الجيل المخضرم لا يستطيع أن ينهض بالعبء إلا إذا نجح في أمور ثلاثة:

الأول: أن ينضج فهمه، وانتماؤه لروح شعبه، وروح العصر القديم الذي ينتمي إليه شعبه نضجاً تاماً.

الثاني: أن يتغلغل فهمه إلى روح الحضارة الحديثة لا أن يعيش على السطح منها.

الثالث: أن تكون عنده نزعة روحية ترتفع به فوق مستوى أهوائه الذاتية، ومنافعه المادية، لكي تكون هذه النزعة بالنسبة إليه كمحطة للفضاء التي يُراد لها أن تكون مرحلة بين الأرض والقمر... فرغم أنها تنتمي إلى الأرض ونواميسها عموماً، وتضحي في سبيلها، فإنها تتسامى إلى فوق مستويات حياتها الروتينية الجامدة، كما هي لا تنحدر إلى جاذبية القمر، وإن كانت تدنو منها، وتراها كما لا يراها أهل الأرض؛ وبغير مثل

هذا التسامي لا يستطيع الجيل المخضرم أن يقاوم عوامل الضغط الهائلة من عالمين إثنين:

عالم شعبه المعرق في القدم الذي تسوده نواميس الموت والتحجّر؛ وعالم الشعوب العصرية الحديثة التي تلوح له بسحر حياة لا يستطيع أن يحياها بطريقة طبيعية كما هي، مهما تكلّف وتكيّف ولو عاشها فإنه دون شك سيعيشها إنساناً غير متكامل لأنه سيكون مخلوقاً شائهاً ينقصه الضمير وينقصه الخلق أيضاً.

وبدون شك فإن فهمه لروح شعبه الذي ينتمي إليه يقتضي فهماً كاملاً لظروفه السياسية والاجتماعية، والدينية وإذا استثنينا شؤون الدين الذي توجد مراجعه في الكتب، فإن جميع الظروف الأخرى السياسية والاجتماعية ظروف غامضة منغلقة على نفسها، وعلى أهلها.

ولا يستطاع حل ألغازها، وفتح مغاليقها، واكتشاف نواميسها، إلا عن طريق التجربة، والتعامل مع القوى السياسية التي تمثل سلطان القديم كله إلى جانب دراسة روح الشعب عن طريق ممارسة الحياة التي تحياها الجماهير ممارسة صادقة عميقة، لا ممارسة مسرحية.

٢ ـ فمن خلال الحس الوطني العميق لمعنى المهمة، التي كُتب على الشباب قبل عشرين عاماً أن يضطلعوا بها، مارسنا التجربة الحيّة على الطبيعة، ونبشنا ركام شعبنا، وحطام تاريخنا، ورواسبنا إلى الأعماق.

لقد كانت التجربة الأولى هي تجربة الرعيل الأول من رفاقنا، نبع فريق منهم من الأرض اليمنية عن طريق المطالعات للكتب الحديثة، ووفد آخرون عائدين من بغداد، بعد أن أنهوا دراستهم العسكرية، كانت

تجربتهم التبشير بأفكار عصرية بحتة ونقلها إلى شعبهم كما هي، وهو شعب ـ كان ـ لم يعرف أي شيء عن العصر الحديث، وكان لهذا الأسلوب ردّ فعل شعبي ورسمي مضاد، وشاعت عنهم حكاية الاختصار للقرآن كذباً، وبهتاناً، ولكنها شاعت لأنهم لم يتخذوا الاحتياطات ضد قبول مثل هذه الإشاعات. وكان كل هذا شيئاً طبيعياً، لأنها التجربة الأولى، وسهل على الحكم الرجعي أن يلغي وجودهم بالسجن، وكان الشعب يطلب ما هو أكثر من السجن. ولم يستطع الشباب بمجرد هذه التجربة أن يكتشفوا معدن الحكام على حقيقته.

٣ ـ تدارسنا هذه التجربة بعد الرعيل الأول، فأدركنا أنه لا يتم عمل ولا تقدم ولا تنجح دعوة عن غير طريق الدين الذي يستمد الحكام منه سلطتهم وقلنا: إنه لا بد لنا من إحدى الحسنيين، فإما أن يسمح الحكام للفكرة بالانتشار فهو النجاح السلمي على مستوى الحكومة والشعب معاً، وإما أن يرفضوها، ويقاوموها وهي دعامة حكمهم فسيضطرون لهدم هذه الدعامة ويصبح حكمهم بغيرأساس.

ولكننا وجدنا أنفسنا في السجن رغم هذا التكتيك؛ ووجدنا الشعب يتخلى عنا، ورأينا أن تحجره، وانصياعه للحكام أبعد مما تصورناه.

ورأينا أن التاريخ سيحكم علينا بالتهوّر والتسرّع إذا لم نكرر التجارب بطرق أكثر ليناً، فالعامل الإنساني يجب أن يراعى حتى بالنسبة إلى حكام يسيطرون على مقدرات الشعب بغير حق، والله سبحانه وتعالى يقول لموسى وهارون عليهما السلام. وهو يبعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: الآية ٤٤].

ومن هنا نشأت فكرة التطامن للعاصفة بعد أن وجدنا أنفسنا سجناء «جبل الأهنوم». وظهرت الثقة بمقدرة الشعر على إقناع الحكام بأننا لسنا أعداء بل إننا أبناؤهم البررة. وإننا على استعداد لأن نكون كسائر أفراد الشعب مستمعين مطيعين، نراهم كما يراهم الناس.

والهدف من ذلك إعادة التجربة بأسلوب يحفظ على الحكام كبرياءهم، حتى إذا كانت الكبرياء هي التي تحول دون تسامحهم مع نشاطنا المرجو، فإننا نكون بهذه المداراة قد ساعدناهم على أن يكونوا طيّبين معنا.

وقد نجح الشعر هنا في إقناعهم بأننا لسنا لهم بالأعداء فأطلقوا سراح البعض بعد تسعة أشهر، ولكنهم ظنوا أننا سوف نرضى عنهم، ونتعايش معهم بمجرد أن يغدقوا علينا من أموال الدولة ومناصبها، فلم يتغيروا بعد إطلاقنا من السجن في شيء ما غير الاستعداد لمساومتنا من الناحية الشخصية.

٤ ـ وبذلك انتهت مدة تجربتي مع الإمام يحيى بالذات بعد أن أدركت بعمق وبيقين أنه يعادي كل تطور، وكل إصلاح وأنه لا ينفع معه رفق، ولا لين، ولا استعطاف ولا ثناء، إذا كان المطلوب منه أن يحقق إصلاحاً، ولو على الأسس الدينية.

لقد كانت تجربة خصبة عميقة كسبنا منها الأساس الأول للثورة، وهو اليقين باستحالة تغيير الإمام يحيى عن غير طريق القوة.

ولم يكن هذا اليقين الثوري ليحصل إلا بعد المرور على كل هذه التجارب، وأهمها في رأيي استعطاف الشعر بكل ما فيه من تأثير عاطفي شديد.

إن محاولة إقناع الإمام يحيى بواسطة الفكر الديني ثم المدائح الشعرية التي قدمت إليه في هذه المرحلة التجريبية كلها تُعتبر وثائق تاريخية، تدل على المحاولات الجادة لإقناع الإمام بالحكمة، وبأرق الوسائل الودية كي يسمح بالتطور الإصلاحي المنشود، ولا يستطيع أحد في المستقبل القريب أو البعيد أن يزعم بأن الإمام يحيى عارض الإصلاح خوفاً على الدين، فإن التجربة قدمت نفسها كدين، أو يزعم بأنه تشدد واستبد، وأصر على طغيانه لأنه صُدم شخصياً، أو جرح كبرياؤه، فالشعر شاهد حي سيبقى برهاناً تاريخياً على أن الإمام يحيى ـ الذي لقي مصرعه بعد سنوات قليلة من المدائح. والاستعطاف ـ كان قد أعطي أكثر مما يستحق من الثناء والاحترام، وأُتيحت له الفرصة، ووفرت له الكرامة، وقدمت إليه الأفكار، والنصائح في جو من الود، والاستعطاف، والإكبار، لا يدع له مجالاً للتعليل والاعتذار، وأنه بإصراره رغم كل ذلك وعناده، واستبداده، يُعتبر المسؤول الذي جعل الخلاص منه بالقوة هو الطريق الوحيد، الذي لا طريق سواه.

٥ ـ أنا أعرف أن الذين يعيشون في ثورة اليوم، ووعي اليوم من شباب اليمن بالذات يضيّقون من محاولاتنا لتبرير الثورة على الإمام يحيى، فهي قد أصبحت من البديهيات.

ولكن إذا كانت الأمور بعد عشرين عاماً تبدو لنا واضحة جلية، ويبدو فيها وجه الحق بيّناً ساطعاً. فهي لم تكن كذلك من قبل. . . كان كل ما في اليمن يبدو مشوشاً غامضاً مظلماً، بل كان عالماً من الألغاز، والطلاسم والمتاهات.

وكان إحساسنا المزدوج المضطرب بين العالم القديم، والجديد،

وكانت حيرتنا بين طقوس العبودية التي يعيشها جيلنا يومئذ، وبين مثل العصر الحديث الذي تسلّلنا إليه مبهورين ذاهلين، كل ذلك يفرض علينا مسؤولية التحقق بأنفسنا، وبالتجربة الحياتية الذاتية من الأمور الآتية:

١ ـ هل الإمام يحيى بطل قومي، تزعّم الثورة ضد الأتراك وتربّع على العرش لأهداف سامية كما كانت سمعته الخارجية والداخلية تزعم له ذلك[١]...؟

٢ ـ هل الإمام يحيى الذي تزعّم الثورة ضد الأتراك صالح لتزعّم ثورة تطورية؟ ولو مترفقة بطيئة متزنة تجنب الشعب آلام المخاض الثوري العنيف؟

٣ ـ هل الإمام يحيى رجل قابل للأخذ والرد والتفاهم مع الناصحين المتوددين، أم أنه عنيد مستبد، متأله، يرفض أن يعطي أحداً حق النصح، والمشورة، وإبداء الرأي!

٤ ـ هل العزلة، والتأخر، والفساد في اليمن آتية تلقائياً لعوامل تاريخية، وجغرافية، دون أن يكون للحكام دور أساسي في تجميدها، وحمايتها أم أن للحكام دوراً يتحمّلون جزاءه ومسؤولياته؟

٥ ـ هل عند الإمام يحيى نزعة الاستبداد، والتسلط والإصرار على خنق الشعب، أم أن الشعب هو الذي يخنق نفسه، ويرفض الحياة والتطور؟

٦ ـ هل كان يمكن أن تتطور البلاد سلمياً، وبالتدريج وبالتفاهم مع الإمام يحيى، والتودد إليه، أم لا بد أن يأخذ التطور طابعاً ثورياً لا هوادة فيه؟

---

(١) كان كثيرون من قادة العرب الأحرار يرشحون الإمام يحيى لقيادة الأمة العربية نحو الوحدة والتحرّر. وكان ياسين الهاشمي من رؤساء الوزارة العراقية يرى أن تكون اليمن قاعدة النضال العربي ومنطلقه، لأنها أول دولة عربية استقلّت.

٧ ـ ومن جهة أخرى، فهل كان الشعب مستعداً أن يجابه الإمام بمطالبه، ويقف مع الأحرار، دون أن يسلّمهم إليه، ويتركهم تحت رحمته، ويبرر كل تصرفاته الاستبدادية. . . . ؟

٦ ـ لا شك أننا لو أغمضنا أعيننا، وألغينا من تاريخ اليمن الحديث هذه الفترة البدائية من محاولات الشبيبة اليمنية، واحتكاكها بالإمام توجيهاً، وتبشيراً واستعطافاً، ومدحاً وتطرفاً، واعتدالاً، وسجوناً، أو غلالاً.

ثم بدأنا استعراض التاريخ فقط منذ أعلنت الحركة المعارضة العنيفة من عدن، والقاهرة، التي أدت أخيراً إلى مصرع الإمام يحيى، وبعض بنيه، ورجاله، ثم إلى فشل الحكم الثوري الدستوري، والمذابح البشعة، والفتن، والنهب، والسلب، والخراب، والدمار.

ثم ما أعقب ذلك كله من حكم الإمام أحمد الرهيب.

لو فعلنا ذلك لما استطعنا أن نفهم المبرر العادل للأعمال الثورية العنيفة، بل ولحكمنا على الأحرار بالتهوّر، والمجازفة بالأرواح والأموال والمصائر، وافتعال ثورة لا ضرورة لها، ولا يقين فيها.

ولقد كان شعر المدح في هذه الفترة البدائية هو الرائد والمستكشف الأول، وهو المجسّ العميق الدقيق الذي تغلغل إلى أغوار نفس الإمام، وأعطانا المقاييس، والمعايير لتقدير الحد البعيد الذي ذهب إليه الطاغية من التأله، والقسوة والاستعلاء، والإصرار.

وبالنتيجة الحتمية كان الشعر هو الذي أعطانا القدرة على الانتقال النفسي من مرحلة إلى مرحلة، وهزّ مشاعرنا، ورواسبنا، وتلكآتنا، ومخضها مخضاً وأشعلها وصهرها، وحوّلها إلى يقين ثوري عميق أصيل.

٧ ـ ولم تكن طليعة الأحرار وحدها هي التي تمارس هذه التجربة

الإنتقالية الصادقة العاقلة، بل كان الشعب معها يتطور وينتقل، ويرصد الخطوات، ويحاكمها، ويحكم فيها طبقاً لما يراه ويشهده.

ولو كانت الأحداث التي يشهدها الشعب هي مجرد الاعتقالات، وضروب البطش، والتنكيل لكانت عناصر المشهد التاريخي ناقصة بالنسبة إلى الشعب أفدح النقص. إذ لا يستطيع أن يجزم، ويحكم على الإمام يحيى بالقوة والعناد دون أن يشهد ضراعة الأحرار إليه، وترفقهم بسنّه ومكانته، ولم يكن هذا كله ليتم، أو يعرف للشعب إلا عن طريق الشعر السيّار الذي يقرؤه الصغار والكبار.

وقد بقي سؤال آخر في الصميم وهو: -

هل الشعب كان يقبل من الشباب أن يتهوّروا ويتطاولوا أو يتحدوا شعور الإمام يحيى من بداية التجربة...؟ أم كان الشعب يريد الإصرار على الترفق والتأدب مع السلطة الروحية، والزمنية...؟

الذي أجزم به أن الشعب لم يكن يطيق أية قسوة على الإمام بقول أو عمل، وكان يعتبرها طيشاً، وينفر منها أشد النفور بل ولم يكن يرى لها في حياته مبرراً، في حين كان شعر المدائح والاستعطاف، والتشجيع يلقى استحساناً عاماً من المواطنين.

ونحن فلم نكن إلا جزءاً من الشعب، وصدى من أصدائه، ومحاولة من محاولاته البدائية في سبيل النمو والتطوّر.

وأنا أذكر أن قصيدتي في استعطاف الإمام والشكوى من أهوال السجن انتشرت في صفوف الشعب انتشاراً سريعاً، قبل أن تصل النسخة المرسَلة إلى الإمام، وأنها أحدثت أثراً عاطفياً في صالح الأحرار المعتقلين، وحسّنت نظرة الشعب إليهم وهيّأت الشعب لنقد تصرفات الإمام، ورغم

أنه كان فيها استعطاف ومدح للإمام يحيى، فقد كانت تنطوي على وصف لآلام السجن قصدت به تسجيل هذه الحقيقة تاريخياً في صورة ضراعة واسترحام، على قدر ما كانت تلهمنا الظروف يومئذ.

وكنت أرى أني بذلك الوصف الرقيق الحزين، وإن جعلته موجّهاً إلى الإمام فهو يستدر عطف الشعب كنتيجة طبيعية للوصف الشاعري المؤثر، كما كنت أرى أن الشعب في هذه المرحلة من حياته يمكن التأثير عليه من الناحية العاطفية البسيطة دون الجانب العقلي الذي لم يبلغ فيه رشده يومئذ.

ومن جهة أخرى فإن المبالغات في المدح، والشكوى، والاستعطاف يقدم إلى الأجيال صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين الذين أوقعتهم الأقدار تحت رحمته فاضطرهم بقسوته، واستبداده ومنطقه المتأله إلى أن يمدحوه ذلك المدح الذي يتحوّل بطبيعته إلى لون رمزي من ألوان الهجاء.

٨ ـ ووراء ذلك كله فتلك هي سن الطفولة الأدبية، والوطنية وذلك هو منطقها الذي عشناه.

وإذا كان في الناس اليوم من قد تطوروا، واجتازوا هذه المرحلة بعيداً فلا يستطيع أحد أن يدعي بأن الشاعر متأخر عنهم في هذا التطوّر، وهو من التواضع، والخجل الشديد مضطر في سبيل تبرير المراحل الأدبية الماضية، أن يذكر من لم يتذكر بأنه ولله الحمد ممن ساهموا في صنع التطور الثوري، وفي ابتداع المعايير الثورية التي يوزن بها الرجال، والحق أن هذا الشاعر عرضة لأن يتهم بالتطرّف، أكثر مما يتهم بأنه صانع الحكام في طفولته قبل أن توجد معارضة أو معارضون.

٩ - وإذا كانت مرحلة التجربة مع الإمام يحيى قد أعطتنا اليقين الثوري بالنسبة إليه، وتأكدنا بأن القوة هي الوسيلة الوحيدة للخلاص من حكمه، فقد بقي أنه وإن كان رأس الدولة، فهو قد كان الرأس اليانع للموت بحكم سنه؛ وهو مع ذلك شطر الدولة، أما الشطر الثاني فهو ابنه أحمد وهو الأهم، والأخطر.

ومن هنا نرى أن التجربة لن تتم صورتها إلا بالإنتقال إلى ولي العهد أحمد بن الإمام يحيى الرجل المؤمل للمستقبل.

في شهر ذي القعدة سنة ١٣٨١ هـ، مايو سنة ١٩٦٢ كلنا قد أصبحنا أحراراً أبطالاً حتى نفايات حاشية الإمام، وأهله، وذووه، وكلنا يستطيع أن يكتب حكم التأريخ بشجاعة على أحمد بن يحيى حميد الدين، ويكتب المقالات الطوال، عن أعاجيب أطواره، وجرائر حكمه.

والشيء الوحيد الذي يعجزنا جميعاً، هو الإتيان بالجديد المجهول في هذا الشأن.

ولكنا في عام ١٣٦١ هـ كنا نرى في هذا الرجل بطلاً، في وقت كنا نحن وشعبنا في أشد العجز عن خلق الأبطال، وصنع البطولات.

كان ولي العهد أحمد رمز الأمل، ومناط الرجاء في القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الإمام يحيى. وكان رجال هذه الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا «أحمد» حتى لقد أرسل عصابة من رجاله وحرسه، فأحرقوا قصر أحد رجال الحاشية، بعدما اشتد تذمر الناس منه، وهو «السيد علي لطفي».

ومن جهة أخرى فهو البطل الأسطوري فيما كانت تزعم له البلاد كلها من مواقف بطولية خيالية في حروب عديدة. ومن ثم كانت الأنظار تتجه

إلى بطولته كلما تذكر الناس الجنوب اليمني المحتل وحاجتهم إلى بطل يحرره من الاحتلال الانجليزي.

بل كان يرشح أكثر من ذلك لقهر الحكام السعوديين ليس من أجل استرداد الأرض اليمنية التي استولوا عليها فحسب بل ولطردهم من الجزيرة العربية، وإنهاء سلطانهم البدوي، المتوحش على الحرمين الشريفين.

وهذا كله عدا تعلق الفئات الواعية بالمستقبل الذي تنتظره البلاد على يده من تطور، وتحرر وإصلاح.

١٠ ـ في هذا الجو بالذات، انتقلت بعد خيبة الأمل من صنعاء الإمام يحيى إلى تعز إبنه أحمد ولي العهد، البطل المؤمل المرموق.

ولقد وجدنا في هذا الرجل العجيب فعلاً ما يخدع، وما يغش، وما يُذهل، وتعاظمت في أنظارنا ظواهر تصرفاته ومطامح شخصيته، وألغاز تصريحاته الرمزية، التي توحي بالتذمر من رجعية أبيه، وفساد حكمه.

لقد استطاع هذا الرجل، الممثل الداهية، أن يجعل البلاد تعيش ـ من ألاعيبه ـ في مسرحية مبرمة فصولها، محكمة أدوارها. فهو يغضب من أبيه، ويثور، ويبكي أحياناً، ويتوعد أحياناً، وأنه ليتأوه على سجناء الشباب حتى كأنه أخ لهم حميم! وكان يقوم بدور إطلاق سراحهم، وتأمين ساحتهم، ومطارحتهم الأفكار، والأشعار في مجالسه في تواضع وإنطلاق وتحرر.

كنت فعلاً في سن النوازع الروحية معجباً بشخصيته مأخوذاً بها، وكنا ننتظر أن تكون تجربتنا معه ناجحة، وأن يكون هو العوض للشعب عن خيبة الأمل، في أبيه، وأن يكون هو المرحلة الآمنة، التي يتطور فيها

مصير بلادنا في سهولة، وأمن من الأخطار.

وعلى هذا الأساس قدّمت إليه عصارة غالية من شعري، أنفخ فيه روح الطموح، والبطولة وأمنحه حماس الثقة، وأحرّكه بأحلام الشعر، وأشواق المجد، بل وأحلم بأنه قد أصبح بطلاً في دنيا فني، وعالم خيالي ولم يكن ذلك لأني أطلب منصباً، أو مغنماً شخصياً، فلم أتقلد منصباً، ولم أقبل وظيفة، ولم أكسب منه مالاً، وإنما أتلمس لبلادي منطلقاً لمجد، وسبيلاً لتطور وإصلاح.

هذا شأن الإنسان في بداياته، وتطلعاته، وبحثه عن وجوه الحق، ومعالم الطريق. وهكذا كان الشأن، والموقف لشباب جيلنا كله في ذلك الحين: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: الآية ١١٤].

١١

دور الشعر
في خلق اليقين الثوري

ولَرُبَّ سائل يسأل: أكان شعر المدح هذا محتوماً؟

وأنا أستطيع أن أقول: نعم بكل تأكيد، ويقين أن إصدار قرار بالثورة الصادقة، المصممة، المستميتة، مع ضعف الحال، وقلة النصير، وجهل الشعب ليس بالأمر السهل، وليس من الشؤون التي يقضى فيها بالظنون والأوهام، وتجيء نتيجة فورة عاطفية عابرة.

إن اليقين الثوري هو الأساس للثورة العميقة الصادقة، وهو العامل الأول لصمودها، واستمرارها.

ولن يكون اليقين يقيناً، إلا بعد جهد يبذل لدراسة الموقف وسبر أغوار الدولة، وقواها، ورجالها، وتجربة كل الوسائل غير الثورية، علّها تنجح في إحداث التطور المطلوب.

والثورة، لا تكون حقاً، ولا عدلاً، ولا وطنية، كما لا تكون ناجحة، إلا يوم تكون ضرورة محتومة، لا مفر منها.

إن الثورة عنف، وقتال، ومذابح، والمؤمنون بالتطور والإصلاح، لا يقررون العنف، والقتال إلا بمبررات عادلة تبلغ حداً ليقين، وإلا كانوا مجرد سفّاكين متهوّرين.

وقد كان يمكن أن يُقال لها، إنكم تسرّعتم فنفرتم هؤلاء الحكام، وزرعتم الريبة في أنفسهم، ولم تقدّروا ما ورثوه من أجيال الخوف، والشك والغرور، والشعور بالتملك المطلق.

ولو أنكم ترفّقتم بهم، وأرضيتم غرورهم لتطوّرت البلاد على أيديهم في سرعة ويسر، ولجنّبتم اليمن كل ما أصابها من الآلام والأحزان، والخراب، والموت من جرّاء الحركات الثورية التي تتابعت وراء دعوتكم.

ولن يكون بأيدينا مستند للرد على هذا الكلام يثبت مبلغ الجهد المترفّق لولا وثائقنا في شعر المدح الذي صنعناه بأسلوب لو توجهنا به إلى الشياطين والأبالسة، لربما حوّلناهم إلى سبيل آخر، أو جعلنا منهم ملائكة وأبطالاً.

صوَر من المحاولة

وهذه بعض نماذج لعواطف الأمل، والتعطّش الذي كنا نتجه به إلى الإمام أحمد أيام كان ولياً للعهد.

تبدو لنا فتهيم فيك عيوننا
وذكاء في آفاقها لا ترمق
وكأنما صوّرت من أبصارنا
فتكاد تخطف بالجفون وتسرق
وترى العيون تسيغ نورك لهفة
وتضم محجرها عليك وتطبق
وتكاد تبلعك النواظر خلسة
وتشد أهداباً عليك، وتغلق
عجلت بها نظراتها فتفتحت
حيرى، ونورك زاخر يتدفق
فكأنها صاد يقبل كوثراً
فتهيج لوعته عليه، ويشرق

عبَّثْ وما رويت، وأنّى يرتوي
من طلعة الفردوس طرف شيق
خذ بالقلوب ففي يديك زمامها
والقلب يقرن بالولاء ويوثق
وانشر ضياءك في سبيل حياتنا
فمسيرنا في غير نورك موبق
طِرْ حَيْثُ شِئْتَ بنا فإنّا معشر
سنطير إثرك في العلى ونحلِّق
كن كيف شئت لنا، فإن مصيرنا
بيديك والدنيا إليك تحدق
يا حامل الشعب الكبير بقلبه
الشعب في طيات قلبك يخفق
جدد له عصر الجدود بعزمه
لو مست الماضي لجاءك يشرق
لا تبنه حجراً ولكن فيلقاً
ينسابُ فيه للمنايا فيلق

١٢

ولكنا، وبعد العصارات الروحية من الشعر والمحاولات المخلصة الصادقة من التوجيه والإقناع لهذا الرجل، لم نجد من بطولته المسرحية، إلا أحلاماً خدّاعة تحولت إلى كابوس يخنق الأنفاس، ويشل الحياة.

"وكم جاس شعري غاب ليل تحيط بي
مضرجة أدغاله، ومساربه"
"وصور زهراً، ربما كان زخرفاً
«على حية، أو عين وحش تراقبه"
"وكم كان ذعري عندما أشرَق الضحى
عليّ واذ فتشت، ما أنا حاطبه
"وإذ أسفر الوجه الذي بِتُّ هائماً
به فرمتني بالدواهي عواقبه"
"وماذا على من صور الشيء ظاهراً
إذا اختبأت ملء الطوايا مثالبه"
"ولكنه قد يقتل المرء نفسه
إذا اختار صلاً في الظلام يداعبه"

"أحق بناب الوحش من بات عنده
وأحمق من ذي جنة مَن يصاحبه"

١٣ ـ ومع كل الذي أسلفته من مبررات لشعر المدح فإني أذكّر الناس جميعاً أن هذا الشعر إنما قلناه قبل عشرين عاماً في ظروف لم تكن القضية الوطنية فيها قضية محددة، ولم تكن هناك معارضة ولا معركة.

بل لقد كان لهذا الموقف الأخير الذي وقفناه مع أحمد بن يحيى الفضل الرئيسي لتطوّرنا الناضج العميق.

إن القضية ولدت هناك في تعز في صورة قصائد طنّانة، كنا نلقيها على الجماهير في محافل الأعياد الضخمة لولي العهد. لقد كان عملنا يومئذ يُعتبر تقدمية ونهضة، وجرأة على تطوير الأساليب القديمة في الأدب والشعر، وجرأة على الظهور والطموح، والتبشير بوجود عصر حديث لم يكن للناس به في بلادنا علم، وقد فطن ولي العهد أحمد إلى هذا المغزى العميق لحركتنا.

هناك كنا ندرك أننا نهز طموح هذا الرجل ساعات من الوقت، ولكنه عندما يعود إلى عنصره المستبد، ورواسب طغيانه كان يجزع ويتألم لأن الجماهير عرفتنا ولأن الأدباء، قدموا إلينا التهاني شعراً ونثراً وأظهروا إعجابهم بملامح الأدب الحديث.

وانقلب ولي العهد على مرّ الأيام إلى طبيعته وخلع أزياءه المسرحية، وصرح على الملأ بأنه سيلقى الله ويده مخضبة بدماء الأدباء، وأن مَن يقرأون كتب طه حسين، والعقاد، والرافعي، سيلقون الموت، وقد تعاظم

علينا هول المفاجأة عندما تأكد لنا أن هؤلاء الحكام يكرهون النور والتجديد حتى ولو كان في صورة شعر يمدحهم ويُمَجِّدُهم، ويتغنى بآمال الشعب فيهم.

عرفنا أنهم لا يقاومون النشاط الوطني فحسب بل يقاومون حتى الحركة التي تبدو لهم وكأنها تنسج لهم من عالم الغيب أمجاداً.

هناك ولدت الثورة، ومن يومئذ وُجدت الموازين الثورية التي يُنتقد المواطنون، ويُحاسبون على أساس منها.

ومرت بعد ذلك عشرون عاماً نستطيع أن نقدمها إلى الشعب دون أن نذكر ماذا كنا خلالها، وماذا عملنا لا لأننا نتواضع فأنا في موقع دفاع يبرر أن نقول كل شيء بل لأن الشعب يعرفنا ويعرف موضعنا في الميدان العصيب مع الشرفاء الأحرار خلال هذه الفترة الطويلة.

إن الشعب كله كان يقدس هؤلاء الحكام، وكان كل مَن يملك شعراً أو نثراً لا يكاد يقدمه إلا مدحاً للإمام أو نجله، وليس هناك فرق بيننا، وبين الكثيرين إلا أننا تغيّرنا ولم يتغيروا، وثرنا ولم يثوروا، وقدمنا حياتنا، وشبابنا قرباناً في سبيل الحق، ومن أجل الشعب مع نفر قليل من زملائنا وشهدائنا، فإن كنا لم نلاقِ مصيرهم فلم يكن ذلك لأننا أحرص على الحياة أو أبعد عن خطوة الموت أو أقل حظاً من الوفاء للشعب ولكنه سر الأجل العجيب، الذي جنبنا مصيراً كمصير الشهداء ربما لكي نستطيع أن ننتصف لهم، أو نتمم رسالتهم ونحيا في سبيل الله وسبيل الشعب الذي ماتوا من أجله، فنرثيه لمصرعه ونبعثه من مرقده.

ما كنت أحسب أني سوف أرثيه
وأن شعري إلى الدنيا سينعيه
وأنني سوف أبقى بعد نكبته
حياً أمزق روحي في مراثيه
فإن سلمت فإني قد وهبت له
خلاصة العمر، ماضيه، وآتيه
وكنت أحرص، لو أني أموت له
وحدي فداء ويبقى كل من فيه
لكنه أجلٌ يأتي لموعده
ما كل من يتمناه ملاقيه
وليس لي بعده عمر، وإن بقيت
أنفاس روحي، تفديه، وترثيه
فلست أسكن إلا في مقابره
ولستُ أقتاتُ إلا من مآسيه
وما أنا منه إلا زفرة بقيت
تهيم بين رُفاتٍ من بواقيه

نهاية التجربة

وانتهت تجربتنا مع السيف أحمد ولي العهد إلى النهاية التي انتهت إليها تجربتنا مع أبيه الإمام يحيى. وبذلك تمت عناصر اليقين الثوري، الذي يفرض علينا أن ننفض أيدينا من كل أمل في الوصول إلى تغيير الأوضاع تغيراً سلمياً بأيدي الحكام.

وقد أسلمتنا هذه التجربة إلى أمرين لا ثالث لهما:

فإما أن نرضخ وندفن رؤوسنا في المقبرة الموحشة التي دُفن فيها الشعب، وندخل فيما دخل فيه الأكثرون... فنأكل الجيف، ونمتص الدماء، ونعيش كما تعيش الدود... في القبور... أو نثور...

وآثرنا الأشق الأصعب... ولكنه الأشرف... وتمردنا... وأنشدنا...

خرجنا من السجن شم الأنوف
كما تخرج الأسد من غابها
نمر على شفرات السيوف
ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة، إذا دنّست
بعسف الطغاة، وإرهابها
ونحتقر الحادثات الكبار
إذا اعترضتنا بأتعابها

ونعلم أن القضا واقع
وأن الأمور بأسبابها
ستعلم أمتنا، أننا
ركبنا الخطوب حناناً بها
فإن نحن فزنا فيا طالما
تُذلُّ الصعاب لطلابها
وأن نلقَ حتفاً فيا حبذا
المنايا... تجيء لخطّابها...!
أنفنا الإقامة في أمة
تُداس بأقدام أربابها
وسرنا لنفلت من خزيها
كِراماً، ونخلص من عابها
وكم حية تنطوي حولنا
فننسلُّ من بين أنيابها

*****

هل من مزيد؟

أيها البائس الخميصُ! متى تنهض
من كبوةِ الشقاء المديدِ؟
قد غَذَوناك من دماء البهاليلِ
... ومن أكبُدِ الملوك الصيدِ
فلماذا نراك نِضْواً كما كنتَ؟
... فهل أنت طامعٌ في المزيدِ؟

*****

كفرٌ وإيمان

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحج: الآية ١١].

كَفَرْتُ بعزمتيَ الصامده

وقُدسيّةِ الغَضبةِ الحاقده

وأنّاتِ قَلبي تحت الخطوب!

وأحلامه الحيّة الصاعده

وعُمْرِ شبابٍ نذرتُ به

لشعبي وأهدافِهِ الخالده

وبالشهداء، وأرواحهم

تراقبني من عل شاهده

إذا أنا أيّدتُ حكم الطغاة

وهادنتهم ساعة واحده

*****

هي الشاةُ تَتْبَعُ جزّارَها،

وتَنْسى ببِرسيمِه ثارها

تُباعُ وتُشْرى... من الذابحين
وتَجهل في البيعِ أسعارَها
يُجَرْجِرُها الحبلُ في عنقها..
الذَّليل فَتَحسِبُه غارَها
تَرى مِدْيَةَ الذَّبحِ مصقولةً
تُضيء فَتُكبر أَنوارها
هي الشاة لكنني الآدمي
... أكبرُ نفسي عن السائِمه
تَمرَّدَ قلبي على الظّالمين
ودنياهم الفَظَّةِ الغاشمه
وعشت مع الشّعبِ في خَطبه..
المرير وآلامه الحاطمه
أُثير كوامن أعماقِه
وأُوقِظ عزّته النائمه
وأغْزو دياجيرَ أغوارِه
فأشعلها بالرُؤى الحالمه

وأطـرُدُ أشبـاحَ كـابـوسـه...
الـرهـيـب وأهـوالـه الجاثـمـه
******

كـفـرتُ بـعـهـدِ الـطـغـاةِ الـبـغـاة
ومـا زخـرفـوه ومـا زَيّـفـوه
وأكْـبـرتُ نـفـسـي عـن أن أكـون
عـبـداً لـطـاغـيـةٍ تَـوَّجـوه
وعـن أنْ يـرانـي شَـعـبـي الـذي
يُـعَـذَّب عَـونـاً لمن عـذَّبـوه
أأجْـثـو عـلـى رُكْـبـي خـاشـعـاً
لجُثّـةِ طـاغـيـةٍ حـنّـطـوه
أألْـعَـقُـه خَـنْـجَـراً... قـاتِـلاً
لـشَـعْـبـي وأُكـثِـر فيهِ الـوُلُـوه
أنـا ابـنٌ لـشـعـبـي أنـا حـقـده..
الـرَّهـيـب أنـا شـعـره أنـا فُـوه
أتَـعْـنـو لـطـاغـيـةٍ جـبـهـتـي؟
فـمـن هـو؟ مَـنْ أصـلـه؟ مَـنْ أبـوه؟
****

وأُقسِم بالله خيرَ القَسَم
وما صنتُه من كريم الشِيَم
وما خبأت مُهْجَتي من هِمَم
وما حَملته يَدي من قلَم
وما هزَّني من إباءٍ وَدَم
وما اجْتَاحَني من عميقِ الألم
وما اكْتَسَحتْ عزمتي مِنْ قِمم
لأرْمي بقلبيَ في المُزْدَحَم
وأَمحو عن الشعبِ عارَ الصَّنم
وأجعله عِبرةً! لِلأُمَم
*****

سأمضي... عنيداً فلا أنثني
وأحيا كريماً فلا أَنحني
وأرفَع نَحوَ السَّما جَبهَتي
كما ارتفعت جَبْهة المؤمن
أموتُ خَميصاً! ولا أقبلُ الفُتَات
... من القاتل المحسن

أَأَطْعَمُ من قاتلِ أُمَّتي
أَرى الدم في كفِّه المنْتِنِ؟
يُقَدِّم لي طُعم شِلْوٍ شهيد
من إخوتي لحمه أو بني
تكاد اللُقَيماتُ من لَحْمه
تقولُ لآكلها خُنتني!
فلا نَبضت نَخْوَةٌ في دمي
ولا عِزَّتي شرف الموطن
إذا جِدتُ عن مبدئي أو رضيت
بعيشٍ من العارِ مَستَهجَن
*****
وآمنتُ بالشعب حَتّى وقد
رآه الورى جثّةً هامده
تداعى حوالَيْه أعداؤه
لِيَقْتسموه على المائده
فهذا بِشلْوِ شهيد يعيث
وذاك يساوم في الفائده
وذا لليتامى يهزُّ السياط
لِتَعبَث بالجثث الراقده

وكم من وَليدٍ حذار الحمام
رأى نفسه صافعاً والده[1]

*****

وآمنت بالشعب يوم جَثا
أمامَ الطغاةِ على ركبتيه
ويوم انْبَرى في ذهولِ الهوان
يَرْمي مَكاسِبه من يديه
ويوم مَدَدنا شعاعَ الصباح
له، فانْزَوى... وحَمى مقلتيه
ويوم عَصَرْنا رِقَاب الطغاة
وسُقْناهم كالجواري إليه
فأطلَقَهم من هوانِ الإسار
ذِئاباً علينا صِلالاً عليه

*****

(١) كان يؤتى أحياناً باليتامى الذين ذبح آباؤهم، فيرغمهم الجلادون على البصق في وجوه آبائهم وهم جثث مطروحة على الأرض، وأحياناً يرغمونهم على أن يدوسوا هذه الجثث. ولو اجتمع شعراء الدنيا لكي يصوّروا مشاعر الطفل التعِس وهو يُكلَّف بممارسة هذه الوحشية لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

هو الشعب..! حق مَشيآتُه
صوابٌ ورُشدٌ خطيآته
له نَبْضُنا وأحاسيسُنا
فما نحن إلا نَباتَاتُه
له دَمُنا وله دَمْعُنا
يُغَذّى عليه ويَقْتاته
يُحطِّم بالموتِ زهر الحياة
مِنّا لِتَصْلُب شوكاته
ويقصف عمر الحمامِ الوديع
لتحيا وتَكبُرَ حَيّاته
ولكنه في المجَالِ البعيد
... تَعلو على الظُلْمِ راياته
وتقتلع الشرَّ خَيراته
وتبتلع الكلَّ غاياته
******

وكم جاهلٍ لحقوقِ الوَطن
يُريدُ على كلّ خطو ثمن

إذا وَخَزَت رجْلَه شوكةٌ
تقاضى جزاءً عليها ومَنّ
فإن لم يُحقِّق هَواهُ النّضال
ثَار على شعبه واضطغن
وراح يُلوِّثُ طُهْرَ الكفاحِ
ويُبدي العيوبَ ويُذكي الفتن
****
وقدَّم شكوى بنا للإمام
بمن ويحه يشتكي ولِمن؟
وباعَ السماءَ له والنجوم
وما جالَ في رَحبِها أو سكن
فلم يبْقَ لله فيها ملاك
ولم يبْقَ لله فيها سكن
وعوَّذه ضِدَّ بطشِ الإلـه
ووعي الشعوبِ وسَيْر الزمن
وبَشّره بانْتِهاءِ الكِفَاح
ووضع السّلاَح وموتِ اليَمن

وأن الملايين لا ترتجِيه

غَيرَ الدعاء وغير الكفن

وغير الصَّلاةِ على نعشها!

وبُقْيا خليفتها المؤتمن

****

بوادر ثورة

من وحي انتفاضة خولان القبيلة اليمنية الباسلة.

الملايين العِطاشُ المشرئِبّه
بَدأت تَقْتَلِع الطاغي وصحبَه
سَامَها الحرمان دهراً لا يرى..
الغيثَ إلا غَيثه والسُحب سُحبَه
لم تَنل جُرعَةَ ماء دون أن
تَتقاضاهُ بحرب أو بغضبه
ظَمِئَت في قَيْده... وهي تَرى
أكْلَه من دمها الغالي وشُربَه
ليتَ شِعري أي شيء كان يخشاه
... في دُنياه لو هادن شعبه
ها هو الشّعبُ صحا من خطبه
بينما الطّغيان يستَقبِل خطبه

****

لا تحرقونا بناركم

شعار من شعارات العبيد، كانوا يطاردون به الأحرار، ويحاولون به إبعادهم عن المجتمع اليمني في عدن، إبّان ظهور الحركة الوطنية هناك.

دَعُـونَـا ولا تَـقْـربـوا جَـمْـعـنـا
ولا تُحْـرِقـونـا بـنِـيـرانِـكـم
رَضِـينا بِـأَنّـا عـبـيـدُ الإمـام
وإنّـا كـمـا شـاء عـمـيّ وصُـمّ
نُـكَـبّـلُ أقـدامـنـا بـالـقُـيـود
ونَـعـقِـل أفـواهـنـا بـاللّـجُـم
ونـفـرش مَـضْـجـعـنـا بـالـغـبـاءِ
ونَـقْـنَـع مـن عـيـشِـنـا بـالحُـلُـم
فـمـاذا عـلـينا لَـو أنّـا نـعـيـش
أعـمـارَنَـا في الـدُّجـى المدلـهـم

****

وَهَـبنا الحيـاة لأوثـانِـنـا
ونَـبـضَ الـقـلـوبِ ونـور الـبـصـر
فـمـا نَـبـتـغي مـن شُـعـاعِ الـشُّـمـوس؟
ومـا نـرتجـي في ضـيـاءِ الـقـمـر؟

وفي الحشرات.. لنا أُسوةٌ
تُزهّدنا في حياة البَشر
وفي عالم الدود عَيْشٌ هنيء
هَبطنا إلى مُستواه الأغَر
ولو نَستطيع النُزول البعيد
نَزَلنا لِمُستويات الحجر
تريدون ويْحَكُمُو... أن نثور
وما نحن إلاَّ كدودِ القبور
نَعيشُ على جُثَثِ الهالكين
أمثالكم من هُواةِ الشرور
نَمصُ دماءَ مغاويركم
ونَسخَر من ويلها والثبور
نُعشّشُ في هامةٍ عشّشَت
بها قبلنا كبرياء الغرور
سَنرقُبُ مَصْرَعَ أبطالكم
طويلاً وإنا لشعب صبور
*****

نكسة الثورة اليمنية

تصور هذه المقطوعة دهشة الأحرار المثاليين عندما فُجِعوا بانبعاث روح الطغيان بعد مصرع الطاغية، وتحوّل الجماهير إلى وحوش تفترس منقذيها.
ولو عرف المكافحون أن الطغاة سلالة طبيعية لأخلاق الشعب لما عجبوا ولا تعثّروا.

رَبِّ هـذا الإمـامُ أشـلاءُ مَـقْـتـول
... وهـذا قـبـرٌ وهـذا رغـام
ورحـابُ الجَحـيـم يُـصـنـع فيهـا...
كـلُّ شـيءٍ مـن أجْـلِـهِ ويُـقـام
وَيْـحـه، مـا لـه غـبـيٌ عـنـيـد
لـيـس يـدري أنَّ الحـمـام حـمـام
يـعـجـب الموت أنّـه لم يُمـتْ مـنـه
.... ولم يـنـج مِـن أذاه الأنـام
وزّعَـت روحُـه عـلـى الأرضِ يَـرتـا
...عُ الـيـمَـانـون منـه حـيـث أقَـامـوا
فَـإِذا بـالحَيـاةِ شَـنـعـاء فيهـا...
كـلُّ شـخـص وكـلُّ شـيءٍ إمـام

*****

أنا راقبت دَفن فَرحَتِنا الكبرى

... وشاهدتُ مصرع الإبتسامة

ورأيتُ الشّعبَ الذي نزعَ القَيد

... وأبقى جذوره في الإمامه

وإذا بالطبول عادت طبولاً

وإذا بالفطيم يلغي فطامه

وإذا بالدستور يصرعُه البغيُ

... ويلقى كصانعيه حِمامه

وإذا الشعبُ بعدما حطَّم الأصْفاد

... عنه لم نَلْق إلا حطامه

نحن شِئنا قِيامَه لِفَخار

فأراه الطغاةُ هَوْلَ القيامه

*****

شعب متربّص

في أعقاب ثورة ١٩٤٨ اكتسحت اليمن موجة من اليأس، وركع الشعب أمام الطغاة وتكاثرت التهاني والمبايعات للجلادين، وكانت روح الشعر من يومئذ تستشف الواقع وتلمح ما وراءه.

مِنْ وراءِ الأكْذوبةِ المعبودَه
والتهاني الذَّليلَةِ الرِّعديدَه
والهتافاتِ والضراعات للأصنام
... في ضَجّةِ الطُبُولِ البليده
والمَزاد الذي يُجَدّدُ بيعَ الشعب
.... فيه بالبيْعة المنكُوده
والعُهود اللاتي يُكرّرُها الطاغي
.... كأبائه ليشري عبيده
ورُؤوسُ الأبطالِ يَلْهو وليدُ القصرِ
... لَهواً بها، وتلهو وليْده
والمحاذير والمخَاوف تَغْتال
... الضحايا المفْجوعَةَ المفؤوده

والقُنوطُ الوَحْشيُ يَفْتَرس الأحرار

... في ظُلْمةِ السُّجونِ البعيدَه

ألمح الشعب قابعاً يدرس الثورة

... كَيما يَأْتي بِأُخرى جديده

يتحرى الأخطاء ويغفر لِلأَحْرار

... أخطاءَهم لِيَبْقوا جنوده

*****

الأمن الزائف

إنها وثنية لا شعورية مضحكة.. مبكية، تلك التي تجعل من فرد عاجز مريض علة وجود الشعب وأمنه وسلامته، وتزعم بأن الشعب العربي في اليمن بدون جلّادين وسفّاكين، شعب فاسد التكوين عاجز عن الطمأنينة والسلام.

إنه منطق فريقين من الشعب: فريق الجهلة الأميين من سكان المدن وهم أولئك الذين لا يزالون يعيشون بعقولهم في عهد ما بعد الأتراك، وفريق أصحاب المصالح المحرّمة الذين يحسّون بأن وجودهم حيث هم وجود غير شرعي وغير طبيعي، وأن أكثرية الشعب تتربّص بهم الدوائر.

وقد تجلى منطق هذين الفريقين بصورة خاصة عند غياب الإمام أحمد حميد الدين في روما وانفجار طلائع الثورة الشعبية انفجاراً تلقائياً هنا وهناك.

فإلى هذه العقلية المشلولة المفلولة نقدم هذه المجموعة من الخواطر السياسية في قالبها الشاعري ولسنا نريد بها إلا تنبيهاً وتبصيراً، وإنارة للعبرة، وإشعاراً لهذا الفريق وذاك بضرورة التفكير في حلول شعبية تضمن السلام والأمان في اليمن ضماناً حقيقياً، ولن تكون هذه الحلول إلا في القضاء على كل أسباب حقد الشعب المكبوت، لا مضاعفة وسائل كبته واضطهاده، تلك الوسائل التي ستؤدي حتماً - إن هي استمرت - إلى الإنفجار الرهيب في يوم غير بعيد.

إصرخوا في الآذان: اللّهُ أحمد[1]

واجعلوه رباً سوى اللّه يُعبَد

وازعموا أنّه الحفيظُ على الأرواحِ

... والمستعان في كلِّ مقصد

والخبيرُ العليم عَيْناه في كلِّ مكان

... ترى الخفايا وتشهد!

والمنيع المسحور.. لا ينفذ الخنجر فيه

... ولا الرّصاصُ المُسَدّد

والشُّجاع الرّهيب، ينهزِمُ الجيشُ

... بلحظ من ناظِرَيْه ويَرْتد

في يديه الأرزاق يَمنَحُها مَنْ

شاءَ من شعبه فيغنى ويَسعد

وهو إن شاءَ يمنعُ الرّزق عن عبدٍ

... فيعيا عن حيلةٍ ويشرَّدْ

يتحدى نجماً فيمسخه فَحْماً

... ويُعلِيْ صخراً فيصبح فرقَدْ

(١) (أحمد الله) هو التوقيع الملكي الرسمي، ولا ريب أن المقصود به «التورية» وهي في حقيقتها المعروفة: أن يُقصد بالعبارة الواحدة معنَيين اثنين، والمعنيان المقصودان في هذا التوقيع الأحمدي صريحان واضحان: أحدهما جملة فعلية تعني حمد الله.. والثاني جملة إسمية معناها: أن أحمد هو الله..!

وهو رُوحٌ في الشعب، لو تَهْجُرُ الشّعبَ
... تلاشى كجيفةٍ وتبدد
وهُو الدين.. والشريعةُ، لو فارقه
شَعبنا لألحد وارتد
وهُو الأمن وَحْده، والملايين
... من الشعب أذؤب ترصّد
نحن من دونه وحوش سَنَفْنى
بمخالبنا... ونُمحى ونُحصد
مُقْلَتاه الكبيرتان تَحوطُ الشّعب
... من كل طارق يتهدد
وهما القُوَّة المُسَلّحة الكبرى
... بها يُقْهر العدو ويُطرَد
*****
ولْنُسَلّم.. بأنه كلُّ شيءٍ!
ولنقل: إنه إله تَجَسّد
غيرَ أَنّا نراه يمرضُ كالناسِ
... ويحيا حياةَ مَن لا يخلد

ونحسُ المنون تدنو إليه
ونراه يَنْهار منها ويَنهدْ
يجتدي من يد الفِرنج سويعاتٍ
... من العمرِ عندهم قد تجدد
والمنايا أمضى من الطب إقداماً
... وأهدى إلى الضحايا وأقْصَد

****

أيها الواضعون كل مَصير
لهمو في أحضان شيخ مسوّد
أيها الجاعلوه في وسط دنيا العصر
... يَشْوء إعصارها وهو مُقعَد
إمْنحوه الخلود كي تضمنوا الأمن
... وتلقوا به السّلام المؤكّد
واجعلوه حيّاً مدى الدهر قيُوماً
... وجوداً له بعرش مُؤبّد
وهِبوهُ أرواحكم وانفُخُوه
نفخ طفل بالونه يوم عيَّد

قدِّموا من رؤوسكم قطع التغيير

... إن شُلَّ رأسه أو تبلد

فإذا ما استطعتمو ذاك فُزتم

بأمانٍ ضد المخاطر سَرمد

وإذا ما عَجِزتمو وعرفتم

أنّه اليَوم قد يموتُ أو الغَد

فاطلبوا أمنكم من الشعب...

إن الشعب باقٍ... وقادرٌ إنْ تَعهّد

لا تَغُرنّكُم أمانٍ يمنيكم

... بها عاجِزٌ مريضٌ مهدَّد

ليسَ أمْناً إلاَّ الذي وهَبَ الشّعبُ

... ولا ذمّةً سوى ما تَقَلد

ليسَ مالاً تلك الدماء التي امتصَّت

... وقلتم عنْها نُضَارٌ وعسْجَد

كُلٌّ قِرشٍ نهبتمو ليس إلاّ

قَاتِلاً... غال جائعاً وتَعَمّد

****

أيُها الآمنون أخطَر أمْنٍ
أيُها النائمون في شر مَرقد
أيها التائهون عُجْباً لأنَ الشعب
... في مِحْنَةِ الظّلام... مُقَيَّد
أيها الآخذون بالأمسِ دَرْساً
قاسِياً لا نُريدُه يتجدَّد
أيها الراقصون فوقَ حطام الشّعب
... والشعب صابرٌ يتجلّد
أيها الضاحكون والشعب يَبْكي
أيها الرّافهون... والشعب يُجلَد
أيها الكافرون بالحقّ.. إنَّ الحقَّ
... رغم الكفران يقوى ويشتَد
كلّكم قد نيستُمُ الأمس...
والأمس قربٌ منكم يراكم ويَشْهَد
لو رآه فرعون في صَحْوةِ الموتِ
... جثا من خشوعه وتشهَّد
وَسَكَنْتم مساكِناً لو تَعقَلتُم
... فَرَرتُم منها فرار المشَرَّد

كم لَكم عِبرةٌ ولكنها مَرَّتْ
... عليكم كما تمرُّ بِجَلْمَد
لم تكادوا تصحون حتى رجعتم
حيث كنتم... والمرء حيث تعوَّد
وربطتم مَصيركم بطغاة
يَستَنْزِلونكم لهولٍ مُؤكَّد
وجَلَبتم[1] للشعب غُولاً يُعيد الشعب
... للقَهْقَرى عصوراً ويرتد
وظَنَنْتُم بأَنْ سَتَنْطَفِيءُ الشّمس
... إذا ما أرغى عليها وأزبد
وحسبتم بأن روح الملايين
... بأنفاسه العليلة تُخْمَد
وبأن الجياع تشبع إن أمْسَت
... طعاماً، في لَهْوَةِ الوحشِ تُزرد
وبأن الحُمْلان تسعد في عَهْدِ
... ترى الذِئب فيه يقوى ويسعَد

(١) عندما كان الإمام أحمد حميد الدين في روما لجأ إليه الخائفون من بطش الشعب ودفعوه للعودة إلى اليمن لكي يحميهم.. ولم يخطر في بالهم أن يبحثوا عن وسائل لحمايتهم أشرف وأبقى..

وبأنَّ الجراحَ تُخْدَعُ حتى
تتغنى بِخَنْجَرٍ أو مُهنَّد
كان أحرى أن تطلبوا الشّعب
كي يضفي رضاه عنكم وكي يتغمّد
لا يَغرُنَكُمْ سكونٌ من المارد
... يُبدي الخنوع وهو مُصفّد
يومه قادم... فويلٌ لمن واجَه
... يوم الحساب غير مُزَوَّد
عجباً للجبانِ يستمنح الظلم
... أماناً وللشّعبِ أبقى وأَخْلَد
وينسى شعباً صحا وتَمرَّد
*****

هل يخافُ الشعب من نفسه؟!

يقولون غابَ الأَمنُ إذا غِبْتُ عنهمو

فما خطبهم يا ليت شعري... ومن همو

أَشَعْبٌ يخاف الشعب..؟ فليهبطوا إذاً

جهنّمَ أو تهبِط عليهم جَهَنّمُ

ألا يستطيع السّيْرَ إلا مُقَيّدٌ؟

ألا يستطيبُ العيشَ إلا مُنوّمُ؟

ألا يَمْنَحُ الناسَ الأمان بأرضنا..

الأبيّة إلا السجنُ والصلبُ والدم

ألا تَنْشِق الأنفاسَ إلا خياشِمٌ

بقبضة سجّانٍ تُجَرّ وتُحْزَمُ؟

أيأبى فراق الذُلّ شعبٌ..؟ فهلّلُوا

إذاً يا طغاةً وابطِشُوا وتحكّموا

*****

يقولون: هذا الشعب.. عبدٌ تلذهُ

السياط ويعطيه الهناءة علقَمُ

فإنْ كنتَه... يا شعب فافرح بعهدك..

الذي أنتَ فيه مُستَضامٌ ومُرْغم

وطِبْ بالكرى عيناً فإنك موثَق
وعِشْ صامتاً واهنأ فإنك مُلجَم
ولا تخشَ من زلزال شِعرٍ أصوغه
فإنك ـ قد قالوا ـ أصم وأبكم
ولا تتحرك لو تحرك جندلٌ...!
ولا تتكلّم لو تكلّم أعْجم
ولا تتخوَّف من أشعّةِ أنجُمٍ
فليسَ لأعمى في السمٰوات أنجم
ولا تَرتَقِبْ فجراً فحولك ظُلْمةٌ
تغوصُ بها كل النجوم وتُظلم
وكُنْ آمِناً من لَسْعَةِ النّحلِ إنّه
سيحميكَ ذِئْبٌ.. أو يُداويكَ أرقم!
****
هراء.. يقول الكافرون بشعبهم
فسحقاً لما فاهوا به وتكلّموا
*****

خطبة الموت

عندما كان الإمام أحمد حميد الدين غائباً في روما، اندلعت أحداث ثورية في أنحاء اليمن، وانطلق الشعب يتحسّس سواعد نفسه، ويتلمّس كرامة محتده، ويخطىء أحياناً فيمارس التعبير عن آدميته بأساليب تلقائية مرتجلة، لا تنمّ عن تدبير سديد وإن كانت توحي بسخط عميق.

وكان هناك إلى جانب الأحداث تجمعات على مستوى الزعامات القبَلية لم يسبق لها نظير.

وتلك كانت تجربة تاريخية قصيرة اكتشف الشعب فيها وجوده فجزع الطغاة الرجعيون واستعادوا الإمام أحمد من روما باعتباره رمز الرعب وباعتباره وسيلة لإلغاء الوجود الشعبي. فما كاد يصل إلى الحديدة، حتى ألقى على الشعب خطاباً متوحشاً هدّد فيه بقطع الرؤوس، والأيدي، والأرجل، وطالب الشعب أن يبارزه إن أراد.

وتلك كانت هي التحية على طريقة الطغاة.

وإذا كان الشعر لا يستطيع إلا أن يهز روح الشعب ويحركه إلى الكرامة كما نجده يحاول ذلك في هذه القصيدة، فإن هناك الأبطال الثلاثة «محمد عبد الله العلفي» و«عبد الله اللقيه» و«محسن الهندوانة» الذين صوّبوا مسدساتهم الباسلة إلى صدر الطاغية، وأذلّوه، وصرخوا في وجهه:

هذا الفرس، وهذا الميدان.

ووقف «اللقيه» مواقف بطولية ردت العزة إلى كل يمني، وصنعت

مثلاً أعلى، وأحدثت انقلاباً روحياً في الأعماق وغيّرت مجرى الحياة النفسية في اليمن تغييراً عجيباً.

خطبة الموت فاسمعوها وطيروا
فرحاً وارقصوا لصوت المنيّه
انتمو في إستقبال مَوْكب جزَّارٍ
.. فمدوا رِقابكم للتحيه
صدئت مدية الإمامةِ فاستمنَح
.. إيطاليا مُدّى بابَويّه
أنهك الذَّبح سيفَه فأتانا
بسيوفٍ معارةٍ أجنَبيّه

*****

روح نيرون مازجت روح حجّاج
... فجاءت أعجُوبة في البليّه
إن نيرون دبّر الحرق والقتل
.. ليرمي خصومه في القضيه
أصدر الحكم ثم ألقى أعاديه
... ضحايا في حفلةٍ وَحْشيّه
وصَحا شعبُه فأصدر حكم الله
فيه بثورةٍ شعبيه

واحتذى حذْوَه الملوَّث فاروق
... فأروى الحرائق القاهريه
فإذا بالأقدار تجمع فاروق
... بنيرون عبرة للبريّه
دَفَنَتْهُ في أرضِ نيرونَ حيّاً
ثورةٌ ناصريةٌ عبقريّه
ويدور الزّمان دَوْرتَه الغضبى
... على العابثين بالبَشَرِيّه
وتدور الرَّحى على شرّ جبَّار
... فتُطْغيه لوْثَةٌ عنْتريّه
ويُلاقي فاروق في قبره الحيّ
... ونيرون في دُجى الأبديّه
لَقّنَاه فنّاً خبيثاً من الغدرِ
... وما حذَّراه شؤم الخَطِيّه
ألْهمتْهُ روما الحريق ولم تلهمه
... عقبى الجريمةِ الهَمَجِيّه

وأتَى شعبه يُهدّده جهلاً

... ببعث الرَّجعِيّة الجاهليه

يَتَباكَى على الضحايا كما يَبْكي

... كبارُ الأبطال في المسرحيّه

يتراءَى سِرُّه الحريقِ بعينيه

... وتَشْكو يديه روح الضَّحِيه

يتباهى بأنه الهول والوَيْل

ورمز الطغيان والعَنجهيه

لم يسَلْ نفسه عن الشعب كم كابَد

... في ظل حكمه من رزيّة

لا يبالي مجاعة الشعب ما دامت

... تفيد التجارة الجبَليه

يتَباكى تسولاً باسم شعب

أرضه بالكنوز ملآى غنيه

يجمع المال للجياعِ فلا يُشبعُ

... إلا الخزائنَ المَصرِفيّه

****

وهِبات[١] تَصدَّقَ الغربُ والشرقُ

... بها في المجاعةِ الشعبيه

باعها لليَهُودِ تُجّارُهُ الأشرار

ويَسوقونها إليه بروما

في رَشاوى تفيده أو هديّه

يقتل الجوعُ شعبَه وهو لاهٍ

يشتكي للطليان ضعفَ الشهيّه

****

ينشب الناس للفرنج كما قَدْ

تَنْشُب السُمَّ للحمامة حيّه

أين كانت نساؤه وبنوه

ومصابيحُ الأسرة اليَحيَويّه

أين ألقى بروحه يوم دبّتْ

في شرايينه شموم المنيّه

كاد يَلقى الإله وهو طريحٌ

بين إفرنجي وإفرنجيّه

(١) أصيبت اليمن بمجاعة، وتبرّع الشرق والغرب لها بالحبوب، فكانت وسيلة للاتجار والتلاعب حتى مع اليهود.

أفَهلْ كان يَرْتَجي دَعْوَة البابا
... له أم ينوي إليه الوصِيّه
أم يَرى في الطّليانِ أكْرَم مَن يوصي
إليهم بالأسرةِ الملكيّه
أمْ يَبيعُ البلاد حتى يلاقي
ربّه سمساراً بَكَفّ ثريّه
مثل شمشون حينما قال: يا ربُّ
... وعلى أعدائي الرَّدى وعليّه
عاشَ في رومة شهوراً..
ولم ينزِل إلى مصر ساعةً من عَشِيّه
واثقاً بالإفراج لكنّه سيءُ ظَنٌّ
.... بالدولة العربيه
وهو قد أعلن إتحاداً من الزُّور
... ونادى بالوحدة المسرحيّه

*****

يستغِلُّ الإسلام حتى كأنَّ الدين
... يبدو كسلعةٍ أحمديّه

وكأن الشرع الشريف كما شاءت
... أمانيه للمخازي مَطِيّه
وكأن الإله ــ حاشاه ـ في صالة
عُكْفِيَة[1] بلا ماهيّه
وكأن الطغيان والقَتل والسّلبَ
... فنون من العُلى قُدسيّه
وكأنَّ السما (مقامٌ[2] شَريف)
تنحني للأوامر الفوضويّه
ويُنادي: ــ شريعةَ الله ــ والله
... بَريءٌ من الغُرش الغَويّه
لو رأى الله قلبُه لتَهاوى
وتَخَلّى عن كل مسؤوليّه
ولألقى للشعب بالتّاج يَبْني
بيديه الحكومة الوطنيّه
وأراحَ البلادَ من همِّه العَاتي
وأمراضِ عَرشِه الأبديّه

---

(١) «العكفي»: حارس الإمام.
(٢) «المقام الشريف»: بلاط الإمام.

وتــوارى عــن شــعــبــه خَــجَــلاً مــنــه

... وأحــنــى جــبــينه لــلــرَّعــيّــه

وأبــى أن تُمــحــى بــلاد ويــفــنــى

... الشعبُ من أجل نزوة شخصيّة

*****

ليس في الدين أن نقيم على الضّيم

... ونُــحــنــي جِــبــاهَــنــا لــلــدَّنــيّــة

لــيــس في الــدِّيــنِ أن نُــؤَلّــه طُــغــيــانــاً

... ونــعــنــو لــلــسُّــلــطــةِ الــبــربــريّــه

لــيــس في الــديــن أن تُــقــدِّس جــلاداً

... ويُمــنــاهُ مــن دمــانــا رَوِيّــه

لــعَــنَ الــلَّــهُ كــل ظُــلــمٍ وجــورٍ

لَــعْــنــةً في كــتــابِــهِ سَــرْمــديّــه

فَليَمُتْ مَن يُضفي على الظالمِ الطّاغي

... رداء الجلالِ والــقــدســيّــه

الــركــوعُ الــذّلــيــل في غــيــر وجْــه الله

... رجْــعَــى بــنــا إلــى الــوَّثــنــيّــه

وعَبـيـدُ الأحـجـارِ أشـرَف ممـن

يـجـعـلُ الـسـيـف ربـه ونـبـيّـه

****

نـحـن نـسـتـنكـرُ الحريـق[1] ولا نـقـبـل

... عـنـفَ الحوادث الـدَّمَـويّـه

غير أنّا نطالب الشعب أن يكشِفَ

... فيهـا دور الأيـادي الخفـيـه

ويَـسـيـر الـتـحـقـيـق حُـراً ويَـجـلـو

كـلَّ سـرّ في الـعِـلّـة الأصـلـيـه

إسـألـوا الجيـشَ عـن مـآسٍ كـبـار

بـعـثـت فيه رُوحـه الـثَـوْرِيّـه

واسـألـوا عـن تمـرُّد فَـوضَـوِيّ

خـارجٍ عـن قـواعـد الجُنْـدِيّـه

إسألوا الـفـردَ هـل لـه ضـابـط يملك

... فـرضَ الأوامـرِ الـعـسـكـرّيـه

اكـشـفـوا الـواقـع الرّهـيـب تـروا جـيـشـاً

... بـلا ضـابـط ولا آمـريـه

(١) إشارة إلى بعض أحداث الحرائق التي وقعت أثناء غياب الإمام أحمد في روما

يملك النارَ والحديد ولا يملك

... قوتاً أو لقمةً أدميّه

ويقود المُصَفّحات ويمشي

أتريدونَه على ذاك يستخذي

... ويرضى عن الحياةِ الشقيّة

لا يَغُرَّنكم خنوع له يبدو

... ولا طول صَبرِه في البَليّه

إن يكن مات من هوانٍ فما مات

... رصاصٌ له ولا مَدفَعِيّه

إنَّه بارودٌ تُحيط به النارُ

... فمَنْ يا تُرى يكون الشَويه

مَنْ سيطفي الحريق والشعب لا يَملِك

... في الأمر حيلةً أو مشيّه

ليس قطعُ الرؤوسِ مُطفيءَ نارٍ

من جنونٍ تحت الرَّماد خبيّه

وسجون الإرهاب والبطش والرِقّ

... عقاقير باليات غَبيّه

****

أطلق الشعب من إسار ومكّنْه

من الحكم في الخطوب العصيّه

وأعطهِ حقّهُ وردَّ إليهِ

دون بُطء حياته الملغيّه

****

ليس في الدينِ أن نكون بلا رأي

... ولا عزّةٍ ولا حُريّه

طبع الله في جوانحنا البأس

وسوّى لنا الأنوفَ الحمِيّه

وجرى روحُ الله عَبْرَ خلايانا

... مزيجاً بروحنا الوطنيّه

نحن شعبٌ من النبي مبادينا

.. ومن جِمْير دمانا الزّكيّه

ملءُ أعراقنا إباء مَجْد

وطموحٌ إلى العُلى وحمِيّه

أرضُنا تَلْعن الطغاة الأُولى

.. سادوا علينا بالفرقَةِ المذهبيّه

أرضنا حِميريةُ العرقِ، ليست

أرض زيديّةٍ ولا شافعيّه

وبنو هاشم عروقٌ كريماتٌ

... لنا من جُذورنا اليعرُبيّه

إنهم إخوةٌ لنا غير أسيادٍ

... علينا في عنصرٍ أو مزِيّه

أرضنا أرضهم تقاسمنا نحن

... وإياهم العُلى بالسويّه

والمزايا في الشعب للبعض دون...

البعض سُمُ الأخوّة القوميّه

وعدوّ الجميع مَنْ يَحْكُم الشعب

... بإسم القداسة العائليه

برئت منه هاشم واقشعرّت

... في خلاياه النُطفةُ العربيّه

نحن أدْنى لله من كلّ جَبّارٍ

وأولى بالشرعةِ النَبَوِيّه

نحن شعب مشيئة الله أن تفرض

... منا على الطغاة المشيّه

لا سيوفٌ تذُلُّنا، لا سجون

تصنَعُ الرّقَ في دمانا الأبيّه

فتألّه... وخُذ مكانك فوق الشمس

... فوقَ العَلياء فوقَ البرِيّه

واتخذ سُلّماً من الأنجم الزهر

... ونَعْلاً من أكبدٍ بشريّة

وتنمر وابعث لنا هول عينيك

... خِلال الأشعّةِ الكونيه

ابتعِدْ واحتَجِبْ وكُن أنت لغزاً

طيَّ لغز الماليّةِ اليمنيّه

حيثما تختبىء سيدركُكَ الشعبُ

... ولو في الكواكب الروسيّه

وتفجّر صواعِقاً وتحوَّلْ

طبقاً طائراً أو أرق رقيّه

وتوعّد ما شئت واقتُلْ ودمّر

واستعن بالجحافل الدوليّه

لن يُوقّيكَ غَضبةَ الشّعب إلا الشعب

... إن سِرْتَ في الطريقِ السويّه

وتعقّلت واستَجبتَ إلى الشعب

وأسلمت في يديه القضيّة

نحن قومٌ لا تحمل السيف أيدينا

... ولا خنجراً ولا بُندقيه

غير أنّا عزم.. نسير كعزم الله

... في دربِنا ونمضي مُضيّه

نتحدّى الأسطولَ في البحرِ والجحفل

... في البرِّ بالحقوقِ الجليَّه

ونهزُّ المعاقل الشمَّ بالأيدي

... العرايا والدرة العمريّه

ضربةٌ من إرادة الشعب بالسّوط

... تذل القنابل الذّرِّيَّه

****

مغفرة الشعب

مساكين وتعساء... أولئك الذين وجدوا أنفسهم في محراب الوثنية الإمامية.. يقدّمون فروض التقديس والتمجيد والطاعة الذليلة والانقياد المطلق الأحمق لأبشع ضروب الكائنات البشرية رجعية وانحلالاً وفساداً وطغياناً بعد أن قطع الشعب شوطاً بعيداً في كشف مخبآتهم، وتمزيق أقنعتهم، وبذل في سبيل ذلك زهاء عشرين عاماً من الصراع والآلام والدماء، وقدم أطهر أنفاسه وأصدق مشاعره، وأعمق أفكاره الثورية، وأعنف غضبَاته الحرة، متحدياً بها سلطة قاهرة متألّهة وهي في عنفوان قوّتها ونفوذها الرهيب.

فإلى هؤلاء المساكين التعساء..

أعلنوا في الأرض أنَّ الشعبَ
... قد أصبح عبدًا
لم يجده من وثنٍ (يُعبَدُ
... دونَ الله) بُدًّا
قدموا منه القرابين
... إلى الطغيان تُهدى
وانثروا فوق خطى السّفّاك
... أزهاراً وورداً

حوّلوا الأهاتِ والأنّاتِ
... أشواقاً وودّاً
صوّروا العلقَم من سلطته
... منّاً وشُهْدا
وازعموا المنتينَ من سُمعته
... مِسكاً وندا
واجعلوا كلّ دمٍ يسفكه
... فخراً ومجداً
واصنعوا من لعنةِ الشعب
... له شُكْراً وحمدا
واسْدلوا من حُجُبِ التضليل
... في عينيه سُدا
أوهموهُ أنكم متم
... تباريحا ووجدا
وتعذبتم لدى غيبته
... غماً وسهدا

وبأن الشعب ما جاعَ طَوًى

... بل جاعَ فقدا

ما له من مطلبٍ يَطْلُب

... أو غاي ومبدا

إنما يرجوه أن يمنحه

غلاًّ وقَيْدا

ومزيداً من دواهيه

... وتقتيلاً وجلدا

وبأن يبقى على العرشِ

... الإله المُستبدا

شجّعوه وادفعوه

كي يسوس الحكم فردا

ويصير الواحد القهّار

... والربَّ المُفدّى

لو رأى الله يقُود الشعب..

... ولى وتحدى

وأبى أن يرتضي بالله

... فوق العرش ندًّا

****

ضللوا الطّاغي وكيدوه
... لأجل الشعب كيدا
واجعلوه لا يرى عيباً
... ولا يسمع نقدا
وامنحوا شعبكم الفرصة
... حتّى يستعدّا
والعنوا الأحرار كي تشفى
حُمَيّاه وتهدا
وخذوا الأجرةَ منه
رُتباً عُلْيا ونقدَا
صوروا الهُوَّة عرشاً
باذخاً والنار بردا
وادفعوه في شباكِ الموت
... حتى يتردى
لا تخافوا الشَعبَ.. إن الشعب

... لـــن يُـضــمــر جِــقــدا
ســيــرى فيكــم وإن لم
تـعــرفــوا لـلــحــق جُــنْــدا
وســيــغــضــي عــن وُجُــوهٍ .
مــن حــيــاءٍ لــيــس تَــنْــدَا
رُبَّ تــغــريــر بــطــغــيــانٍ
مــن الــثــورةِ أجــدى

****

إلى الغاضبين علينا

أيها الغاضبون من ثقة الشعب

... بنا والمؤَلّبون علينا

أيها المرهقون يأساً وغمّا

وإنهماكا في هدم ما قد بنينا

أيها الحاسدون من أجلِ عبء

قد ونينا من ثقله وانحنينا

لو حملتم من أمره ما حملنا

لاشتكيتم من الأسى ما اشتكينا

****

أيها الزاعمون أنا احتكرنا

دعوةَ الحق وحدنا وانزوَينا

ما احتكَرنَا نضالَنا بل دَعَونا

فرفضتم أن تفهموا ما عنينا

هالكم صَبرُنا على كلّ خَطْبٍ

فوقفتم من ذعركم...! ومضينا

ساءكم أننا انفردنا بعزمٍ

وصمود... وأننا ما انثنينا

انتمو... ليس نحن... غبتم ليبقى
شرفُ الحق كلّهُ في يدينا
يعلمُ الله أننا نَتمنى
لو رجعتم بَعد العقوقِ إلينا
بل وندعو أن تسبقونا وتجنوا
ثمرات الختام مما ابتدينا

****

أيُّها الكارهون أن يُقبِل الشعب
... علينا بالله ماذا جنينا
عرفتنا آهاته ومآسيه
... فنؤنا بنارها واصطلينا
سقمه يَعرِفُ العلاج بأيدينا
... ويدري بوعيه كم شفينا
الأسارى في ظلمة السجن لا يرجون
... نور الصباح إلا لدينا
والجراحات حالمات برؤيا
يومها الشامخ الذي أعلينا

والضحايا في قبضة الرعب يلقوَن
... العزاء الغالي بما ضحّينا
والملايين هائماتٌ إلى البعث
... وأنبائه التي قد روينا
والجياع الغرثى تحن إلى ما
قد غرسنا لأجلها وسقينا
يجد الصمُّ في رُقى طبنا سمعاً
... ويلقاه العُميُ.. نوراً وعينا
أيُّ ذنبٍ لنا إذا عرف الشعب
.. لنا أنّنا له قد وفينا
جُرْحُه دلّه على جرحنا الدّامي
... فسوّى ما بيننا واستوينا
دمعُه شاهدٌ بأنا شربناه
... كؤوساً من الأسى واحتسينا
أهُهُ شاعرٌ بأنا احترقنا
من لظَى حرِّه وأنّا اكتوينا

خطبه عاشَ بيننا فهو يدري

كم جرينا لطبّه وسَعَينا

أذنه لا تكاد تسمع مرثاةً

... تعزّيه غير ما قد رثينا

صهرتنا آلامه فامتزجنا

واتحدنا بروحه والتقينا

منحونا الدنيا لكي ننبذ الشعب

... ونغضى عن ظلمهم فأبَينا

ويبيعون ألف تاج... بأسمال

... فقير من شعبنا ما شرينا

****

أيها الظّالمون هل ذي صخورٌ

ما هززْنا منكم وما نادينا..؟

ألسُن النار حولكم تتحدًّا

أَلسُناً تُعطيكم كِذاباً ومينا

إحذروا يوم الشعب يوم يلاقيكم

... ويُعطي الدرس الذي أعطينا

يوم لن تلتقوا بمن يمنح النصحَ
... إليكم ومَن يسير الهُوينا
ويقول النُّوام: ها نحن أحرار
سحقنا هول الدُّجى وصحونا
ويقول الطغاةُ يا ليتنا كنّا
... سمِعنا صوتَ الهدى وارعوَينا
يوم ينقَضُّ شعبنا كالبراكين
... يُريكم من أمره ما رأينا
وترون الجمهور جُنَّ فلا يَعرِفُ
... ليناً ولا يخاطب هَوْناً
من عبيد تخر ألهة اليوم
... لهم سُجّداً وتطلُب عونا
وحُفاةٍ يبغون من جلد جنكيز
... حذاء.. يقضي لهم منه دينا
وجياع تَضُجّ كالرعد فيكم:
أطعمونا منْ لحمكم ما اشتهينا
وقبور تنشقُّ عمن قتلتم
يُنادونكم: ألا قد أتينا

وكنوزٍ من الحرام يراها
مُقْتَنُوها الطغاة هُلكاً وحَينا
وقصور يفِرُّ منها ذووها
ويقولون ليتنا ما بنينا
ومقاماتُ سُؤددٍ يجد القاعد فيها
... عاراً مهيناً وشينا

****

مثاب وعتاب

الأستاذ السيد "عمر بهاء الدين الأميري" معروف عنه أنه من أعلام الأدباء، والشعراء، والسياسيين في الوطن العربي، ومعروف عنه قدرته على كسب الأصدقاء بأساليب فذّة فريدة، لا يكاد يجاريه فيها أحد، ولكن هناك نواحي عظمة خفية في هذا الرجل العجيب لا يُستطاع رؤياها إلا من خلال سكبة يخرج بها المنكوب من دنيا الناس، ويشهدهم من مرقَب معزول، ويتحول إلى معيار مبصر دقيق يتحسس جوانب الحياة المضيئة والمظلمة، كما تفعل الأقمار الصناعية التي تحاول أن تصوِّر الأرض والأقمار والكواكب من شمس غير شمس الأرض، فترى ما لا يراه الناس في أنفسهم وكواكبهم ودنياهم، وتُبصر ما لا يُبصرون.

وكذلك فقد قُدِّرَ لي أثناء محنة مريرة قاسية أن أنصهر وأذوب، وأتحوَّل إلى جهاز إنساني دقيق حساس، وأن أخرج من دنيا الناس وأشهد صورهم وهياكلهم، وأطوالهم وأوزانهم، وحتى تحركاتهم الإنسانية في قوالبها الذاتية تلك التحركات التي تصوغ النفس الإنسانية في قوالبها الخفية الكامنة في الأغوار قبل أن تخرج إلى سطح الحياة في شكل أفعال، وأقوال، وفضائل، ورذائل وحقائق وأكاذيب، وكذلك استطعتُ أن أرى السيد عمر الأميري، وأعرفه على الحق الأعمق الشامل لا على السطح الجانبي كما يراه الراؤون.

وإني لأتذكَّر روعة الغبطة التي كانت تلم بي وأكاد أخرج من جمال ما أرى، كما فعل رواد الفضاء الخارجي وهم يشهدون من عالم الفضاء روعة الألوان السحرية التي تحيط بكوكبنا الجميل وتعيش بينا ولا نراها.

لقد كانت تجربتي الإنسانية قبل عشرة أعوام، فصلتني عنه أعوام طوال، وأحداث جسام واختلاف بعض الاتجاهات والمواقف السياسية، وظن أنني بهذا الاختلاف والانقطاع قد جفوته شخصياً ونسيته، وكتب قصيدة وعرض فيها بالعتب الأخوي... وأفزعني... فكتبتُ الرد عليه في هذه القصيدة:

قلبي فداء المخلَب الغضبان
... في حرم العرين
إن شاء أدميت الجفون
له ومزقت الوتين
وصَهَرْت روحي في الصلاة
... له وأحنيت الجبين
أنا إن فقدتُ رضاه تُشعُر
... عِزَّتي أنّي مهين
ولئن ذلَلتُ له فَذُلّيّ
... للوفا شرف ودين

إنّي بما ملكت يدايَ
... من الحياة له مَدين
لو ادّعى مِلكاً لروحي
... كنتُ شرَّ الكاذبين
وإن احتجزت عليه أنفاسي
أكنْ كالغاصِبين

****

هل لست تعرف عن فؤادي
... ما يكنُّ وما يبين؟
أو لست تشفق أن تحطمه!؟
... ألستَ به ضنين؟
أو ليس مِلْكاً في يديك!؟
... ألَستَ خيرَ المالكين
إن كنتَ تَرفض مِلْكه
فابحثْ له عن مُشتَرين
أو كنتَ تبغي قَتْله
فاجعلْ سِواك القاتلين

لا تَنْتَبِذْه كالهُراء
فإنه قلبٌ ثمين
****

أنا مَن عرفتَ ومن بلوتَ
فلا تظُن بيَ للظنون
أنا شخصك الثاني ولم
أُمْسخْ إلى وحلٍ وطين
إنْ لم أكن أنا أنت
... يملكني هواك فمن أكون..؟
أنت الذي حطّمتَ
... أغلالي وكنتُ بها رَهين
أطلقتَ من روحي شهاباً
... في سماء الثائرين
وسلَلْتني غَضباً تَذِلُّ
... له رقاب الظالمين
سدَّدْتني سهْماً إلى
أقصى مجالِ الطامحين

غَيّبَتني وذهبت تُنكر

... غيبتي في النّاكرين

ولَلومني إذ فتُّ بالتحليق

لم ساعداً لبك إذ

رماني خلف حُلْمِ الحالمين

وطى حياتي في خضم

... ثائر لا يستكين

****

أنا شَوكةٌ في حَلْق

... طغيان يَئنُّ لها أنين

أنا بلْسَم أبداً أسير

... من الجَريحْ إلى الطَعين

أُصغي إلى نجوى جراح

... صُمَّ عنها البنسلين

أنا شَمعةٌ كدحت أشعّتُها

... وراء الكادحين

مَدَّت بشُعْلتِها إلى
أحداقِهِم مدَّ المُعين
تذكو وتُطْفِئُها دموع
... البؤس من حينٍ لحين
يشكو سناها جهل عميان
... وغدر المبصرين
****
أتلومني يا سيّد الأبرار
... بين اللائمين
وتَظُنُّ أني قد تُغيرني
تصاريف السنين
أو أنَّ لي جاهاً يحيل
... القلب من دين لِدين
وظلَمْتَني من دون أن
تدري كَظُلم الظالمين
خطأ وأشراطُ القيمةِ
... أن تُرى في المخطئين

أنـا مَـسـتـمـدٌ مـنـك عـزْمـاً
... فـي المعـارك لا يَلـيـن
وفـاء حُـرٍ لا يحيـد
... عـن الـوفـاء ولا يـمـيـن
****

أنـا عـشـتُ فـي شـعـبـي طـوال
... العمـر تحكمنـي يـمـيـن..
أعطيتـهـا فـي عنـفـوان
... السّـنِ للوطـن الأميـن
سـنُ الحـداثـة مـدَّهـا
قـيـداً وراءُ الأربـعـيـن
فأنـا بهـذا القيـد أنّى
... سـرتُ موثـوق رهيـن
مـا إن أنِـدُّ إلـى الشّمـال
... ولا أشـذُّ إلـى اليميـن
روحـي وإن حَلّقـتُ عبـر
... الكـون فـي وطنـي سجيـن

بين الجراحات الوجيعة

... والضحايا الموجعين

بَيْنَ العبيدِ... وإن بَعثْتُ

... الرعب للمستعبِدين

بين الرَّقيق وإن فَضَحتُ

... خرافة المتألهين

أحيا مع الشُّهداءِ في

سبأٍ هناك وفي مَعين

وأعيش بينهمو كأنّي

.. صاحبٌ فيهم قَرين

يبكيهُمُ شعري ويجري

إثرهمْ دمعي الهتون

وأروع قاتِلهمِ وأجعل

... سجنه العرشَ المَصُون

وأذيقُه من مُلكه

ونَعيمهِ طَعْم المَنون

****

هَذي شفاعاتي إليك
وأنتَ خير الشافعين
حَقُّ الأخوة أن أُدل
... عليك دلَّ أخ ضنين
وأغيب عنكَ بدون أن
أُدلي بعذر أو أبين
أوَ لسْتَ روحاً في دمي
يجري كجرْي الأكسجين؟
أو لست نبضاً جارفاً
قلبي وَوَمضاً في العُيون
كشف البديهيات إهدارٌ
... لِفَهم المدركين
إثبات نور الشمس أسْخَفُ
... من جحود الجاحدين
ولعل قلبك أن يحسّ
... بما أُحسُّ من الشجون
ولربَّ لمَاح يرى
الأعماقَ رأى الخالفين
****

إنـي لأحيـا بالـمعزَّةِ

... فـي بـلادِ الأكـرمين

الرافعـي علَـم العروبـة

... فـوقَ هـام العـالمين

الـصادمين أمـام تَـيّـار

.. الأعـادي الطـامِعِـين

الـواقفين مواقـف الآساد

.. فـي قلـبِ العرين

السـاحقين بِعزْمـة الأبطـال

.. هـام الـمعتدين

الحاملـين علـى عواتـقِ

.. حكمهم عِـبءَ القُـرون

الصاعدين إلـى الـذُرى

متضامنين مصمّمين

الطالعين علـى الظّـلام

كطليعـة الصبح المبين

الصانعين نَـواة وحدتِنـا

... تـراثِ الأوّليـن

المنقذين قناتنا
من قبضةِ المتلَصّصين
المُنصِفين الفقرَ مِن
شَطَط الغُواةِ المترَفين
الباعثين من التراب
جلال ماضينا الدفين
يكفيهم حرب الشُيو
عيّين والمُستعمرين
كُرهُ العدى لهمُ دليل
.. أن حكمهمو أمين
بشرى لنا أنَّا نُؤازر
.. عهدهم متجمِّعين
ندَع الخلافات الصغيرةَ
تَنْمَحي بِيد السّنين
يَطْغَى عليها حسُّنا
بخطورة المُترَبصين
الواضعين لشعبنا
في كل مُنْعَرَج كمين

في دَرس خـالِـدْ مـا يـؤهِـلَـنـا

.. لـمـجـدِ الخالـديـن

مـا كـان يَحدُث لـو عصـى

عـمـراً أمـيـر المؤمـنـيـن؟

واقْـتَـاد جـيـشـاً ضِـدَّ جـيـش

.. الـزاحـفـيـن الـظـافـريـن؟

عُـدْنـا إذاً رعـيـان شـاة

.. فـي الرّمـالِ مُـمـزَّقين

وارتـدَّ خـالـدُ عـن بطولتِهِ

.. إرتـداد النّـاكـصـيـن

وهَـوَت عروبتُـنـا ضَحيّـةِ

.. قـادةٍ متنافسيـن

حـربُ المصائـرِ لـو خسرناهـا

.. هَـلَـكْـنـا أجـمـعـيـن

****

تحية الخروج من العزلة

سأنشر في هذه المجموعة القصيدة التالية التي كانت قد نُشرت في جريدة «صوت اليمن» مبتورة ومحرّفة.. إنها قيلت أصلاً تأييداً وتشجيعاً لسيف الإسلام عبد الله عندما أوفده والده الإمام يحيى إلى اجتماع للدول العربية على أثر العدوان الفرنسي على برلمان سوريا، ثم نشرناها باسم سيف الحق إبراهيم مبتورة لأنّا لم نشأ أن ننشر دعاية للأمير عبد الله الذي خيّب آمال الأحرار جميعاً.

ولكنّا الآن بعد أن أُعدِمَ الأمير ودفع حياته ثمناً للانسياق مع التيار الثوري الذي تزعّمه البطل «الثلايا» لا نجد حرجاً في نشر القصيدة باسم لسيف عبد الله الذي أصبح في ذمة الله.

وليس الباعث على إثبات هذه القصيدة في هذه المجموعة مجرد الحرص على استكمالها فقد كان يمكن إهدارها كغيرها من القصائد الوثنية التي قلناها في دور الطفولة الوطنية.

وإنما الباعث على ذلك هو الحرص على أن نضع بين أيدي المواطنين صورة واقعية بارزة لمعالم التطور في حركتنا لتكون درساً نافعاً يساعد على خلق فهم سليم لطبيعة النضال من حيث هو عمل وتطبيق ومجابهة لحقائق الحياة لا من حيث هو نظريات مجردة.

إن السلحفاة القابعة تحت أثقال درعها الصلب تستطيع لو منحتها الفطرة قدرة على التخيّل أن تسابق الصواريخ الكونية في مجال التغلغل إلى أعماق المجرّات، كما تستطيع أن تنتقد الصواريخ وتلومها على تلكؤها عن غزو الزهرة والمريخ، وترميها بالخيانة بتهمة العجز عن وضع مخطط سليم لتحرير الشمس والقمر.

وتلك هي ضريبة محتومة لقدسية الحرية المطلقة في التخيّل التي قد يتمتع بها السلاحف.

ولكن النظريات شيء، ونواميس الواقع شيء آخر، وتلك هي سُنَّة الله حتى بالنسبة للأنبياء والمرسلين.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [سورة الأنعام: الآيات ٧٥ ـ ٧٩].

والقصيدة لا أراها نافعة للآخرين فحسب، بل إنها مثيرة وملهمة حتى لقائلها، وإني لأستعرض فيها عقلي يومئذ، وتأخذني الدهشة ولو استسلمت للينابيع الملهمة فيها لوضعت كتاباً بدلاً من مقدمة كهذه.

ولكني مضطر أن أوجز أشد الإيجاز:

(١) كانت تسود عقلية الطليعة المفكّرة من أحرار اليمن مثالية مطلقة في كل شيء لا سيما فيما يتعلق بالنظرة إلى البلاد العربية.

ذلك لأن صلة هؤلاء المفكرين بالخارج كانت صلة نظرية بحتة، رغم أن فريقاً قليلاً منهم عرفوا الخارج في بعثات دراسية.

ونعني بالصلة النظرية أنهم كانوا يدرسون الواقع من خلال المبادىء والمُثُل التي يطلعون عليها في الصحف والكتب ويؤمنون بها. وكانت النتيجة أنهم ظلوا ينظرون إلى كل شيء خارج اليمن على أنه مثل أعلى حتى «فاروق» وحتى «عبد العزيز آل سعود» ولولا أننا لا نريد إيذاء المرحلة الراهنة من شعور القراء عام ١٩٦٢ لأثبتنا ما يتعلق من أبيات القصيدة بتمجيد هذين الملكين استكمالاً للدراسة والعبرة.

(٢) وكنتيجة طبيعية لهذه المثالية فقد ظلت حركة الأحرار سنين طويلة تعتمد في الدرجة الأولى على البلاد العربية عموماً وتنتظر منها عوناً فعّالاً يحرر اليمن من الأوضاع العتيقة المتعفنة، وقد دفع معظم الأحرار رؤوسهم ثمناً لهذا الوهم الفاحش.

(٣) والأدهى من ذلك أنهم كانوا ينظرون إلى خروج أمير كسيف الإسلام عبد الله إلى الخارج على أنه يساوي انقلاباً كاملا، وأن نظرة عابرة منه إلى دنيا الحضارة كفيلة أن تطرد من مجرى دمه كل رواسب الرجعية الملكية وتحوّله رجلاً ثائراً.

بل كانوا يرون أن موافقة الإمام يحيى لابنه على زيارة البلاد العربية خارج الستار المتوكلي خطوة حاسمة أو تمهيد لخطوة حاسمة.

(٤) كان الأحرار على عكس ما يظن الكثيرون متساهلين إلى أبعد الحدود مع الحكام، وكانوا أليَن عريكة، وأرحب صدوراً عند الأخذ والرد مع الرجعية الحاكمة، بل وقد بدأوا التعامل معها بالمداراة والتشجيع وإثارة روح الطموح في رجالها وخلق مثل من الأمجاد في صورة مدح، وثناء، وكانوا يؤيدون أية خطوة سليمة ولو متواضعة يحاول الإمام أن يخطوها. ولكن عناد الحكم المتوكلي وتصلّبه، وإصراره على الاستعلاء

والاستبداد، وتمسكه بالحق المطلق في التسلّط، واستخدام هذا الحق في تحطيم عجلة التطور أعطى تجربة المناضلين يقيناً لا يعتريه الشك في أن كل محاولة لقبول أنصاف الحلول وأرباعها لن تكون إلا من قبيل خداع النفس لأن الحكام مصممون على رفض أية خطوة في سبيل تقدم حقيقي.

ولكن هذا اليقين كان مثالاً عسراً فلم تأتِ به إلا أحداث هائلة، وأعمار غالية، وتجارب، ومذابح وآلام يعجز عنها الوصف.

فالذين يحاولون إعادة التجارب من جديد مع الحكام هؤلاء أو الرضى بأنصاف الحلول إنما يعملون على إهدار تجربة ربع قرن من النضال ونصف قرن من تجارب العبودية قبله، وهم كذلك يستأنفون المجازفة بمصير الجيل الوطني الذي بلغ أشدّه من الرشد والوعي عندما يحاولون إقناعه بمعاودة التجربة من جديد وإلغاء تجارب الرعيل الأول.

(٥) وكذلك الشأن فيما يتعلق بموقف الأحرار من الرجعية العربية الحاكمة، إن كثيرين ينادون بأن تكون حركة الأحرار اليمنيين كحركة الجزائر وغيرها من القضايا العربية محل عطف الجميع، وهؤلاء يطلقون الرأي من علٍ، وبمعزل عن ظروف وتجارب الحركة اليمنية، فهم لا يعرفون أن الأحرار كانوا يتخذون الرجعية العربية ملاذاً ومفزعاً، لم يكونوا يتوددون إليها على سبيل المجاملة أو طبقاً لتكتيك سياسي، بل كانوا يرونها فعلاً جديرة بهذا الأمل والرجاء، وظلوا كذلك أعواماً طوالاً يعصبون عيونهم بأوهام، ويقدمون المذكرات تلو المذكرات ولم يكونوا يدركون بأنهم إنما يشكون إليهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم.

وكانت المذكرات البريئة الساذجة الصادقة المخلصة التي يبعثها أحرار اليمن إلى حكام الجامعة العربية لا تلبث إلا قليلاً حتى يقدمها بعض ملوك الجامعة العربية إلى الإمام يحيى مشفوعة بتوصيات رجعية تنصح الإمام بالصمود في وجه المطالب الوطنية والاستخفاف بها، والضرب بيد من حديد ضد الحركة التحريرية.

وحكاية الحرص على عطف عام من كل التيارات العربية تمثل أملاً جميلاً برّاقاً، ولكن البحث عنه لا يكون إلا من قبيل البحث عن المستحيل بالنسبة إلى القضية اليمنية، ذلك لأن نضال الأحرار اليمنيين منذ اليوم الأول اتسم بطابع ثوري ضد حكم محلي رجعي فاسد، وظهر الأحرار بشعارهم المعروف، وهو أن التحرر من الرجعية الداخلية هو الأساس الأول للتحرر من الاستعمار.

وهذا شعار وإن طبّقته بالفعل ثورة ٢٣ يوليو المصرية في مصر بطرد فاروق أولاً، ثم طرد الاستعمار، إلا أنه لم يكن الطابع البارز للثورة العربية الكبرى في مراحلها الأولى، فقد استطاعت هذه الثورة بطرقها الدبلوماسية سنوات عديدة إقناع الحكام العرب الرجعيين بإمكان التعايش معهم، ولم تضطر إلى كشف ثوريتها المطلقة ضد الرجعية من حيث هي إلا بعد قيام الحركة الانفصالية في «دمشق»، ومن يومئذ أصبح الصراع مع الرجعية وجهاً لوجه بعد أن انكمش الاستعمار واختبأ وراء القصور الرجعية الحاكمة.

وإذا كان من المتعذر أن تضع الرجعية العربية يدها في يد «جمال عبد الناصر» في هذه المرحلة الثورية الراهنة، أو تطمئن إليه، وهو يحمل المعول لاستئصال جذورها وقصورها، فكذلك الأمر فيما يتعلق بحركة

الأحرار اليمنين التي ظهرت منذ اليوم الأول بطابعها الصريح ضد نظام حكم ملكي رجعي، مع ملاحظة الفرق الهائل بين القوة الضخمة التي يمثلها قائد الثورة «جمال»، وبين الضعف الذي يمثله نفر قليل من اليمنين الذي يرفعون أخطر شعارات الثورة وهم لا يملكون حولاً ولا طولاً، بل ولا شبراً على وجه الأرض يستقرون فيه بأمان قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو.

من هذه الاعتبارات كلها نستطيع أن نتصور مبلغ السذاجة التي كانت تسود قلوب الأحرار اليمنين وهم يأملون أن تأتي النجدة التحررية لسحق الإمام يحيى من حكومات وجامعة دول يمثلها فاروق وعبد العزيز آل سعود.

ولكن سن الثورة سنة ١٩٦٢ لا يخجل من سن الطفولة الثورية التي كنا نحياها عام ١٩٤٥، فقريباً جداً كانت الطيبة وحُسن النية يسودان قلب الثورة العربية الجبارة التي وضعت يدها طاهرة في يد حاكم عربي كان يدفع الملايين لنسف الطائرة التي تحمل جمال عبد الناصر.

(٦) وفي القصيدة ناحية تستحق وقفة قصيرة من التأمل تلك هي ناحية العتاب الموجّه إلى العرب عموماً على إهمالهم قضية اليمن، وتلك نزعة أخرى لأحرار اليمن بل لشعب اليمن كله، وهي نزعة الاعتماد على نجدة من الخارج منذ عهد «سيف بن ذي يزن» حتى اليوم.

وقد عالجنا هذه العقدة في مناسبات، ومقالات وكتب عديدة من أبرزها كتاب «الخدعة الكبرى»، وكتاب «مأساة واق الواق»، ولكن ذلك كان أثناء قيام الاتحاد بين اليمن والجمهورية العربية، وقد يظن اليمنيون أن الرأي يجب أن يتغيّر بعد حل الإتحاد، ويجب أن تُسرع

الجمهورية فتبعث للشعب بثورة جاهزة ناجزة مطبوخة مطهيّة في طبق طائر، وتعفيه من مصاعب البذل الذاتي، والتضحيات الشاقة.

لذلك نسرع فنذكر أبناء الشعب، أنه من العار عليهم أن يستنجدوا، ويطلبوا المعجزات والخوارق، في سبيل الخلاص من جثة طاغية محتضِر.

فالشعب هو الذي يَنشد الحرية، وهو الذي يجب عليه أن يدفع ثمنها كاملاً غير منقوص، وإذا كان الله سبحانه خالق الشعوب، وخالق الطغاة معاً قد فرض على الناس حتى الأنبياء منهم أن يناضلوا حتى الموت في سبيل مبادئهم، فكيف يجوز أن يظل شغل اليمنيين الشاغل هو التطلع إلى ثورة تمنحها لهم وتصدرها الجمهورية العربية المتحدة.

لنفرض جدلاً أن الثورة العربية في مصر تجاوزت عن ظروفها الدولية والمحلية وصنعت لليمنيين ثورة وخلّصتهم من حكم الإمام الرجعي، وأوضاعه من جذورها، فهل يكون ذلك شرفاً لليمنيين أم يكون عاراً وشناراً؟.

أما أنا فإني أضرع إلى الله أن يثبت سياسة الجمهورية العربية على الإبتعاد عن التدخل الثوري في الشؤون الداخلية لليمن حتى لا تهزها العاطفة في يوم من الأيام فتتصدى للقيام بعمل ثوري ضد الرجعية اليمنية نيابة عن الشعب.

لأن ذلك يعني أن يُدمغ الشعب بوصمة في جبينه إلى الأبد.

بل إني لأضرع إلى الله أن لا يتولى هو جلّ وعَلا إزهاق روح الطغيان بصاعقة تنزل من السماء، أو بركان ينفجر من الأرض، أو ملك من الملائكة يهبط من عليائه بسكتة قلبية أو صدمة عصبية أو لوثة

عقلية. . . ولكني في الوقت نفسه أسأل الله عزَّ وجلَّ بدلاً من أن يبعث الملائكة، أو يرسل الصواعق، أو يفجّر البراكين أن يبعث الكرامة النائمة في نفس الشعب وأن يفجّر الثورة من أعماقه، وأن يمنحه الإيمان بنفسه لتحرير نفسه وأن يعطيه القدرة المؤمنة على الاستماع إلى كلمة الله الثورية الصارمة في الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: الآية ٢٤].

وبعد، فهذه هي القصيدة التي قدمت بين يديها كل هذا الكلام، وقد لا يرى القارىء أنها تستحق هذه المقدمة الطويلة غير أني أرى أنها تثير عدداً من أمهات المشاكل، وتضع علامة استفهام عليها، وهي لأجل ذلك جديرة بالتعليق والاهتمام.

هبَّ يرخي للسّافيات عِنانه
ويُجلّي للنيرات مكانه
مرَّ كالخاطِر السريع إذا ما..
استيقظْت عَنه مقلةٌ وسْنانه
أملٌ في جَوانح اليمن المغمور
.. ألقى ملء الفضاءِ بيانه
وضمير مُجنَّح شَهِد العالم
في الأفق عَطْفه وحَنانَه

وشعورُ لآل قحطانَ فوّار
أجَدَّت نارُ الوغى فورانه
لا يُبالي من المسافاتِ في عصر
... يربي صرْح الهوى فرسانه
أكَلت نارُه الحواجزَ والأسوار
.. أكْلاً وهشّمت قضبانه
وتلقّتْ فيه الكنانةُ شعباً
مقبلاً من ماضيه يلقى جِرانه
ودَّع العزلة التي نَسج الدهرُ
.. له من ظلامِها أكفانه
خلَعَ الأعصرَ القديمةَ إلا
مَجْدَهُ التاريخيَّ أو إيمانه
والتقى بعد بالعروبة ظمآناً
.. إليها يَبُثُّها أشجانه
آب من عهدِه البعيد إلى مصر
.. يلاقي في رحبِها إخوانه
بعد أن حالت الظُروفُ وعاقته

.. اللّيالي وبَلْبَلَتْ أذهانه
غلَبتْ روحه الزمانَ فرَدَّتْه
.. حَسيراً وذلّلت طغيانه
سلكت فوقه طريقاً إلى الأفلاك
.. حتى تجاوزت سلطانه

****

يا سموَّ الأمير خطَوتك الكبرى
.. تعزي قلوبنا الأسوانه
أنتَ صوتُ الشعب اليماني المدوّي
أنتَ أقوى أحداثه الرنّانّه
أنتَ في قَلبِه الشعور الذي أيقظ
.. أعصابه وهزَّ كيانه
أنتَ يُمناه في يد المجمع الأعْلى
.. تُحيي أقطابَه ولِجانه
أنتَ ميثاقه العظيم، وأنتَ السِرُّ
.. في نفسه، وأنتَ الأمانَه
أنتَ بابُ العصرِ الذي يرْقب التاريخُ
.. من ضوءِ فَجْرِهِ مَهْرَجانه

أنتَ نَبْعُ الحياةِ فَجّره الله
.. لإسعافِ أُمةٍ ظمآنه
تَتَخيّر لها الطريق فإن الليل
.. داجٍ وعَينُها حيرانه
وتحدَّثْ عن شعبِك الصامتِ المكبوت
.. إذ ليس يستطيع الإبانه
ظل في العزلة الطويلة حتّى
كاد أن يدَّعي الورى فقدانه
وتناسى ذو الوشيحة قُرباهُ
.. كأنَّ ما كانوا همو جيرانه
كيف لم ينقذوا غريق أتيٍّ[1]
مزَّقَ المَوْجُ روحَهُ اللّهفانه
مُسْتغيثاً يئنُّ في لهوَاتِ السَّيْلِ
... لا ينظرون إلا بَنَانَه
زَعموا أنّهُ بعيدٌ ولو ماتَ
... لَدَيْهم ما شَيّعوا جُثْمانه

(١) الآتي: السيل.

أنـقِـذُوا كـل أُمّـة مِـن عَـدوّ

... وَتـداعـوا فـكـفـكـفـوا عـدوانَـه

ودعاهم قحطان يصرخُ من هولِ

... الأفـاعـي فـشـجّـعـوا أفـعـوانـه

ليتَ شِعْري ما بالهم أعرضوا عنه

... وداسوا دموعَه الـهـتّـانـه

أتـواصـوا بمحوِه من على الأرض

... أم استصغروا على الأرضِ شانه؟

إن يكن هانَ قيمةَ شعبه الفاني

... فـهـلا تـسـلّـمـوا بُـلْـدانَـه

فـعـسـاهـم أن يَـذْكـروه إذا مـا

نـظـروا في خـريـطـةِ ألـوانـه

وعـسـى أن يـهـمّـهـم أمْـره إن

درسـوا في طـبـيـعـة صـوّانَـه

ولعلّ التاريخَ في متحفِ الآثار

... يُـهـدي إلـيـهـمُ عـنـوانـه

****

سالَ جرحٌ بالشّامِ فاضطرَبَتْ نَجْد
... وسَحّت له عيون الكنانه
وتَنزَّى العراقُ غضبانَ كاللّيثِ
إذا سامَهُ الغبيُ مهانه
واستفزَّ الشعب اليماني حفاظاً
فانتضى سيفَه، وهزَّ لدانه
وشجى الأردن المصاب كأن قد
دَمّر المعتدي له عَمّانه
وفلسطين خَبَأت جرحها الدامي
... وهبّت لجارِها غَضْبانه
نكبة الشام وطدت برلمان الشام
... رغم العِدى وأعْلَت مَكانه
نكبةُ الشام وحّدتنا فما من
عَربي إلاّ بَكى برلمانه
صار قلباً يُحرّك العربَ العربا
... ويجري في أرضهم شَريَانه
جهلت سرَّه فرنسا فراحت
تَتَحدّى أُسوده اليقظانه

وأرادت تمزيقه بيدٍ كانت

.. إلى الأمس تجتديه الإعانه

لم تُدمّر بنيانَه الحرَّ لكن

دمّرت سمعةً لها طنّانه

أين أبطالها الأولى عبدوا (هتلر)

... ذلاًّ وقَدَّسوا صولجانه

نكصوا عن قِراعِه في حمى السين

... وهابوا قِتاله وطِعانه

لَثَموا منصليه في قاع باريس

... ركوعاً وألّهوا نيرانه

أفيمحون عارهم بِدما شعبٍ

.. كريمٍ كانوا همو ضيفانه؟

****

لنمُت أو نعش على الأرضِ أحراراً

.. ولا عاش مَن يستسيغ الإهانه

إن شعباً يرضى الحياة سجيناً

لا يساوي في قيمةٍ سجّانه

وحـيـاةٌ تُـصـانُ بـالـهـونِ والإذلالِ

... لـيـسـت خـلـيـقَـةً بـالـصـيـانـه

ودمـاء تـنـمـو عـلـى الـضـيـمِ رِجْـسٌ

نجـســاتٌ كُـراتُـــهـــا خَـــوَّانـــه

كـل شـعـبٍ مـحـى أسـاطـيـره الـسّـود

.. وَوَارى تحـت الـثـرى أوثـانـه

قـد تـلاشـت كـل الـعـصـور الـذلـيـلات

... وبـادت كـلّ الـشـعـوب المُـهـانـه

واسـتـحـالـت عـبـادة الـنـاس لـلـنـاسِ

... وأمـسـى حـمـلُ الـقـيـود خـيـانـه

****

من أحرار اليمن إلى أحرار العراق

صيحةَ الشعب.. في بلادِ الرشيد

أشعليها ناراً وثوري وزيدي

إزحفي كالطوفان يا ثورةَ الشّعبِ

إلينا ودمدمي كالرعود

طهّري جوَّنا من الموتِ والصمتِ

... وهُزّي لنا بقايا لحود

إخوة نحن في القُيودِ فهيّا

لِنكن إخوةً بِخَلْعِ القُيود

فالطغَاة الأولى أغصّوكم الريقَ

... بقايا همو لنا في الوريدِ

هُمْ حبالٌ للشنقِ تُرعب بغداد

... وتبدو عريانةً... للشهودِ

وهمُ عندنا أراقم... تُخفي السمّ

... في لونِها الجميلِ الودود

تتشكّى العدا وتَبْني لهم طرقاً

إلينا مفروشة بالورود

دمّرتنا لهم كآلاتِ حربٍ
أطلَقَتْها يدا عدوٍّ لدود

خفّقت لِلْغُزاةِ أكثر مما
يتمنّونَ من خرابٍ مبيد

حَمَلت عنهمُ العَنا فاستراحوا
في جِماها وأَمْعَنوا في الهجود

نصفَ قرنٍ عِشْنا ينامُ بها المحتَلّ
... في أرضِنا كَنَومِ الوليد

هجّعاً كالفراغِ لا يزعج المحتلَّ
... منا غَيْرُ السّرابِ البعيد

أو شَكاوى كَشَهْقَةِ الطفلِ يبكي
من دلالٍ لأمه يَومَ عيد

شطرُنَا يَستغيث من غاصِبٍ فظٍّ
وشَطْره من مستبدٍّ عنيد

وكِلا القاتلين ينهشُ في جثة شعبٍ
نَهْشَ النّهومِ الحقود...

فإذا ما تصايَحا فكقطّينِ

... إستباحا أشلاء جِسم بديد

****

فاحذَري يا بغدادُ، إن أفاعينا

... لشَرّ من ألفِ نوري السعيد

إسألوا (إسمعيل صفوت) عن صنعا

... وماذا قاسى بها من جحُود

إسألوا عَنهُمُ المواثيقَ في جدةَ

... والإتحاد غَير الوَحيد

وسَلُوهم كم طبّقوا من عهُود

قطعوها ونَفّذُوا من وعُود

وسَلُوهم كم مَرة خجلوا فيها

... من الدجل والنّفاق البليد

وسَلُوهم كم من دمٍ سفكوه

دون حكمٍ أو حجّةٍ أو شهود

وسلوهم كم قَطّعوا من رؤوسٍ

غالياتٍ، ومَزَّقُوا من جلود

وسَلُوهم عن العُروبَةِ من قَحطانَ

... في مَجْدها العريق التّليد

أين فرّوا بها، وأيّ سُجون

بَلَعَتْها لهم وأيّ لُحود

ذبحوها ذَبحاً فإن أرهقتهم

كنسوها في البحرِ كَنْسَ الدود

*****

تلك مأساتُنا الأليمة يا أحْرار

... بَغْداد يا كماةَ الجنود

سَجّلتْها آهاتُ شعبٍ شقيق

عربيٍّ مكبّلٍ بالحديد

هو في عصركم ويُرغِمه القيدُ

... على العَيْشِ في عُصورِ الجَليد

يَتَقاضاكم الأُخُوَّةَ في الإحساسِ

... والجرحِ والنّضالِ المجيد

كم دفعنا من الدّماء لغايات

... كَغَاياتكم وقصدٍ رَشيد

خَذَلَتْنَا ظروفنا وأعادينا
... وفزتم أنتمْ بنجحٍ أكيد
كان تاجٌ لَدَيْكُمُ يدعم التّاج
... لدينا بالنصرِ والتأييد
إنْ خبا للطغاةِ فينا حَريقٌ
أشْعَفتهم طغاتكم بالوَقود
كم ذُبِحْنا وكم جُلِدنا (بصنعاء)
... لكَيما يَرضى بلاط الرشيد
إنهم يؤمنونَ بالهدفِ الجامع
... والعَرشِ والمصير الوحيد
فاحذروا يا أحرار «بغداد» أن يسْعى
... إليكم طغاتنا من جديد
لا تَغرّنكم مواعيدُ قالوها
... قديماً مِنْ عَصْرِ عبد الحميد
إنّها فِرْيةٌ يكيلونها كيْلاً
... إلى النّاسِ في سخاءٍ وجود
إنهم يمنحونكمْ ألف وجهٍ!
إنْ أردتم وألف وجهٍ مزيد

سوفَ يبكون إنْ أردتُمْ بكاءً
كَدليلٍ على وفاءِ العُهود
سوفَ يَبْنُونَ في الهوا كلَّ مشروع
... جليل وكلَّ صرحٍ مَشيد
يُعلنونَ الحياةَ خوفاً فإنْ لاقوا
أماناً تراجعوا للّحود
إنهم يَرقصونَ في كلّ جَبل
إنهم يخبطونَ في كلّ بيد
إنهم يندبونَ في كل قبر
إنهم يضحكونَ في كلّ عيد
يبهرون الدنيا بزورة (موسكو)
وعليهم غُبار دُنيا ثمود
ردَّدوا مَنْطِقَ التّحرُّرِ كالبَبّغاء
... تَزْهو بالنُّطْقِ بينَ القرود
يَئسوا من رِضى اليمانين عنهم
فاستماحوا الرّضى وراء الحدود

****

غيرَ أن الأبطال مِن عَربِ الأحرارِ
... لن يُخْدَعوا بِزَيف الوعود
لن يَمدّوا الأيدي لمنْ يَحْكم الشعبَ
... بسيفٍ مُلوَّثٍ وقيود
لن يزيحوا نيرونهم ليذيقونا
... مَزيداً من سَطوةِ النمرود
هم أزالوا عَرشاً أرادهمو جُنداً
... (لشمعون) ضد شعب مجيد
ثورة الشعب في العراقِ تباركتِ
وحُيِّيْتِ من ضميرِ الوجود
كل نَبْضٍ في شَعبِنا كان شعراً
يَتَغَنَّى بيومِكِ المعبود
فَجّرَتْكِ السّماءُ ريحاً من الموتِ
... على كل مستبدٍّ عنيد
عصفت بالأصنام آلهةِ الأمسِ
... ودُكَّتْ من كلِّ ركنٍ وطيد
وأذلّت من كبرياء جباهٍ
كان يُعنى لشأوِها بالسّجود

كم إلـه مُـزيّـفٍ تَـرَكَـتْـهُ
هيـبـةُ الشّـعـب في عـدادِ الـعـبـيـد
*****

يـا حـيـاةً هـبّـتْ لـنـا مـن قـبـورٍ
يـا سَـعـيـراً فـارت لـنـا مـن جـلـيـد
يـا آمـانـيّنا ونَجْـوَى هـوانـا
يـا أنـاشِـيـدنـا لـيـومِ الخلـود
كنتِ بالأمسِ لَيْلَنا البائسِ الباكي
... ورُعـبَ الـكـرى وذُلَّ الـقـيـود
كـنـتِ حِـلْـف الـعـدوّ يـرهـبنا مِـنـه
ويـحـظـى فيه بـركـنٍ شـديـد
كـنـتِ عـضـواً لم نـدرِ كـيـف نداويه
... ونـقْـضـي فيه بـرأيٍ سـديـد
إنْ عَـفَـوْنـا سـرى لـنـا الـداء مِـنـه
أوْ بَـتـرنـا عـشْـنـا بـجـسـمٍ قـعـيـد
(فيصـل) و(الحسـين) أشـأم طـفـلـين
... أسـاءا لأمـةٍ في الـوجـود

صَنَعا للعِدى مِنَ الخدماتِ النّكر

... ما لم يصنعه شعبُ اليهود

شَرٌّ ما يقتلُ العروبَةَ أوثان

... نُربّي طغيانها في المهود

ونغذّي فيها ألوهيّة الإفك

... ونعنو لشُخفها بالسجود

ونُريها بأنّها الرَّمزُ للعيا

... بلا عَلياء ولا مجهود

تَقْتُلُ الشعبَ أو تخون فلا تَسْمَعْ

... غيْرَ التّقْديس والتمجيد

****

وازْدَدنا العدَى فأضافوا على أصْنامِنا

... البلْهِ خافِقاتِ البنود

جعلوا منهمُ حمىً للخيانات

... وجسْراً لِلْغَزوِ والتهديد

وسلاحاً لِقَتلِ كلّ شريف

وأداةً لهدمِ كلّ مشيد

لا يُــلامُ الأطفــال إن حسبــونا

سِـلَـعـاً لِـلْـمـلْـهـاةِ والـتـبـديـد

قــد عبدناهُــم صبغــاراً وهَـيْهــات

... لـنـا أن نـكـون غـيـرَ الـعـبـيـد

مـنـذ كـانـوا أجـنّـةً فـهـمُ إمـا

مـلـوكٌ أو أولـيـاءُ عـهـود

يـرثـون الـشـعـوب إرثـاً رخـيـصـاً

دونَ كَـدّ ودون بـذْل جـهـود

كـيـف يـأتـيـهـم الـشـعـور بِـأنّـا

آدمـيـون مـثـلـهـم في الـوجـود

نحن لَسْنـا في وعيهم غير ميراثٍ

... تـلـقّـوه مـن كـرامِ الجدود

****

حـاشَ لله أن يـكـونـوا لـطـه

بـل وحـاشـا أن يـنـتـمـوا لـيـزيـد

لـو يـصـحّ انـتـسـابـهـم لـعـلـي

كــرَّم الله وجــهــه في الخلــود

لاقــشــعــرَّت دمــاؤهــم مــن حــيــاءٍ

وأبــت أن تجــري لــهــم في وريــد

فَــرِحــوا أنّــهــم قــد اعــتَــقَــلــوا الــشــعــب

... وشَّــلــوا حــيــاتَــه بــالــقــيــود

وأباحـــــــوه للأعـــــــادي وباعـــــــوه

... إليهـــــم بحفنـــــةٍ مـــــن نقـــــود

****

فَــتَــصَــدَّيــتِ أنــتِ يــا ثَــورةَ الــشــعــبِ

... بــعــزمٍ مــاضٍ ورأيٍ ســديــد

ونَــفَــضْــتِ الترابَ عن معدنِ الشعب

... وعــن عِــرْقــهِ الأصــيــل الــعــتــيــد

وغــســلْــتِ الــعــارَ الــذي كــان يُــؤذي

مَــنْ يَــراه عــلــى جِــبــاه الأســود

واقتلعتِ الطّغيان مِن جِذره العاتي

... ومــن أُسِّــهِ الــقــوي الــوطــيــد

وجَــدَعْــتِ أنــفــاً مــن الــغــربِ ذَرّيــاً

... وشــوَّيــتِــهِ عــلــى الــسّــفُــود

ضربةٌ من مشيئةِ الشعب بالسوطِ

... أزالت شواهِقاً من حديد

غَضْبةٌ عبقَرِيّةٌ ذهِلَ العالمُ

... من حسمها الرَّهيب الشديد

كَتبت للتاريخِ دَرساً يَعيه الصمّ

... والبُكمُ من طغاة العهود

ومن اليومِ سوف يرتجف الطغيان

... من أنّةِ الحزينِ الشّريد

ومن اليوم سوف تَرتَعد الذَّرَّةُ

... في كفّ كُلّ عاتٍ مريد

جَزعاً أن تمسّها غضبةُ الشّعبِ

فتخبو نار السّلاح المُبيد

****

سوفَ لا تُشترى شُعوبٌ ولا تُبْتاع

... من ماجِنٍ ولا عربيد

لن يبيع الطغاةُ ظُفْراً لإنسانٍ

... ولـو كـان جُـثّـةَ الموؤد

فـقـدَ الأجـنـبـيّ آمـالَـهُ فيهـم

... فلـم يَبْـقَ عـنـدهـم مـن رَصـيـد

١٧ يوليو سنة ١٩٥٨

حنين الطائر

أملٌ غيرُ متاحِ
وفُؤادٌ غيرُ صاحِ
أنا طَيرٌ... حَطّم المقدور
... عُشّي وجناحي
ورماني في نِثارِ
مِنْ دموعي ونُواحي
وحُطامٍ من بقايا
وطَن غير صِحاحِ
ذهبتْ آهاتي السوداء
... أدراج الرّياح
فتطامَنْتُ على هَمّي
... وخَبّأتُ سِلاحي
لَمْ أجدْ سمعاً فأفرغتُ
... أنيني في جراحي
وتنبّهتُ على أنقاضِ

... عــــش مُشْتَـبـــــاح
وإغـتـــــراب بـيـــــن غابـــــات
... مـخيــفـــــــاتِ فِســـــــاح
وحيـــــــاةٍ فـــــي صـــــراع
ونضــــــــالٍ وكفـــــــاح
لا أرى إلاّ ظـــــــلامـــــــاً
فـــــي غـــــدوّي ورواحـــــي
،ديــاجيـــــــر ثــقـــــالاً
ـــا فـــــي كـــلّ ســاح
دّتِ الـطـــــــرقُ إلـــى
كـــلّ النّواحـــــي
ـــن الفـجـــرِ
ــر بصـــاحِ
جـعـ ـــورِ
... و ي
وسلاحـ ـــزِل
وأداةً لـ ـــاحِ

كنـــــت أرويـــهــــا بــمنقـــــاريَ

مـــــن شِعْـــــــرٍ قَـــــراح

كنـــــــتُ أعجوبـــــــةَ دهـــــري

فـــــي نشـــاطـــــي ومـراحـــــي

بيـــن أطـيـــــارٍ بليـغـــــــاتٍ

... وأفـــــــــــراخٍ فِصـــــاحِ

يتعابـــثـــنَ فمـــــا ينْطقْـــــــنَ

... إلاّ بالـــمُــــــــــــــزاحِ

لــم أُمَيِّـــــــز فـــــــي لغاهـــا

بـيـــــن صَـفْـــــوٍ وتـــلاحِ

****

لــيتَ شِعـــري هـــل تَـــرد العَهْـــدَ

... كَـــــــــفُّ الاجتـــيـــاحِ

أتعاطـــى منـــه كـــأس الحــبّ

... كالـخمْـــــرِ الـمُبـــــــاحِ

ليتنـــــي أخســـر نصـــــفَ الـــرّوح

... فـــــي جُـــــرْعَــــــةِ راحِ

آه لـــــــو اجـتـــــذب العُـــــشّ

بحــبـــــــــــل الإمتـيـــــــــاح

آه لـــــــو يـــمحـــــو مسافـــات

النــــــوى والبـــعـــــــد مــــاحِ

مــــا علـــى الأقـــــدارِ إن عُـــدتُ

... لأهــلـــي مـــــن جُـــنــــــاح

آه مـــــاذا تصْـــنَـــــعُ الآهـــــاتُ

... فــــــي البيــــــدِ الشّحــــاحِ

تَعِـــسَ الدَّمــــــعُ، إذا لـــــــــم

يَستَـطــــعْ فـــــكَّ سراحـــــــي

البكـــا أعجـــــزُ مــــا استخدمــتُ

... فـــــي كســـــبِ النّجــــاحِ

****

إلى الأحبة

كنت مشرداً بعد نكبة عام ١٩٤٨ ومطارداً من كل بلد على ظهر الأرض، وكانت البلاد العربية كلها تحت سلطان العروش الرجعية ونفوذها وهيبتها تلك العروش التي هزّها مصرع الإمام يحيى، وكانت كل حركات الشعوب تعاني نكسة عامة، ولم تكن لنا ملاذاً يومئذ غير باكستان الدولة الإسلامية الفتية التي كانت محط كل الآمال.

ومع ذلك فكانت قضية اليمن مجهولة هناك تفصل بينها وبين الباكستانيين حواجز اللغة والعزلة والانقطاع الرهيب.

ومن هنا. . . تفاقمت المشكلة.

وعلى الجانب الرهيب الآخر كان الأحبة كلهم شركاء المحنة وزملاء الكفاح يُساقون إلى المذابح في حجة وتعز وصنعاء وتُسحب جثثهم في الطرقات. وكان أسعدهم المعذبون في ظلمات السجون والمشردون في مجاهل أفريقيا.

وقد أضافت الأقدار لي إلى محنة التشرد محنة التقيّد والارتباط بمصير السجناء المهدَّدين بالذبح فعشتُ هذه البرهة الثقيلة الطويلة مقيداً بظروفي في الخارج، وظروف الأحبة في الداخل، فكانت كل هذه العوامل تستبعدني وتشعرني بالعجز والمرارة وعندما كانت تعتورني حالات الضعف الإنساني أبادر فأسجل مشاعري على حقيقتها.

من ذلك قصيدة كنت أود أن أبعثها إلى السجناء وضاعت من يدي ولم أتذكر منها غير هذه الأبيات:

خذلتَني حتى المقادير لما
وجدتني في غمرةِ الهولِ وحدي
أتوقّى من المصارع كيلا
يتناهى إليكمُ الخطب بعدي
لم أكن بالجبان لكن هواكمُ
فوقَ بأسي وفوقَ عزّي ومجدي
كلما أُبْتُ للحِفاظِ تصدّى
لي هواكم فشلَّ كفي وحدي
****

يطلب الهمّ للحريقِ وللتعذيبِ
... مني أضعاف لحمي وجلدي
وتريد العُلى وقوداً مِن الأعصابِ
... لم تُبقِ ذرَّةً منه عندي
قد ـ لعمري ـ أفلستُ من كلّ صَبْرٍ
كنتُ أحيا به ومن كلّ جُهد
قد عصاني قلبي وجُنّتْ أحاسيسي
... وثارت نفسي مع الدهرِ ضِدّي
****

صخرة

لـي في الجوانـحِ صـخـرةٌ صـمّـاء
فـمـهـول خـطـبـك يـا زمـان هـبـاء
ولـئـن شـكـوتُ فـمـا جـزعْـتُ وإنما
لُـغَـةُ المُصـاب مَـنـاحـةٌ وبـكـاء
ومـن الخطـوبِ مـنـابـعٌ فيّاضـة
يَمْـتـاحـهـا الخطـبـاء والـشـعـراء
وإذا سـكـتّ وقـد أصـبـت فـإنما
تـلـكَ المصـيـبـة نـكـبـةٌ خـرسـاءُ
والمدنَـفـون دمـوعـهـم وشَـكـاتـهـم
تـوحـي إلـيـكَ بـأنـهـم أحـيـاء
****
مـا لـي ولـلـدنـيـا... نـزلـت فِـنـاءهـا
فـاسـتـقـبـلـتني حـربـهـا الـشّـعـواءُ
والـت عـلـى الـشـبـانِ سـوط بـلائِـهـا
لُـؤمـاً وهـم أضـيـافـهـا الـنـزلاءُ
أنّـى يـكـونُ مـع المشـيـبِ سـعـادة

إنْ كـانَ فـــي عهــدِ الشبـابِ شقــاءُ

يـــا مجــدُ إنْ لـــم تَهتَــبلـــك شبيـــبتي

فالـــمــوتُ دونَـــــكَ والحيــــاةُ ســـواءُ

****

إلى وطني

أضلّني وهمُ شعرٍ كنتُ أنْسُجُهُ
سحراً يحول قلب الصخر ألحانا
وهالَني شؤم ما استكشفتُ من جثث
قد كنتُ أحسبُها من قبل تيجانا
فرحتُ أشعل بالقيثار مقبرة
الموتى وانفض أغلالاً وأكفانا
أصبو إلى أمتي حباً وأبعثها
بعثاً وأبني ذلها بالشعر بنيانا
أصوغ للعمى منهُ أعيناً نزعت
عنهم وأنسجه للصمّ آذانا
وما حملت يراعي خالقاً بيدي
إلاّ ليصنع أجيالاً وأوطانا
يخاله الملك السفّاح مقصلة
في عنقِه ويراه الشعب ميزانا

فهاكَ يا أمّتي روحاً مدلهة
عصرتها لخطاك الطهر قربانا
كأساً من الشعر لو تُسقى الشموس بها
ترنّحت ومشى التاريخ سكرانا

****

صلاة في الجحيم

الديوان الثاني

إلى وطني

الشاعرية في روائع سحرِها
أنتَ الذي سوَّيتَها وصنعتَها
ما لي بها جُهْدٌ، فأنتَ سكبتها
بدمي وأنتَ بمهْجتي أودعتها
أنتَ الذي بشذَاكَ قدْ عطّرتَها
ونشرتَها بينَ الورى وأذعتَها
وقفت لساني في هواك غِناءها
فإذا تَغَنَّتْ في سِواكَ قطَعْتُها
يتّمتَ روحي في علاك، وصُغتها
بسناكَ، ثمَّ طردتها وفجعتها
أبعدتني عن أُمّة أنا صوتها العالي، فلو ضيّعتني ضيّعتُها
حَمّلَتني آلامَها ودموعَها
ومنعتَني عن وصلِها، ومنعتها

نـاديـتَ أشـتـاتَ الـجـراحِ بـأمَّـتـي

فـجـمـعـتَـهـا فـي أضـلـعـي وطـبـعـتَـهـا

مـا قـالَ قـومـي: آه... إلاّ جـئـتـنـي

فـكـويـتَ أحـشـائـي بـهـا ولـسـعـتـهـا

عذَّبتني وصهرتني، ليقول عنك الناس هٰذي آية أبدعتها.

****

إعلان مروع

قوَّضتُ بالقلمِ الجبّارِ مملكةً
كانت بأقطابِها مشدودةَ الطّنُب

فإنْ فَشَلْتُ ولم أنهض بدولتِنا
الكبرى لشعبي، ولم أظفَر بمطّلبي

فَسَوْفَ أبني له مجداً من الأدبِ..
العالي يُبَوّءهُ في أرْفَعِ الرُّتَبِ

ولن يكون الذي قد كانَ من حدث
مروِّعٍ غير إعلان عن الأدب[1]

في باكستان

---

(١) قال لي الأديب العربي الكبير الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري بعد أن استمع إلى هذه الأبيات:
أَلَسْتَ بهذا المعنى المتجبّر تشبه (نيرون) الذي أحرق روما ليستلهم الشعر والغناء؟...
فقلت: بلى، بيني وبينه تشابه الأضداد... إنه يحرق الشعب ليتغنّى، أما أنا فإني أحرق الطغيان، وأقدم جثته للشعب أغنية مدوّية تحترق... ومن ثم تتحول وقوداً فنياً يحرّك إرادة الشعب..

لحظات الإشراق الفني

في كوخٍ مظلمٍ قصيّ (ببهاولبور) باكستانٍ، إنطلقت روح الشاعر بهذه المعاني النشوى:

أُحِسّ بريحٍ كَريحِ الجِنانِ
تهُبّ بأَعماقِ روحي هُبوبا
وأشعُرُ أنّ القوافي تَدِب...
كالنَّمْلِ مِلءَ دماغي دَبيبا
فهذا يَزُوغ، وذاكَ يرُوغ
وذلكَ يُذعنُ لي مُستجيبا
وذاكَ يُفارقني يائساً
وهذا يواعدني أنْ يؤوبا
ومنها أصوغ حياة الشعوب
وأُذْكي على قاتِليها الحروبا

ومـنـهـا أُوزّعُ لـلـعـالـمـيـن

طُـهْـراً وأنـشُـر فـي الأرضِ طـيـبـا

ومـنـهـا أسُـودُ، ومـنـهـا أجـودُ

ومـنـهـا أُقـارعُ عـنـي الـخـطـوبـا

ومـنـهـا أُصَـوّرُ هـذا الـوجـود

وأكـشِـفُ مـنـهُ الـبـديـع الـعـجـيـبـا

ومـنـهـا الـشّـوارِدُ مـثـل الـبـروقِ

تُحيـي المَواتَ، وتَـروي الجَـديـبـا

إذا لـمَـسـت مُـهـجَـتـي لَـمْـسَـةً

تـوثّـب قـلـبـي بـصـدري وثـوبـا

ومـنـهـا الأوابـد لـم تَـسْـكُـنِ . . .

الـعـقـولَ، ولـم تـأوِ قـطّ الـقـلـوبـا

إذا نَـزَلَـتْ خـاطـري، فُـزّعَـتْ

كَـوحـشٍ يُـواجِـه مـصـراً خـصـيـبـا

ومنها المواليد تأتي الوجود
فتأبى الزوال، وتأبى المشيبا
أراها، فأحقر شأنَ الرّدى
بعيداً أتى أمْ أتاني قريباً
أُخلّفُ منها لِقاحَ النّهى
وأضْنَعُ للأرضِ منها شعوبا
وأزْهو بها راضياً مَعْجبا
بأنّي وَلَدْتُ الكثير النّجيبا
ومنها المطايا، إذا اقْتَدْتُها
فَتَحْتُ السّما، وهتكتُ الغيوبا
ومنها النّوافر، لا يستطيع
... إلاّ نبيٌ عليها ركوبا
وأكثرها مُفْلِتٌ من يدي
يَغيبُ ولا يَشْتهي أن يغيبا

حروف الرّوِيّ بها نُطْفَةٌ
تَرَغْرَعُ بيتاً عريقاً نسيبا
يُضمّخُهُ الجرحُ من مهجتي
ويخرجه من دماءٍ خَضيبا

****

وقافيةٌ تبتغي في البحورِ
... دُرّاً أصيلاً وصَيْداً جَليبا
ووزن تَحَمّلَ ثِقْلَ الجبال
... يُقسمُ في طيّه أنْ تَذوبا
ومَغْنًى يسير إلى لفظِه
ولَفْظٌ لمعناهُ يجري دَؤوبا
وكلّ لَهُ مَوْضِع مُعَلّمٌ
يَؤولُ إليهِ رشيداً لبيبا
يُسارِعُ كلّ إلى شَكْلِهِ
ويَطلُبُ كلّ ضَريبٍ ضَريبا

كـأنَّ بِـعَـقْـلـي لـهـا جَـنّـةً
يُـلاقـي بـهـا كـلّ صَـبّ حـبـيـبـا
نَـوامـيـسُ يَـسْـعـى إلـيـهـا الـكـلامُ
ويـبـغـي لـهُ مـن خـلـودٍ نَـصـيـبـا
أُسَـلّـمُ نَـفْـسـي لـهـا ذاهِـلاً
حـريـصـاً عـلـيـهـا بَـشُـوشـاً طَـروبـا
واصْـمِـتُ مُـسْـتَـمِـعـاً تـارةً
وأصْـرُخُ حـيـنـاً عَـبـوسـاً غـضـوبـا
ولـولا اهـتـدائـي لِـسـرّ الـنـبـوغِ
وأَغْـراضِـهِ، لـطـلـبـت الـطـبـيـبـا
ومـا كـانَ عَـقْـلـي أجـيـراً لـهـا
ولا كـنـتُ مـنـهـا لـكَـسْـبٍ طَـلـوبـا
ولـكـنّـهـا قَـدَرٌ غـالـبٌ
قـضـى أنْ أكـونَ فـكـنـتُ الأديـبـا

كـذاك طُـبِـعْـتُ ومَـنْ يـسـتـطـيـعُ

... من طَبْعِهِ مَؤئِلاً أوْ هـروبـا

أحـبّ الـقَـرِيـضَ وأحـيـا بـه

مع الـهـولِ طفلاً ضحوكاً لَعوبا

ورُوحُ الـطّـفـولَـةِ فـي نَـزْعَـتـي

وفَـنّـي ستـمـنَـعـنـي أنْ أشـيـبـا

وأمّـا الـبـيـاضُ عـلـى مَـفْـرِقـي

فـقـد صـار كـالـنّـاسِ لـونـاً كـذوبـا

خـذُوا كـلَّ ديـنـاكـمـو واتـركـوا

فـؤادي حـرّاً وحـيـداً غـريـبـا

فـإنـي أضـخـمـكـم دَوْلَـةً

وإنْ خِـلْـتُـمـونـي طـريـداً سـلـيـبـا

****

مولد الرسول الأعظم ﷺ

قيلت في باكستان، وأُذيعت من محطة الإذاعة الباكستانية.

السّمٰوات شَيّقات ظِماءُ
والفَضا والنّجومُ، والأضواءُ

والهُدى والأملاك والوحيِ والتنزيل والمعجزات والأنبياء والغُيوث السمحاء والوابل المدرارُ المعصراتُ والأنواء، كُلّها لوعةٌ إلى المصطفى الهادي وشوقٌ ونشوةٌ وازدهاء تَنظرُ البُقْعَةُ التي تَسطَعُ البُشرى عليها، ويهتِفُ البُشراء، والنبي الكريم يولَد في بيتٍ فقيرٍ يأوي به فقراء حملوه طفلاً. كما يُحمَل الأطفال فيهم، ويُحضن الأبناء ليس يدرونَ ما تمدّ يدُ اللهِ إليهمْ وما يُريدُ القضاء.

(يتيم)

وعجيبٌ يُسمّى يتيماً ويُدعى
وهو نجم قد أنجبتهُ السّماءُ

صَنَعَتْهُ يَدُ الإلٰه كما تُصنع في البحرِ درةٌ عصماء

واصطفتهُ لها فماذا عسى أن
تَضْنَعَ الأمهاتُ والآباء
نفحتهُ بروحِها فإذا البيد
ضُلوع تؤويه أوْ أحناء
وإذا القَفْرُ، وهو جدب، رياض
وإذا الأفق، وهو ليل، ضياء
وإذا الغابةُ المُخيفَةُ أمنٌ
وإذا الأذْؤُبُ الخَبيثةُ شاء
وإذا الكونُ بين عينيهِ سَفْر
ناطقاتٌ في كنهِهِ الأشياء
عَلّمْتَ ذلكَ اليتيمِ، فما العلم
... وما حكمه، وما الحُكَماء
مَن رأى الحق سافِراً لم تعُدْ تُجدي
... لديهِ الدَّعوى ولا الأدعياء

وذُكاءٌ تَسيرُ في الكونِ لا يهدي سراها عِلمٌ ولا علماء

إنما يطلب الأدلاّء مَن تطغى عليه جهالة جَهْلاء

(حراء)

مَنْ لقلب الظمآن من وقدِ صحراء تلظّت مِنْ حرّها الأفياء
مَنْ لأخلاق القَبيلةِ في شعبٍ غريقٍ في إثمه النبلاء
مَنْ لآمالِه الكبار. وما بين شِعابِ البَطْحاء إلاّ الهَباء
مَنْ لأهدافه. وليس وراء البيت إلاّ الصحراء والظلماء
مَنْ لإيمانِه. وقد مَلأ الكَعبة كُفْراً حرّاسُها الأغبياء
تركوا بيتَ الله يحتلّه الأعداء، والمشركونَ والشركاء
يَقْشعر التّسْبيح في حرام الله. إذا هَمْهَمَتْ بهِ الحُنفاء
مَنْ لأفكاره. وآلِهة الشعب المرجّى حجارةٌ صمّاء
مَنْ لتَشريعه الرحيم. ودين القومِ فيهم تناحُرٌ ودماء
ليس إلا الفرار بالخلق الطاهر والاعتصام والاحتماء
ليس إلا الوُلُوه في رَحْمَةِ الله وإلاّ المَلاذ والالتجاء
ليس إلا السماء للمَلَكِ الإنسان. تؤوي فؤاده أَوْ حِراء
وانتحى المصطفى إلى الجبل الصامتِ حيث القدسيةُ الشمّاء

حيث لا شاغلٌ هناكَ عن الله. ولا ضجّة، ولا ضوضاء
حيْثُ يُطوى في ذلك الصمت ما في الكون إلا الحقيقة العلياء
حيث لا نَبْأَةٌ سوى همس جبريل. ولا مُنبىء ولا أنباء
وهب الله ظلمةَ الغارِ نوراً منه تُمْحى في ضوئه الأضواء
لم تَدق مثلَهُ الشموس. ولم تحلم بلألائه النجوم الوضاء
جمع الله فيه روح السمٰوات، فأجرامهنّ منها خلاء
وارتوى الغار منه، والعرش والكرسي والكعبة الحرام ظِماء
جبلٌ في مجاهلِ البيدِ قزم
ليسَ تدري بظلِّهِ البيداء
رفعت رأسه على كلّ طودٍ
عزةٌ عَبْقريةٌ قعساء
فحوى ما حوتْ جوانح جبريل. وما أكرمت به سيناء
فَجّرَ الله في حِراء ينابيع الهُدى، وهو صخرة صمّاء
فكأنّ الغارَ البليغِ فَمُ الأقدار. منهُ الإفضاء والإيحاء
وكأنَّ النبي فيهِ لسانُ الكونِ. يَحْكي عن روحِهِ ما تشاء

(إشراق النبوَّة)

وانْطوى المصطفى وحيداً، فقد قصّر عنه الخِلاّن والنّدماءُ

وهو نجم، ما أنجبت مثلَه الأرضُ، ولا آدمُ ولا حواء

وتسامت به الخلافةُ للهِ. فهانت في عزمه الأقوياء

الثّرى كلّه لهُ. والمحيطات به والرياحُ والأجواء

وبنو آدم بنوهُ سواء فيهمُ الأولياءُ والأعداء

نَبَضَتْ في طموحهِ قوةُ اللهِ، فخفَّ الثّرى وهانَ الفضاء

وتدانى البعيد، وانفرجَ الهمّ، وذلَت عقابه الكأداء

وانبرى ضارعاً إلى اللهِ يرجو أن يتمّ المُنى به والرجاء

عاكِفاً في حِراء، لا العيش يُصبيه ولا صَحْبُه ولا العُشْراء

ملأ اللهُ قلبه، فالورى لَغْوٌ سراب، والعالمون هباء

فإذا جبرائيلُ يبدو كما تبدو الأماني، ويُستجابُ الدعاء

حاملاً ما تنوء عن حمله شمس الضحى والكواكب الزَّهْراء

كلمات الإلٰه... فيها من اللهِ بقاء وقوة ومضاء

وبآياتها النظام الذي قامت به الأرض واستنارت ذكاء

وبها روح الخَلقِ يُصنعُ فيها كل مجْدٍ، ويخلق العظماء

تلمس القبر لمْسَةً فإذا المَيّت حيٌّ تصبو لهُ الأحياء

هي بَعْثُ الأرواح من قبل يوم البعث وهي الحياة والأحياء

لو وعاها حِراء لاندكّ أو ذاب وذابت من حوله الصحراء

ليس إلاّ فؤاد أحمد يؤويها، وإلاّ الملائك الأصفياء

غَطّهُ جِبْرائيلُ فارتاع لمّا ظنّ أنَّ الذي به إغماء

إنها صدمة يربّى بها قلبُ نبيٍّ ومحنةٌ وابتلاء

شرفٌ لا تناله لَذَّةٌ عميا، ولا راحةٌ ولا نعماء

ليست المُلكَ تُستعار الأكاذيب له والطبول والأسماء

ليست العرسَ تُسْتَجادُ الأزاهير لهُ والشموع والنّدماء

إنها مِحْنَةُ الورى وقضايا الكون والمُعضلات والأعباء

حَمّلَتْها ضلوعُ جبريل ساعاتٍ فناءت ومسّها الإعياء

واحتواها قلبُ النبيُّ، فما ضجَّ ولا نالَ من قواهُ العناء

(صوت الله)

قيل: إقرأ وحْيَ السّماء، وهذا جِبرائيلٌ وهذه الأسماء
إنَّكَ المصطفى الذي اختارهُ اللهُ لتُجلى بوجهه الظّلماء
قم، فهذا الظلام قد ضجَّ من ذعرٍ، وضجّت أرجاؤه العمياء
قم، فإنَّ الدنيا وراءك تدعوك لها، والشقاء والأشقياء
قم، فإنَّ الأصنامَ تحتَلُّ بيتَ اللَّهِ والمشركون والشركاء
ضجّت الأرضُ والسماء، فما استيقظ عقلٌ ولا صحا عُقلاء
أوشكَتْ هذه الكواكبُ تَنقضُّ جحيماً، أو يعتريها إنطفاء
جَمَعت ضوءها فكان فؤاداً لكَ فَذّاً بنوره يُستَضاء
ستلاقي الأذى من الناسِ والبلوى وتصميك منهم الأرزاء
فاصطبر إنما النبوةُ صبرٌ واحتمال وحُرقةٌ واصطلاء
سوف يعطونك الجزيل وما هُمْ أصدقاءُ ولا هُمُ أسْخياء
إنّ هٰذي الدنيا أمامَكَ فاحذر
سمّها فهيَ حيّة رقطاء

لا تبغْ سؤدَدَ السّماءِ فما في
مَنْطِقِ الربحِ أنْ تُباعَ السّماء
أنتَ للدهر والخلود،
فما العمر وما التضحيات والإفتداء
أنتَ للخَلقِ أجمعين، فلا تأس إذا فات حَظّكَ الأقرباء
في يديك النجوم زُهراً، فما الصفراء إن حزْتها وما البيضاء
إبْتَسِمْ كُلّما رأيتَ عُتُوّاً
مِنْ قُريشٍ فإنّهُم أغبِياء
بين ألبابهم وبين السّمٰوات مَدًى لا يحدّه الانتهاء
فاحْتمِلْ منهُمُ الأذى وتَلَطّفْ
أنتَ طِبٌ لجهلِهِمْ وشِفَاء
أنتَ كنزُ السّما وأنتَ الإشاراتُ إليها والرّمْزُ والإيماء
أنتَ ما يَحلَمُ الفلاسفةُ الأفذاذ فيهِ ويعشقُ الحُكَماء
كلّ نفسٍ لها إليكَ اشتياقٌ
كلّ فضلٍ لَهُ إليكَ انتماء
وانذر فالشر قد طبّق الأرض وعل الظلام والأرجاء
واستلم موكب الخليقة، أنتَ النّجم في ليلِها، وأنتَ اللواء

القسم الأول

ننشر في هذا القسم مختارات من المراحل الأولى لشعر صاحب الديوان.
وقد آثرنا أن نثبت بعض نماذج من قصائده على علاّتها وهي تصوّر بعض ملامح من المستوى الفني والفكري للشاعر وللجيل الناشيء الذي كان يعيش فيه يومئذ.

في سبيل فلسطين

«أُذيعَت من إذاعة (برلين) للإذاعة العربية، في أوائل الحرب العالمية الثانية، تعليقاً على اجتماع الدول العربية في لندن وعلى الكتاب الأبيض الذي أصدره الإنجليز عن قضية فلسطين».

مراجلٌ في أثيرِ الشّعرِ تَضطرمُ
وصيحةٌ في سَماءِ الحقِّ تحتدمُ

وضجَّةٌ في صِماخِ الدَّهرِ صاخبةٌ
لها بكلّ بلادٍ مسمعٌ وفمُ

نزعتها عن شؤون ملؤها عِبَرٌ
وصُغْتُها، عن ضمير ملؤه ألم

وللفؤادِ أحاسيس إذا نَبَضَتْ
جاشَتْ بها الأرضُ وانجابَتْ بها الظلَم

ما للحقائق أضْحَتْ لا تُلاحِظُها
عَيْنٌ ولا يأتلي عن سبقها الوهَم

ما للدماء التي تجري بساحتِنَا
هانت، فما قامَ في إنْصافِنا حَكَم
ما للظّلومِ الذي اشْتَدّت ضَرَاوَتَهُ
في ظلمنا، نتلقاه فنبتسم
نَرى مَخالِبَهُ من جُرحِ أُمّتِنا
تدمي، ونسعى إليهِ اليوم نَختصِم
****
يا قادةَ العربِ والإسلامِ قاطبةً
قوموا فقد طالَ بعد الصبحِ نومكُمُ
شِيْدوا لنا في سموات العُلى حَرَماً
نَطوفُ حَوْلَ ثُرَيّاهُ ونَسْتَلِم
متى يَرى الإنْكليزيونَ ذمتنا
كَذِمّةٍ، حَقّها تُرعى وتُحترم
حتى متى نَشْتكي منهم ونسألهُم
رَفْع العذابِ، فما رقّوا ولا رَحِموا

هـمْ يُـدرِكـونَ بـأنّـا خـاضـعـونَ لـهـم
مِن ذُلّنا، رَغْم ما جارُوا وما ظلَموا

لا نَـسْـتَـحِـقُّ حـيـاةً غـيـر مـا وَهَـبـوا
ولا نَـنـالُ حـقـوقـاً دونَ مـا حـكـمـوا

لـهـم عـلـيـنـا قـوانـيـنٌ، ولـيـسَ لـنـا
إلاّ الـرضـوخ لـمـا قـالـوا ومـا الـتَـزَمُـوا

يـا لـلـضّـلالِ، ولـلأوهـامِ إذ هَـدَمـت
مـنَ الـعـقـولِ بـنـاءً لـيـس يـنـهـدم

أنّـى يُـضَـيّـعُ حـقّ دونـهُ أُمَـم
أبِـيّـة، ديـنـهـا الإقْـدامُ والـشّـمـم

وكيفَ نَخشى الرَّدى والموتُ شِيمَتُنا
ونـحـنُ قَـوْمٌ عـلـى الآجـالِ نَـزْدَحِـمُ

إذا تَـنـاسـى الأعـادي هَـوْلَ نـجـدَتِـنـا
جِـئـنـاهُـمُ بـقـلـوبٍ مـلـؤهـا نِـقَـم

ولـلـعـروبَـةِ أهـدافٌ مـقـدّسَـةٌ
تَقْضِي السّماءُ بها واللّوحُ والقَلَم

وَوَثْـبَـةٌ حُـرَّةٌ عُـلـيّـا تـؤيـدهـا
مَـشـيـئَـةُ الـلَّـهِ والأقْـدار والـقِـسَـمُ

وأنْـفُـسٌ إنْ تَـزِدْ هَـمّاً تَـزِدْ هِـمَـماً
وإنْ تَـذْق ألـماً، يَـنْـهـضْ بـهـا الألـم

****

فـيـا بـريـطـانـيـا عـودي بـمـخْـمَـصـةٍ
إنَّ الـعـروبَـةَ لا شـاءُ ولا نَـعَـم

إنَّ الـعـروبَـةَ جـسـمٌ إن يَـئـن بـه
عـضـوٌ تـداعَـتْ لـهُ الأعـضـاءُ تـنـتـقِـمُ

إنْ يُـضـطَـهَـدْ بَـعْـضُـهُ فـالـكـلّ مُـضْـطَـهَـدٌ
أو يُـهـتَـضَـمْ جُـزْؤُه فـالـكـلّ مُـهْـتَـضَـمُ

أتُـخْـرِجُـونَ كـمـاةَ الـعُـرْبِ ويـحـكُـم
مـن أرضـهـم وهُـمُ الأبـطـال والـبـهُـم

أتَـشْـتَـرُونَـهُـمْ أنْـتُـمْ وهُـمْ نَـفَـرٌ
بـاعـوا نـفـوسـهـمُ لـلَّـهِ واعـتـصـمـوا

كَمْ من دمٍ قد سفكتم من دمائهُمُ
فما استهانوا ولا ذلّوا ولا ندِموا
وتَخْطبُونَ على هذا صداقَتَهم
حتى كأنْ ليسَ فيهمْ عاقلٌ فَهِمُ
هل من صداقتكم للعُربِ أنّكُمُ
تُمزِّقون بِمخْضِ الغَدْرِ عهدَهُمُ
هَلْ من حفاوتكم بالعُرْبِ أنّكُمُ
تُسْتَعْذِبونَ بلا ذنب عذابهُمُ؟
هَيْهات ضلّت عقول تبتغي مِقَةً
مِنكم، وقد جرَّعَتْها الموتَ كفكمُ
إنَّ الكتاب جُدتُمْ به ثمناً
لأرضهمْ ليسَ يَكْفيهم إذا اقْتَسموا
لم يَحْسبوهُ سوى أكفانِ عِزَّتهم
نَسَجْتُمُوهُ لهُمْ ظُلْماً وإنْ رَغِموا
إنَّ الدماءَ التي سالت بِمُديَتكم
لم يشفها منكم القرطاسُ والقلمُ

زخارف من خداع الوعد خاوية

ما نال فيها المُنى إلاّ انتدابكم

وكيف نرجو انتصافاً في محاكمة

وقد تمالأ فيها الخصمُ والحَكَمُ

أينَ العَدالةُ يا أعداءَ مبدئها

منكُمْ إذا كانَ غمط الحقّ دابكم

إنَّ الخداع الذي دانت سياستكم

به لأعظم ما تَشْقَى بهِ الأمم

ظلَمْتُمْ العُرْبَ - للصهيون - ويْحكمُ

أينَ الدهاءُ وأينَ العدلُ؟ والشِّيَمُ

أضحى اليَهودُ صليباً تعبدونهمُ

دونَ الصَّليبِ وإنْ كانوا العبيد هُمُ

فلا برِحْتُم عبيداً لليهود ولا

زالت سياستكمْ بالذّلّ تنهدِمُ

****

تحية إلى السيد رضا الشبيبي

كان السيد رضا الشبيبي وزير معارف العراق الأسبق قد أهدى إلى كلية دار العلوم بالقاهرة ديوانه الشهير فاقترحت هيئة الدار على شعرائها من الطلبة المشتركين في أسرة الشعر أن يقدِّموا إليها ما تجود به قرائحهم حول هذه الهدية الأدبية.

وكنتُ إذ ذاك طالباً في هذه الدار فأدليت بدلوي في الدلاء وكتبتُ هذه القصيدة عام ١٩٤٠ .

ـعْـجِـزٌ أن تُـهـدى لـنـا الـمـعـجـزات

وهـي مـن نـفـحـة الـسـمـاء هـبـات

ـنحةُ العقلِ للعقولِ، وما أعظمَ ما تنفَع العقولَ الصِلاتُ

ـيتَ شعري ما ضمّه ذلك السِّفرُ، أشِعْر أم غرَّد غانيات

ـتـلاعَـبْـنَ بـالـعـقـولِ، فـأمـا

صَـرْخَـةٌ تـسـتَـفِـزُّ أو نـغَـمَـات

ـتَـنَـزَّى، مـنَ الـحـمـاسِ سـعـيـراً

وهـي فـي أيـنِ الـنُّـهـى جَـنَّـات

راميات بأسهم العقلِ، والفنّ، وللشعر أسهمٌ قاتِلات
قائلاتِ، كما يلقّنها اللّه، وللّه في الحجى كلمات
جُدت يا بن الفرات، بالسائغ العذب، وللنحلِ من أبيه صفات
فاض في مصرَ من نبوغكَ بحْرٌ
فالتقى النيلُ عنده والفرات
وكأنّ العراق زُفّ إلى مصرَ وفيه من الجَلالِ سِمات
خَلَّد اللّهُ فيك، يا واهب الشعر شعوراً، تَفيض منه الحياة
قد تحمَلْت في ضميرِكِ شَعباً
وَمَمَتهُ عنك القوافي الحماة
تَتَحَدّى العدا، بقلب كميّ
أنْجَبَتْهُ كما تَشاءُ الكُماة
ودَعا للْكِفاحِ، والموت والنبْل، وللموت في الأنام دعاة
أفْرِغَتْ في يراعه صبورُ النفس، فجاءت، وكلّها رائعات
وانبرى، يَسحر العقول كما يهوى، وتهوى فنونه الساحرات
وإذا بالعراق يبرز في الشعر، وتبْدُ أفاقُه المُشْرقات

وإذا بَغْدادَ به آيُ فنٌ
عبقري، وقادةٌ، ودهاة

وإذا الشّعْر شامخٌ، تتراءى
في تفاعيله الدّنا الشامخات

صفّقي يا عروبة النّيل، هذا
موكب، صفّقت له الحادثات

واطمئني، على العروبة، إذ هبّت وهبّت أدابُها العاصفات

واعلمي، إنما العروبةُ نارٌ
أجّجَتْها آمالها الثائرات

واشمخريّ (دار العلوم فقد أُهديتِ شعباً تضمّه صفحات

مصر أختُ العراق في وحدةِ الآمالِ، والنّيل والفرات لدات

وبنو يعرب وأن قدُمَ العهدُ فَفِيهِم مطامِحُ خالدات

وإذا ما عَفَت معالمُ قَوم
فلهمْ مِنْ نُبوغهم ذِكْرَيات

****

يا قلوباً، توهّجت بسناها
أُمَمٌ وأنجلتْ بها معضلات
مَشْرِقُ النورِ، لا كما يزعم
الغرب، ولا ما تقوله الجهلات
إرجعي ذلك الضياءَ إلى الأرض
فَقَد أطبَقَت بها الظلمات
وأعيدي إلى الورى ذلك
النّهجَ، فقد رَوَّعَتْهُم العثرات

****

جماعة الطلبة العرب

أُلقيت في حفل من الطلاب العرب بالقناطر الخيرية سنة ١٩٤٠ منوِّهة ومبشِّرة بتأسيس جماعة الطلبة العرب.

بُشراكَ يا قلمي، فهذا مَنهَلٌ
صافٍ وأنت كما علّمتُك صادي
هذي العروبة تَلتَقي فَتَلَقَّها
بتحيّةِ الأحبابِ في الأعيادِ
وأعرض بَنات الشّعرِ في أبرادِها
أو فاغْفِها مِن سُدْفةِ الأبرادَ
واخلعْ عَلَيها من سناك أشعّةً
تَنسابُ في الأرواحِ والأجساد
واستنهضِ الأمالَ تبنِ عُروشها
للمجدِ، من شُيانها الآساد

جَمْع سَتَغْمره القلوب بوحيِها
فَيَظلُّ أوْجَ هُدىً وفيضَ رشاد

وَسَيَجْتَني التاريخُ من ثمراتِه
زمَراً من الأبطال، والأمجاد

نَسَجَتْهُ أحلام الشّباب تفاؤلاً
فإذا التفاؤلُ صادق الميعاد

وإذا الشبابَ يَتيهُ من إيمانه
تِيهَ المدلّ بثروَةِ الأجْداد

أهلاً بروحِكَ يا وِئام، ومَرحبا
بك يا عُروبة، كلّنا لكِ فادي

سَنُعِدّ أفئدَةً لحبّكِ ترتضي
مثواكِ في الأحشاءِ والأكباد

ونسجّل الإخلاص فيما نرتأي
أو ما يقول مُناصِحٌ ومُنادي

****

طالَ الفراق، وطال منه شَقاؤنا
في حَمْأةِ الأضْغَانِ، والأحقادِ
وتناست الدنيا رَوائِعَ مجْدِنا
في سالف الأحْقابِ والآباد
إنْ لم نَزِد فيه طريفاً مُعجَباً
فلقد أضعْنا منهُ كل تِلاد
عشنا كما شاء العدوّ مَعاشَنا
وكما أرادَ فكانَ شرَّ مُراد
عَدَدٌ عديد غير أنَّ أُلوفَنا
لا تَرْتَقي عن رُتبةِ الآحاد
وتَكادُ تَأبى العدَّ لو رُمنا لها
جَمْعاً، كشأنِ الجمعِ في الأعدادِ
نُمنا ولم نَفْزَعْ لأهوالِ الرّؤى
والحادِثات رَوائِحٌ وغوادي

وطِئَتْ مَضاجِعَنا الخطوبُ فلَمْ يُثِر
طغيانها إلاّ حَراكَ رُقاد
تَتَزَلْزَل الدُّنيا، ويُقسم شلْوُها
نَهْباً ولَمْ نطمَحْ لبُلغَةِ زاد
ومتى ينالُ الغنم مَن هو عُرضة
للسّلْبِ منتظرٌ يدَ الجَلاّدِ
ونَذِلّ للغرب الغَويّ بعلمِهِ
حتى ولو أضحى دفين رمادِ
شقِيَتْ حضارتُه، وأصبحَ أمْرُه
ما بين نارِ وغًى، وَوَهمِ حياد
وإذا تَنَكَّبَتِ الشعوب عن الهُدى
فالعقلُ خطبٌ والعلومُ عوادي
فلنرتَقِبْ للحَرْبِ قبلَ قرارها
فينا وقبلَ تضامنِ الأضدادِ

إنْ التيقّظ ليسَ يُجدي أهلهُ
بعد التورّطِ في يدِ الصيّادِ

وأقلُّ جُهْدٍ منْ سُلالة يَعرُبِ
أن يشرحوا للناسِ معنى الضَّادِ

ولْيَبْرُزِ الحِلْفُ المقدس[١] مائلاً
للعصر، لا ذخراً ليومِ معادِ

راقَتْ مَخايِلُهُ فلما إنْ دَنَتْ
حسرَتْ لنا عن خَلّبٍ مِرْعادِ

لقد اكتفوا منه بعهدٍ يراعة
وولاء قرطاس وحلف مداد

لا ينفع الجُرحَ الخطيرَ ستارةُ
ما دامَ ذاكَ السّترُ فوقَ فسادِ

(١) هو الحلف العربي، الذي انعقد في بغداد في ٢٤ ابريل سنة ١٩٣٦ بين السعودية والعراق، ورحّبت به البلاد العربية وانضمت إليه اليمن في مارس ١٩٣٧، ولكنه ظل وهماً في عداد الأوهام كغيره.

إنَّ الضَّمادَ على فسادِ جِراحِنا
أنكى لنا من خِنْجَرِ الجلاّدِ

أوَلم يروا أنّا نحاولُ وحْدةً
عَرَبيّةً علياءَ ذاتَ عِمادِ

لن ينجح الزعماء في تأليفها
حتى تُؤيدهم يدُ الأفرادِ

ويساهمُ الأدبُ الرفيعُ فإنّهُ
نِعْمَ المنارُ لنا ونِعْمَ الهادي

فإذا صببنا فيهِ فيض قلوبِنا
جاءت مَغَارِسُهُ بخيرِ حِصادِ

وإذا صدقنا الحقّ في أثنائِهِ
سَهُلَتْ طَرائِقُهُ على الرُّوَّادِ

****

ولكم نرى أدب الشباب مُداجياً
يبدو على خوفٍ مِنَ الأرْصادِ

فمقالةٌ مذعورةٌ وقصيدةٌ
مُصغَرة الأوزانِ والأوْتادِ
ومسبّحٌ بالظلمِ يَعْبُد ظالماً
فَيُعَدّ في النُّسَّاكِ والعُبَّادِ
ومُشَيّبٌ يهوى ويخدعُهُ الهوى
والدَّهرُ يَنْسُجُ منه يومَ حداد
ومُغالِطٌ يُغْضي لمَقْتَلِ أُمّةٍ
ويقولُ فيها: أُمَّتي وبلادي
لُغَةٌ تَنِمّ عن السجونِ كأنّما
نَفَحَتْ من الأغلالِ والأصفادِ
حلّوا القيودَ عن الضميرِ فلم يكُنْ
مَثْوى الضميرِ الحيّ في الأقْيادِ
ولقَدْ نَزعْتُ من الضميرِ قصيدةً
هي صوتُ إيماني، وصكُّ جهادي

لـو يـصـبَـغُ الإنـشـادُ لـونَ خَـديـعَـةٍ
لأنِـفْـتُ عن نَـغَـمـي وعَـن إنـشـادي

لـو خـالـطَ الأنـفـاس شـوبُ تـمـلّـقٍ
لـحَـبَـسْـتُ أنـفـاسـي عَـنِ الـتَّـرْدادِ

تسعى القوافي لي فلا أَخْني لها
قَـلـمـا إذا جـاءت بـدونِ مُـرادِ

وأكـادُ أرفُـضـهـا إذا لـم تـكُـنْ
نـزلَـتْ إلـيَّ عـلـى روِيِّ فـؤادي

****

أين الغد؟

أيُّها الطّرْفُ المُسَهَّدْ
نَمْ فإنَّ الليلَ سَرْمَدْ
ويحَ قلبي ما لهُ إنْ
هَجَعَ النّاسُ تَوقَّد
طالَ هذا الليل حتى
ضَجَّ منه كلّ مَرقد
بتُّ والعالمُ غافٍ
أسألُ الأفْلاكَ عَنْ غَدْ
شِبْتُ وابْيَضَّ عذاري
والفضا ما زالَ أسود
كم أُراعي الصبحَ، والصبحُ وراء الكون مُقعَد
كم أُنادي الفجر والفجرُ بَطيءُ الخطو أبلد
يتمشّى بين أذيالِ الدّجى مَشيَ المقيّد
مَنْ لروحٍ يَتَلَظّى
مَنْ لِقلْبٍ يتوقّد

مَــنْ لــصــبّ كــادَ يُــدمَــى
صــدره لما تــنــهّــد
مَــنْ لأكْــبــادِ أراهــا
بــينَ أنــفــاســي تُــبَــدَّد
أتَــنَــزَّى من شــكــايــاتــي، وَوَجْــدي، عــنــد جَــلــمــد
أرســلُ الــزَّفْــرَةَ مــن صــدري. فــتَــخْــتــارُ وتــرتــد
إنــهــا سَــهْــمٌ مِــنَ الــقــلــبِ إلــى الــقــلــبِ يُــسَــدَّد
أدمُــعــي تــغــلــي كــأنَّ الــجَــفْــن قِــدرٌ يــتــوقَّــد
مُــهْــجَــتــي تَــفْــنــى وتَــبْــلــى
وغَــرامــي يــتــجــدَّد

****

طاقة تياهة

أقلعي يا سماءِ عن الوحي، حسبُ الأرض ما في آيي وفي بيناتي

في فؤادي ما في رحابك من طهرٍ ووحيٍ وأنجمٍ نيّراتِ

أنَـا آلَـيْـت أنْ أُحـطِّـمَ رأســي

بيدي. . . إنْ لَمْ يَأتِ بالمعجزاتِ

****

في عنفوان النشوة الفتية

لقد جئتُ بالشِّعرِ الذي أنا شاعرهُ
وأوَّلـه فـي الـعـالـمـيـنَ، وآخـره
فمَن شاءَ أنْ يمشي معي فسأنتضي
جَـنـاحـي لـه يـسـمـو بـهِ ويُـؤازِره
فإنْ بَرَّ بي فالجوّ عرشي وعرشُه
وإنْ حادَ عنّي، فالفضاءُ مَقابره
****

إبر النحل

الـدرّ فـي نـورِه الـوهّـاجِ والـحـجـرُ
سيّان إن حُكّمَتْ في نَقدِهِ البقرُ
وما يـضُـرّ القَـوافـي حيـنَ تُـنشِـدُهـا
أنْ ليسَ ترقص من ألحانِها الحمُر
وكـيـف يُـهْـدى بـشـعـرٍ أو بـقـافـيـةٍ
مَنْ ليسَ يَهْديهِ لا سمعٌ ولا بصَرُ
يا مَن يضيقُ من الأقدارِ، مُت كمداً
فليسَ يشفيكَ لا سُخْف لا هَذَر
إنْ كـنـتَ تـطـلـب مـن أقـلامـنـا إبـراً
يُهْدي إليك، فهذا الوخزُ والإبَرُ
كالنحلِ، في فمِها عسلٌ تجودُ بهِ
وسُمّها من وراءِ الشَّهْدِ مُدَّخرُ

****

نبات خائن

حصدتُ الشوكَ من شَجَرٍ
غَرَستُ جذورَه بِيَدي
فأدماني، وأوْجَعَني
ومَزَّقَ وخْزُهُ جَسَدي
لقدْ روّيته ماءً
فما سوّاه مِن أوَد
ولا حقَنَ الجميلُ دمي
لديهِ، ولا حَمى كَبِدي
أنا المسؤولُ عنْ المي
بما ضيّعْتُ من رشَدي

****

مصرع الضمير

حينما قدمتُ إلى اليمن من مصر حوالي عام ١٩٤١، انهالت عليَّ نصائح الأصدقاء والأقرباء، بأن ألزم الصمت، والخمول، وأغضّ الطرف عن كل ما أراه من شرور، وأعكف في عقر داري.. ولا أتحرك منه إلاّ إلى «المقام الشريف» أو أنصار المقام الشريف وقيل لي: إذا أردتَ أن تعيش سعيداً مع أهلك وأن تنال المرتب والوظيفة فلا بد أن تتبع هذه التعاليم. أما إذا رفضت هذه التعاليم فلا تنتظر غير بلايا ورزايا ومحناً متلاحقة. وقد حذّروني أشد التحذير من أن ألقي خطبة أو محاضرة أو أجتمع بأي فرد مستنير، وفي هذا الجو المكفهرّ جاشت نفسي بهذه القصيدة:

مُتْ في ظُلوعِكَ يا ضمير
واذْفُنْ حياتَك في الصدور
إيّاكَ والإحْساسَ فالدنيا العَريضة للصخور

لا تطمئِن إلى العدالةِ، فهي بُهْتانٌ وزور

لا تُنسَبَنَّ إلى الثقافةِ. فهي داعيةُ الثبور
حَطِّمْ دماغَكَ إنّهُ
شَرّ برأسِكَ مستطير

مــزِّقْ فــؤادكَ إنَّــهُ
يُــؤذي الخــليفــةَ والأمــيــر
لا تَنْطِقَنَّ الحَقَّ. فهو خرافَةُ العصرِ الغرير
لا تنتصر للشّعب. إنْ الشّعبَ مخلوقٌ حقير
لا تَطمحَنَّ فلستَ أكثرَ في الحياةِ من الحمير
لن تَرتَدي غيرَ اللّجامِ. ولَن تذوقَ سِوى الشعير
واحذَر تصدِّق رؤية العينين. أو نَبْضَ الشعور
فإذا نظرتَ دجًى. فأعلن أنّه الصبح المنير
وإذا ترى الشيطان عربيداً فقُلْ ملك طهور
فالنُّصْحُ من شؤمِ الفضولِ. . . ومِنْ أضاليل الغرور

****

آهٍ. . . لِــمــصــرعِ أُمــةٍ
دُفِـنَـتْ. ومـا بَـرِحَـت تـسـيـر!
كانت أسودَ الغابِ. وهي اليوم دودٌ في القبور
لم تَستَرِحْ من رعب دَيجورٍ. ولا مِنْ عِبءِ نير
يخشى التّنَفّس في هواه. والتَحرك وسْطَ نور
فخذوهُ في سجن البغاة. فإنّهُ شؤمٌ خطير

واعنوا به قبل اللصوص وقبل أرباب الفجور
أَيقوم يُنْهي النّاسَ عند خليفة اللهِ الكبير
إنَّ الإمامَةَ عضْمَةٌ
عُظمى تَجِلّ عن التكير
والأمر بالمعروفِ كُفْرٌ بالمليك وبالوزيرِ
لا تتركوا قَلماً يُسَطِّرُ. أو دماغاً يستنير
لا تأمنوا العَقْلَ المُفكِّر، فهو خوّانٌ كفور
لا تنشروا العرفان، إلاّ في المبادىء والقشور
فالعِلمُ يَكْتَشِفُ الزوايا والخبَايا والسُتور
ودَعُوا لنا شَعبٌ نُحَنِّطُه بأوهامِ العُصور
ونُذيقَهُ نوماً يَغِطّ بهِ إلى يوم النُّشور
****

إلى الشهيد الموشكي

على أثر خلاصي من سجن (الأهنوم) واتجاهي إلى تعز بين عامي ٦١ و٦٢ هـ، كتب إليَّ الشهيد الخالد السيد زيد بن علي الموشكي قصيدة يحييني فيها، فأجبته بهذه القصيدة:

أمُزنة الخُلد، أمْ رَشْحَ العناقيد
أمْ كوثر من ثنايا الخُرَّد الخُود

أمْ جَوْهَر من كُنوزِ العقْلِ مختلف
لمّاعُهُ بين معشوقٍ، ومَعبود

أمْ نفحةٌ مِن سماءِ الوحيِ مُنْزَلَةٌ
على يراعٍ مِنَ الإلهامِ مقدور

أمْ عِقْد دُرٍّ مِن الأفكارِ مُنْتَظمٌ
سِلكاً إلى سُبُحاتِ الغَيْبِ ممدود

تَعانقَت حولَهُ الألفاظ واتّسَقَتْ
كأنّها زَرَدٌ من نسجِ داوود

وألبستها معانٍ لم تكن خُلِقَتْ
إلاّ لها بمقاييسٍ وتحديد
لفظٌ تَولدَ من معنًى، وأولَده
كلاهما والدٌ يُعْزى لمولودِ
وأشْرَقَت فيهِ أفكار، وأخيَلَةٌ
كلٌّ يَفيضُ بنورٍ غيرِ معهودِ
طَفِقْتُ أَلْمحُ من أبياتِهِ عَجَباً
كأنَّني ناظرٌ في صَرْحِ نمرُود
يا بن الأشاوِسِ، أهلاً بالنبوغِ، فقدْ
ظفِرْتَ منه بِوَرْدٍ غيرِ مورودِ
ما زِلْتَ تَمتاحُ منه كل رائعة
وتستقلّ بإبداعٍ وتجديد
لقَدْ هُدِيْتَ سبيلاً طالما عمِيَتْ
عنها قلوب، أُصيبَتْ بالتّقاليد

ظنوا البديعَ جمالَ الشعرِ، فاندفَعوا

إليهِ، من كلِّ ألغازٍ، وتَعقيد

تفاخروا، وتباهوا أنهم سلكوا

جوفَ الشِّعَابِ، وآنافَ الصياخيد

كم بينِ مَنْ سارَ صبحاً في محجَّتِهِ

وبينَ خابِطِ ليلٍ في أخاديد

وهكذا دفنوا التجديد في حُفَرٍ

من البديعِ، كقبرٍ غيرِ ملحودِ

هناكَ لو جِئتَها، ألْفَيتَ طَيَّتَها

كَم مِن نبوغٍ قَصير العمر موؤود

وليسَ يُجْدي دفيناً، أنَّ حُفْرَتَه

مُزدانةٌ طَفَحَتْ بالعطرِ، والعود

****

تبارَكَ الله، هذا النبلُ مُلتَمعٌ

على جبينِكَ لَمْعَ الحُسْنِ في الغِيْدِ

تكادُ تطمع كفي في تناولِه
نهْياً، كما تنهب الألماس من جيد
أقررت عينيك بالعلياء مبتهجاً
بها، وغيرك في همّ، وتسهيد
لذاكَ نلقاكَ طولَ الدهرِ مبتسماً
كأنَّ ثغركَ مشتَقٌّ مِنَ العيدِ
كأنَّ مِقْولَكَ الخلاّبَ كاهنُه
مفتاحُ غيبٍ عن الأفهامِ موصود
كأنَّما هو ينبوعٌ يفيضُ لنا
عن عالمٍ غيرِ محسوسٍ ومشهودِ
كأنما أنتَ إذ تُصغي إلى قَلَمٍ
موسى يراقبُ وحيَ اللهِ من عودِ
وصفتَ شِعري، فازدانَتْ غلائلُه
وكانَ يخجلُ من أذْيالِهِ السّود

وهكذا الفطرة العَلياء إذا التمَعَتْ
يشعُّ في صفحتِها كل موجود
أشكو إليك زماناً ملؤه حَنَقٌ
يَغْلي مصائبَ لَمْ تُطْفأ بتَبريدِ
ما زالَ يُرهِقُني من لؤمٍ فطنته
في كلٍّ يومٍ بتعذيبٍ وتشريد
فما يقابلني إلاّ بمعركةٍ
ولا يحدِّثُني إلا بتهديدِ
ولا أزالُ أرى ألوانَ محنتِهِ
مَعَجّلَ الشرّ مَمْطولَ المواعيد
أما سجيناً، عن الأكوان منقطعاً
أو تائه الكورِ من بيدٍ إلى بيدِ
وهكذا، لم يزَل دهري يطاردني
إلى الحجاز، إلى مصرَ إلى (ميدي)

****

يا قلبُ، لا تأسَ مما ذقتَه جزَعاً

فأيّ قلبٍ أبى غيرُ مكدودِ؟

عهدُ الشبابِ عناءٌ للضنين بهِ

لأنهُ عهْدُ بنيانٍ، وتشييدِ

يلهو بهِ كل مَن في نفسهِ سَفَهٌ

مِنْهُ، وينصبُ فيهِ كل مجْدودِ

وللشبابِ فؤادٌ لا يزالُ بهِ

يَهيمُ بالمجدِ أو يصبو إلى الغيدِ

لا تأسَ حين ترى الشبّانَ في ولَهٍ

بالكأسِ والطأسِ، والأوتارِ، والعودِ

قد ضَلَّ واللّهِ مَنْ كانَتْ شَبيبتُه

طَيْفاً من اللّهوِ في أجفانِ عِربِيدِ

****

الخروج من اليمن... السجن الكبير

أول قصيدة بعد هجرتنا إلى عدن.

خرجنا من السجنِ شمَّ الأنوفِ
كما تخرجُ الأُسْدُ مِن غابِها
نمرّ على شَفَراتِ السيوفِ
ونأتي المَنيَّةَ مِن بابِها
ونَأبَى الحياةَ إذا دُنِّسَتْ
بِعَسْفِ الطّغاةِ وإرهابِها
ونَحْتَقِرُ الحادِثاتِ الكِبار
إذا اعترضَتْنَا بأتعابِها
ونعلمُ أن القضا واقِعٌ
وأنَّ الأمورَ بأسبابِها
سَتَعْلمُ أُمَتنا أنّنا
ركِبنا الخطوبَ حناناً بها
فإن نحنُ فُزْنا فيا طالما
تَذِلّ الصّعابُ لطُلاّبِها

وإِنْ نَلْقَ حَتْفاً فيا حَبَّذا
المَنايا تَجِيءُ لخُطّابِها
****
أنِفْنَا الإقامَةَ في عُصْبَةٍ
تُداسُ بأقْدامِ أربابِها
وسِرْنا لنُفْلِتَ من خِزْيِها
كِراماً ونَخْلُصَ من عابِها
وكَمْ حَيّةٍ تَنْطَوي حَوْلنا
فَنَنْسَلُّ مِنْ بينِ أنْيابِها
ويَا رُبَّ مَمْلَكةٍ كنتُ قد
لَهَوْتُ بها وبأصحابِها[1]
تَظُنُّ السماواتِ تَعْنو لها
وتَجْثو خُشُوعاً لأحسابها
وأنَّ النبوءة إرثٌ لها
تَتِيهُ بها وبألقابِها
وإنّا عَبيدٌ خُلِقْنا لها
لِنَبْقَى سُجُوداً بأعْتابِها

(١) إشارة إلى القصائد الوثنية التي نُوِّهنا بها وشراسة الغاب وانسللنا بها من بين الأنياب.

وليسَتْ بشيءٍ سوى أنّها
عجوزٌ تُجَنّ بألْعابِها
تُغذّي البلاد بأسواطها
وتَسْقي الرعيّةَ من صابِها
رجالُهُمُ عندَ سجّانِها
وأموالهم عندَ سلاّبها
لئِنْ جَرَّعَتْنا مَرير الحياة
فلا بُدَّ تَشْربُ مِن صابها
أترمي بنا في عميقِ السجونِ
ونُصبِحُ عُبّادَ أنصابِها
وتطمعُ من سُخْفِها أنّنا
نَكونُ كَخُلَّص أحبابِها
ولو عاملوا مِثلَنا السَائماتِ
لداسَتْ حِماهُمْ بِأَغْقابِها

****

وا: هدَمْتَ البلاد
وزلزلتَ بُنيانَ أقطابِها

وما أنْتَ والنّصْحَ في أسرَةٍ
تَـنـالُ الـسـمـاءَ بـأنـسـابِهـا
وقد نزلَ الوحيُ من أفْقِها
وحَـلَّ الـنّـبـيُّ بِـأثـوابِهـا
وما الحقُّ والعلمُ والعاملون
إلاّ قـرابـين محـرابِهـا
حَذارِ الخِطَابَةَ إنَّ السجون
تَـهَـشّ إليكَ بـتـرحـابِهـا

****

فيا مَلِكاً لَجَّ في بطشِهِ
وداسَ الـبِـلادَ وأخْـنـى بهـا
ودَبَّ لأمَّتِهِ في الظّلامِ
دَبـيـبَ الـلـصـوصِ لأسلابِهـا
وذَرَّ الـغُـبـار بـأجْـفـانِـهـا
وصـبَّ الـسـمُـومَ بـأعـصـابِهـا
وقالَ لها مصر أُمّ الفجور
تـسـيـلُ الخُـمـورُ بـأبـوابِهـا

وبغدادُ عاصمةُ المُلحِدين
ومكةُ نَهْبٌ لسلاَّبها
وما الأرضُ إلاّ لنا وحْدَنا
ولكنّهمْ غالَطونا بِها

****

نَهَضْتَ لتَخْريبِ عمْرانِها
وقُمْتَ لتَخْطيمِ ألبابِها
ووطّدت عرشكَ فوقَ القبورِ
وأزْعجْتَ رِمّة أصحابِها
وشيّدتَ مملكةً للفَنا
تقومُ القيامَةُ من بابِها
ألَمْ تَخْشَ من أُمَّةٍ أصبحتْ
إليكَ تُكَشِّرُ مِن نابِها؟
وتَزْأَرُ غَضْبَى زئيرَ الأُسودِ
وأنتَ الملومُ بإغضابِها
سَتَلْقى مغِبَّةَ ما قد صَنَعت
وتجني المخالب من غابِها

****

صرخةٌ إلى النائمين

ناشدتُكِ الإحساسَ يا أقلامُ
أتُزَلزلُ الدنيا ونحن نِيَامُ
قُمْ يا يَراعُ، إلى بلادك نادها
إنْ كانَ عندك للشعوبِ كلامُ
فلطالَما أشْعَلْتَ شِعْرَكَ حولَها
ومِنَ القَوافي شُعلَةٌ وضِرامُ
لمّا أهَبْتَ بها تُطارِدُ نومَها
ضَحِكَتْ عليكَ بجِفْنِها الأحلامُ
وصَرَخْت في أسماعِها فتحرَّكت
لكن، كما يتحرَّكُ النُوَّامُ
نَخْشَى سيوفَ الظُّلمِ وهي كليلةٌ
ونُقدِّسُ الأصنامَ وهي حُطامُ
وتَذِلّ أمّتُنا، لِفَرْدٍ واحدٍ
لا تُسْتَقادُ لمِثله الأنعامُ

نُشْدي له أموالَنا ونفوسنا
ويَرى بأنّا خائنونَ لئامُ

نَبْني له عرشاً يَسودُ فيبتَني
سِجْناً، نُهانُ بظلِّهِ ونُضامُ

تحنو الرؤوس له خشوعاً ظُلَّعاً
وتَنوءُ من أصفادِهِ الأقدامُ

كَمْ سبّحَتْهُ أَلْسنٌ، فَتَجرَّعَتْ
منهُ، مذاقَ الموتِ وهو زُؤامُ

كَم من أبٍ وَاسى الإمامَ بروحِهِ
ماتَتْ جِياعاً بعدَه الأيتامُ

يمتصّ ثَرْوةَ شَعبِهِ ويُميتُه
جوعاً، ليَسْمَن آلُهُ الأعلامُ

طَعَناته قدسيّةٌ، نزَلَتْ بِها
البركات والآيات والأحكامُ

عمَلُ الورى في رأيِهِ كُفْرٌ، وما
يأتيهِ، فهو شريعةٌ ونظامُ

*****

أبناءُ قحطان عبيدٌ، بعد ما
عَبَدَتهُمُ الزعماءُ والحكّامُ
كانَتْ سيوفهم تؤدّب كل
جبّارٍ، بغيرِ السيفِ ليسَ يُقَامُ
كانوا الأباةَ وكانت الدنيا لهم
والمُلكُ والراياتُ والأعلامُ
نزلوا بيثربَ والعراقِ، فشيّدوا
مُلْكاً، كبيرَ الشأنِ ليسَ يُرامُ
وهمُ الأولى، اقتحموا على أسبانيا
أسوارها، فتحكّموا وأقاموا
وهمو، بمعتركِ الحروبِ صوارمٌ
وهمو، لبُنْيَانِ العروشِ دِعَامُ
كانوا، بأعصابِ العروبةِ ثورةً
تُمْحَى الملوكُ بها وتُرْمى الهامُ
وهمُ الأولى البانونَ عرشَ أميّةٍ
نهضَ الوليد بهم، وعزَّ هِشامُ

غضبوا على مروان فاقلبت به الدنيا، وثارت ضده الأيامُ

كانت سيوفُهم تُضيءُ فتمنح التاريخ أفقاً ليس فيه ظلامُ

كانوا زماماً للخِلافةِ، مُزّقَتْ
أوصاله، فَتَمَزَّقَ الإسلامُ

قحطانُ، أصلُ العربِ، منذ تهاونوا
بحياتها، عاشوا وهُمْ أيْتامُ

لهُم الجبالُ الراسياتُ، وأنفسٌ
مثلُ الجبالِ الراسياتِ عِظَامُ

أتراهُمو صنعوا الذّرى، أم أنها
صَنَعتهمُ، أم أنَّهُمْ أتْوامُ

وُلِدُوا عمالقةً مُحَنَّطَةً، كما
وَلَدت فراعنةً لها الأهرامُ

قَدِموا من التاريخِ في جَبَهاتِهِم
من آلِ حِمْيَرَ، غُرَّةٌ ووِسامُ

يتساءلونَ أحِمْيَرٌ فوقَ الورى،
كالأمسِ أمْ تلكَ الرُؤى أوْهامُ؟
ابن (السعيدةُ) إنّ فيها جَنّةً
خَضرا، نَماها الدهرُ وهو غلامُ؟
أينَ القصورُ الشمّ؟ أينَ بُناتُها الأقيالُ أين ملوكُها الأعلامُ
أينَ البحارُ من السدود، يُرى لها،
بينَ الشواهِقِ زَخْرةٌ وزِحام؟
أينَ السّلالةُ من مَعينَ وحِمْيَرِ
هل أيْقَظوا الدنيا لهم، أمْ ناموا؟
هل سابقوا الأقطار في وَثباتِها
هل حلَّقوا حولَ النجومِ وحاموا؟

****

ماذا دهى قحطانَ؟ في لحظاتِهم
بُؤسٌ، وفي كلماتِهِم آلامُ؟

جـهْـلٌ، وأمـراضٌ وظـلـمٌ فـادحٌ
ومـخـافـةٌ، ومـجـاعـةٌ، وإمـامُ؟

والـنـاسُ، بـيـنَ مُـكَـبَّـلٍ فـي رِجـلِـهِ
قـيـد، وفـي فـمِـهِ الـبـلـيـغِ لِـجَـامُ

أو خـائـفٍ، لـم يَـدْرِ مـا يَـنْـتـابُـهُ
منهـم، أسِـجنُ الـدهـرِ، أم إعـدامُ؟

والاجـتـمـاعُ، جـريـمـةٌ أزلـيـةٌ
والـعِـلـمُ إثْـمٌ، والـكـلامُ حـرامُ

والـمـرءُ يـهـربُ مـن أبـيـهِ وأمِّـه
وكـأنَّ وصـلَـهـمـا لـهُ إجـرامُ

والـجيش، يـحـتـلّ الـبلادَ، ومـا لـه
فـي غـيـرِ أكـواخِ الـضـعـيـفِ مُـقـامُ

يـسـطـو ويَـنْـهَـبُ مـا يـشـاء، كـأنّـما
هـو لـلـخـلـيـفَـةِ، مِـغْـولٌ هَـدَّامُ

والشّـعبُ، فـي ظلِّ السـيـوفِ ممزَّقُ
الأوصـال، مـضـطـهـدُ الـجـنـابِ يُـضـامُ

وعَلَيْهِ إمّا أنْ يُغادرَ أرضَهُ
هرباً، وإلاّ فالحياةُ حِمامُ

نثروا بأنحاءِ البلادِ ودمّروا
عُمْرانَها، فكأنَّهُم ألغامُ

أكلوا لُبابَ الأرضِ، واختصوا بها
وَذَوُو الخصاصةِ واقفون صيامُ

وكأنّهم هُمْ أوجدوا الدنيا وفي
أيديهمُ تتحرَّكُ الأجرامُ

هبْ أنهم خلقوا العباد، فهل لمن
خلقوهُ عطفٌ عندهم وذِمامُ

ما كان ضرَّهمُ وهم من هاشمٍ
لو أنهم مثل الجدودِ كِرامُ

لكنها الأخلاقُ أرزاقٌ بها
يجري القضاءُ وتُقَدَّرُ الأقسامُ

يـا قـوم هبّـوا لـلـكـفـاحِ ونـاضِـلـوا

إنَّ الـمـنـامَ عـن الـذّمـامِ حـرامُ

تـسـتـسـلـمونَ إلـى قُـسـاةٍ مـا لـهـم

خُـلُـقٌ، ولا شـرعٌ، ولا أحـكـامُ

ولقد صبَرتُمْ ثلثَ قرْنٍ لم يَصُنْ

أعـراضَـكـم صَـبْـرٌ ولا اسـتـسـلامُ

لـن يَـبـرح الـطـغـيـان ذئـبـاً ضـاريـاً

مـا دامَ يـعـرِف أنَّـكُـم أغـنـامُ

فـتـكـلّـمـوا كـيـمـا يـصـدّق أنـكـم

بـشَـرٌ، ويـشـعـرَ أنّـهُ ظَـلاّمُ

وتـحـركـوا كـي لا يـظـن بـأنَّـكـم

مَـوْتـى، ويَـحْـسَـبُ أنَّـكُـم أصْـنـامُ

طـارَ الـورى مـتـسـابـقـيـنَ ومـا لـكُـم

فـي الـسّـبْـقِ أجـنـحـةٌ ولا أَقـدامُ

*****

إنْ لم تطيروا في السماءِ فكيفَ لم
تمشوا وتمشي الشّاءُ والأَنْعامُ

ومذبذبين[١]، تلوّناً وتردداً
لعَنَتْهُمُ الحسناتُ والآثامُ

قلنا: ارفعوا الأسواط عن أجسادِكُم
قالوا: لنا لومُ الإمام أثامُ

تاللّهِ ما بهُمُ الإمام، وإنّما
ولعوا بسَوْطِ المستبدّ وهاموا

باعوا الضمائرَ للمَهانةِ مثلما
تُبْتاعُ للحَمْلِ الثقيلِ سَوامُ

وإذا ثَوَتْ بينَ الضلوعِ بهائمٌ
قَوِيَتْ على حَمْلِ العصا الأجسامُ

يتطاولون إلى شؤون ما لهم
عِلْمٌ بمعناها ولا إلمامُ

(١) يعرض بهذه الأبيات التالية ببعض الصحف المرتزقة في اليمن وكتّابها.

لا يـحـسـبـونَ الـدّيـن إلاّ أنّـهُ
عـنـدَ الأمـيـرِ دراهـمٌ وطـعـامُ
كـتـبـوا ومـا هـذا الـذي بـمـقـالِـهِـم
إلاّ وبَـاءٌ فـي الـنّـهـى وسَـقـامُ
سـامُـوا الـصـحـائفَ أن تـنـوءَ بـجـيـفـةٍ
نَـفَـحَـتْ فـظـنّـوا أنـهـا إلـهـامُ
يتشدَّقونَ، فـتـسـخـرُ الفُـصـحـى بـهـم
ويُـحـرّرون فـتـضـحـكُ الأقـلامُ
تـالـلّـهِ مـا عـزَّ امـروءٌ ودعـاتُـه
نَـفَـرٌ كـأشـبـاحِ الـظـلامِ طـغـامُ
يَـغْـفـونَ عـن طـغـيـانِـه وبـلادُهـم
تُـلـحـى عـلـى أنّـاتـهـا وتُـلامُ!
ويُـقـدّسـونَ خـنـاجـراً فَـتَـحَـتْ لـهـا
جـرحـاً بـقـلـبِ الـشّـعـبِ لا يَـلْـتـامُ

سيُحاسَبونَ، فقدْ دَنا لحسابِهم
يومٌ يسوءُ الخائنينَ ظِلامُ

وسيندمُ المتزلِّفونَ ندامةَ الوَثنيّ يومَ تُحَطَّمُ الأَصْنامُ

عدن عام ١٩٤٥

إلى علي محمد لقمان

(صاحب الوتر المغمور)

وتَرُ الغرامِ يَئِنّ مِنْ صَبَواتِهِ
ويُسجّلُ النيران في آهاتِهِ

الدمعُ محترقٌ على أنفاسِهِ
والصوت مجروح على لَهَواتِهِ

والمبدعُ الفنّان يملو نايه
رُوحاً ويُنْطِقُهُ بسِحرِ لُغاتِهِ

ويَبُثّ في العودِ الحياةَ فتنبري
أوتارُه ملأى بإحساساتِه

تَبْكي مِنَ الآلامِ مثلَ بُكائِهِ
جزعاً وتشكو الحُبّ مثلَ شُكاتِه

****

ذُهِل الشجيّ عن الغنا فتقطّعَتْ
أوتارُهُ بالنّارِ من زفَراتِهِ

ومَشَتْ على القيثارِ معركةُ الهوى
فاندكَّ مغموراً بدمعِ لُغاتِهِ
عصفَ الحنين بعقلِهِ وفؤادِهِ
ورماهُ كالمجنونِ في فلواتِهِ
يَسَل العواصفَ عن شظايا روحِه
والأرضَ عن أشْلائِهِ ورُفاتِهِ
ويطير في أحلامِهِ، ويجنُّ في
آلامه، ويَذوبُ في أنّاتِهِ
قستِ الطبيعةُ حولَهُ وتَجَهَّمَتْ
في وجهه، وقَضَتْ على لذّاتِهِ
يبكي فَتَلْتَهِمُ الرياحُ بكاءَه
وتُغالِطُ الأسماعَ عن صرخاتِهِ
ويُعِدّ في عَينيهِ عَبْرَةَ حزنِهِ
فتُثيرُ عِثْيَرَها على عَبَراتِهِ

ويَسيرُ نحو حبيبه، فتصدّه
وتُوَزِّعُ الأشْواكَ في طرقاتِهِ
واللّيلُ في عينيهِ يمشي واهِناً
كالشيخِ يَهْدِجُ في قيودِ حياتِهِ
وكأنَّما مرِضَ الزمانُ فجاءه
كي يدفنَ الديجورَ في حَدَقاتِهِ
قَدَرٌ يغالبه، وكيفَ نجاحه
في الحُبِّ والأقدارِ من عَثَراته
ما ذنبُه إلاّ الحنينُ، وأنّه
قد فَتَّتَ الأكبادَ مِنْ زَفَراتِهِ
وتفرَّقَ العُذَّالُ عنه كأنَّهُ
أفْعَى، تُحامي الناس من نفثاتِه
ما ضرَّهُم لو أسعَفوهُ بقلبِهِ
وتأثروا لبكائِهِ وشُكاتِهِ

سَجنوهُ في البَيْداءِ فأطلقَ روحَه
خفَّاقةً تجري على نغماتِهِ
لمْ يَبْقَ منه سوى دخانٍ صاعدٍ
من صوتِه الباكي ومن كلماتِهِ
شَبح من الآلامِ يسبحُ في الفَلا
كالغيمِ يَسْقي الوحشَ من رحَماتِهِ
يتوهّمُ الراؤونَ جَمْرَةَ قلبِهِ
نجماً تَخَرَّقَ مِنْ قسيّ رُماتِهِ
يستمتعونَ بلحنِهِ ولو أنَّه
صوتُ الخرابِ يضجّ في طَيّاتِهِ
في كل غابٍ صادحٌ من فنِّهِ
يَعشو إليهِ الوحشُ في ظلماتِهِ
كادت سباع الوحشِ تعبُد لحْنَه
وتُذيبُ مخلبها بأغنياتِهِ

هَيْمان في دمِهِ وحوش تَغْتَذي
جِمَماً، وتَزْأرُ من لَظَى جمراتِهِ
تَخْنو السّماءُ عليه فهي تمُدّه
من وحيِها ليُبِلَّ من ويْلاتِهِ
غَزِلٌ إذا فكّرْتَ في تَشبيهِهِ
أَلْفَيْتَهُ يومي إلى مرثاته
لو لم يُطهّرْهُ الهوى بسعيره
لم تنزلِ الآيات في خطراتِه
ثَمِلٌ، يُعَربِدُ في السّماءِ خياله
ويُسائلُ الأفْلاكَ عن حاناتِهِ
خَلَبَ الملائكَ فهي تصقُلُ ريشها
من سِحْرِهِ، وتَعِبُّ من كاساتِهِ
أهْدى إليها قلبَه فَتَبَلْبَلَتْ
وتعوَّذت باللَّهِ من لفحاتِهِ

شَهِدَتْ بأنَّ الآدميةَ شِقْوةٌ
وَرَثَتْ لهذا الكونِ من نكباتِهِ

وتساءلتْ: أيَعيشُ صبّ قلبهُ
هذا، وتلكَ النارُ في طيّاتِهِ

ما الحُبُّ ما هذا الذي يصِفونَه
بالجاذبيّةِ في سِنيّ غاداتِهِ

ومَن الذي خَدعَ الصريعَ وقادَه
بشِباكِ فتْنَتِهِ وسِحْرِ فَتَاتِه

يَهْذِي بذكرِها ويعبُدُ حُسْنَها
وتُلِحّ في تَعْذيبِهِ وأذاتِهِ

قَلْبٌ يصلّي في الجحيمِ وما يرى
أجراً ولا يَلقى ثوابَ صلاتِهِ

وتَرٌ سقاهُ الروحُ شعلةَ حُبِّهِ
فزكا وكانَ الفنّ من ثمراتِهِ

إنّا لنلمُسُ فيهِ لوعةَ عاشقٍ

ونحس صوت القلب في نبراتِهِ

والروحُ في سجنِ الحياةِ أسيرةٌ

تترقَّبُ الإفلاتَ من ظُلُماتِهِ

لم تلقَ إلاّ الشِعرَ في ذاكَ الدُّجى

تأوي إلى الوهّاجِ من أبياتِهِ

تركوه مغموراً ليُخرِجَ سِحْرَه

رَيانَ بالقدسيّ من نفحاتِهِ

حَضَنَتْهُ ألسِنَةُ الملائكِ فاستقى

من دَرِّها الدفّاقِ في أسلاتِهِ

عدن حوالي عام ١٩٤٥

رثاء القاضي العلاّمة
يحيى بن محمد الأرياني

رئيس الاستئناف المتوفي ٩ ذي الحجة ١٣٦٢

إنطفأت هذه الروح الكبيرة في عام التيفوس الذي اجتاح اليمن من أولها إلى آخرها. وقد كنتُ في رعب هذا الوباء المتوحش مسافراً من تعز إلى صنعاء وشهدت في طريقي ضحايا الشعب المنكود تتساقط كالذباب في المدن والقرى دون أن تهتدي إلى شكاة أو تعرف ملاذاً أو تدري أنّ في دنيا الناس وراء اليمن السعيدة طبّاً وعلاجاً.

وقد كنتُ أركب على حمار يتسلق بي شواهق الجبال ويهبط بي إلى أغوار الوديان. وكنتُ كأنما أنجو بروحي على ظهر هذا الحمار من مكروب الوباء الزاحف على الأرض وأذكر أنه كان يغمرني شعور متواضع بأن هذا الحيوان الذي أمتطيه أعزّ من راكبه جانباً وأوفر منه حصانة في الحياة وأهدى صواباً إلى الرشد!

وبلغت بي جهود الحمار المكافح إلى قمة (سماره) فاستطعتُ أن أستشرف منها على مئات القرى وعشرات الوديان وتصورت ما يموج تحت بصري من نساء وأطفال وشيوخ وشبان يلفُّهم الرعب، وتشنقهم البلاهة، ويفترسهم قمل التيفوس، وتَجلَد ظهورهم مع ذلك كرابيج الحرس المتوكلي.

وهالَني أن أرى هذه الضحايا البشرية وليس لها حكومة تشعر بمأساتها

أو تفكر في اتخاذ أي إجراء لحمايتها من وحشية الموت الشامل، فقد مرّت شهور عديدة على هذا الوباء وهو يحصد حياة الشعب دون أن يجد في طريقه طبيباً واحداً لا في المدن ولا في القرى، إلاّ أطباء يُعَدّون على الأصابع استُقدِموا من أوروبا ليعالِجوا الأسرة المالكة وحدها فظلَلْتُ أبكي وأصرخ بحرية على قمة الجبل ومن على ظهر الحمار.

وفي هذا الجوّ الكئيب وصلتُ إلى صنعاء، وجاء العيد وجاءت معه وفاة القاضي يحيى بن محمد الأرياني وبالرغم من أني كنتُ أحيا في هذه النكبة الشاملة إلاّ أني لم أستطع الإنطلاق في وصفها بحرية إذ كنتُ أخشى بطشاً ظالماً أعتى وأقسى من التيفوس، وإنما تحايلتُ على وصفِ النكبةِ بصورة عامة ستلمس حرارتها أثناء المرثاة:

شمسٌ طواها بِلَيلِ القبرِ مَقْدور
فالنورُ مُفْتَقَدٌ والصّبْحُ مقبور

وأقبلَ العيدُ أعمى غارَ ناظِرُهُ
كأنّما اللّحْد في عَيْنَيْهِ محفور

يَسعى ويَعْثُر بالأكْبادِ مُضْرَمةً
كأنّها الجمرُ في مَسْعاهُ منثور

رأى الثّرى أدْمُعاً حُمراً فرقَّ لهُ
كأنّما الأرضُ جُرْحٌ وهو دكتور

والـمـوتُ يَـفْـتَـحُ أفْـواهَ الـقـبـورِ لَـهُ
على الـطـريـقِ فـيـمْـشـي وهـو مَـذْعـور
يَـفْـتَـرّ مُـبْـتَـسِـمـاً مِـنْ قُـبْـحِ طـلـعَـتِـهِ
كـمـا تَـبَـسَّـمَ لـلأَهْـوالِ سِـكّـيـرُ
****
ولّـى عِـمـادُ الـهُـدى يَـحْـيـى تـشـيّـعُـه
الـدّنـيـا بـأدْمُـعِـهـا والـعِـلْـمُ والـنّـور
والشعب يُطرِقُ حولَ النّعشِ مرْتَئِياً
لَـهُ إلـى الـقَـبْـرِ تَـقْـديـمٌ وتـأخـيـر
مُفَكّراً كيفَ يُلقى المجدُ في جدثٍ
وكيفَ يُنبَذُ تحتَ الصخرِ نِحرير
وكيفَ يَنشُبُ نابُ الموت في جَبَلٍ
وكـيـفَ تَـغْـلَـقُ بـالـنّـجْـمِ الأظـافـيـرِ
وكـيـفَ يُـدْفَـنُ رأسٌ مِـلْـؤُهُ دُرَرٌ
ومُـهْـجَـةٌ رُوحـهـا لـلأرضِ تَـطـهـيـر

وكيفَ يَهدَأ قلبٌ منهُ كان بِهِ

لِدَوْرَةِ الدهرِ تَبْديل وتغيير

هل للتريبِ وميضٌ من نباهتِهِ

فَنَقْتَنِيهِ وهل للصخرِ تفكير

وهل هو الأمَلُ المَسجُونُ في جدثٍ

أم أنَّهُ البحرُ في الأكفانِ مسحور

وكيفَ يَدْفن شعبٌ نفسَهُ ولهُ

فيما يُزاولُهُ رأيٌ وتدبير

ساروا به يحملون النّعش في جزَعٍ

كأنّهُ السّيْفُ في الأعناقِ مشهور

كأنّهم حَمَلوا الإسلامَ في كَفَنٍ

من المصاحفِ حاكَتْهُ المقادير

كأنّهُ البحرُ يجري من مدامِعِنا

رَشَاشُهُ إذْ طَغَتْ فيهِ الأعاصيرُ

كأنّهُ جبلُ النورِ الذي ولَدَتْه

... الشمر وانصدعَتْ عنه الدياجير

كأنّهُ كَوْكَبُ الحقّ الذي انْطَبَعَتْ

بوارقُ الوَحْيَ فيهِ والأساريرِ

كأنّما هو مرآةٌ مُسَجّلَةٌ

فيها النبوّةُ والآياتُ والخِيْرُ

كأنّهُ مصحفُ الجيلِ الذي بَعَثَ

التاريخَ فاتحدَت فيهِ التفاسير

*****

يا حامِلينَ لهُ غُضّوا نَواظِرَكُم

رُبّما اخْتَطَفَتْهُ عنكُمُ الحور

عَزّوا البلادَ فقد فاضَتْ حُشاشتُها

واندَكَّ منحطماً في جُرحِها الطّور

وضجَّ خاطِرُها المَشْبوبُ في دَمِها

وكادَ يُنْفَخُ في أغْراقِها الصّور

والـدمْـع يَـغْـلـي بـأجـفـانٍ مُـقَـرَّحـةٍ
كـأنَّـهُ الـجَـمْـرُ فـارَتْ عـنـهُ تَـنّـور

كـأنَّـهُ مِـزَقُ الـتّـامُـورِ هـارِبَـةً
مِن أضْلُعٍ عَصَفَتْ فيها الأعاصير

كـأنّـهُ نَـبْـع بـركـانٍ تَـفـورُ بِـه
زَلازِلُ الـروحِ هَـزَّتْـهُ الـمَـقـاديـر

والقلبُ يَلْتاعُ في الأحشاءِ مُضْطَرِباً
كـأنّـهُ أسـدٌ فـي الـسّـجْـنِ مَـأسـور

يـذوبُ كَـرْبـاً بـقَـبـرٍ مـن جـوانِـحـه
تَـمـوجُ فـيـهِ الـدَّواهـي والـمَـحـاذيـر

غَذّاه يَحْيى بشمسِ العلمِ فانطفأَتْ
والـيـوم جَـرّعـه الأهـوالَ دَيـجـور

يَحْيى مُصابك هدَّ الشّعب وانحطمت
قُـواهُ وهـو لـعَـمْـري فـيـكَ مـعـذور

عَلّمته الخُلُقَ الأسْمى وكنتَ له
كمصحفٍ فيهِ تحذير وتبشير
نزّهتَ كَفّكَ عن سُحتٍ قد انغَمَسَتْ
فيهِ الأكُفّ الأثيماتُ المَشاهير
يَروْنَ قَطعَ يمين اللصّ جائعَةً
وحظّ أيديهمُ لَثْمٌ وتَوْقير
ذَنْبُ الصعاليك مخزاةٌ ومَعْصيةٌ
وذَنْبُهمْ فيهِ تهليلٌ وتكبير
لا يُؤخَذون بما غلوا وما اخْتَلَسوا
كأنّما العلمِ للإجرامِ تَبرير
للّهِ أنتَ طلَبتَ المجدَ فاجتَمَعَتْ
أطرافُه وأستقاهُ منكَ تامور
وهامَ فيكَ هُياماً لا هُدوء له
كأنّه فيكَ مَخصور ومَقْصور

بَنَيْتَ جنّةَ عَدْنٍ بالعَفافِ وقد

تَبْني جهنّمَ للنّاسِ الدنانير

والعِلمُ إنْ لم يُطَهِّرْ قلبَ حامِلِهِ

مِنْ الهوى فهو تضليلٌ وتزوير

*****

يا دهرُ ما للدواهي فيكَ شاخصةً

يا ليتَها العُمَى أو يا ليتَها العُرَر

مَرَّتْ على هذه الدّنيا بناظِرِها

فلَمْ يَفُتْها مِنَ الآفاقِ قِطْمير

رَقّتْ لنا الحربُ لم تُقلِقْ مَضاجِعِنا

فجاءَنا أجل في السّلْمِ مَقْدور

لا تَتّقيهِ حُصون في شَواهِقِها

ولا تُقاوِمُهُ البُسل المَساعير

وليسَ تثنيةِ أظْفار مُدَرّبة

أو مَدفَع في خُدودِ الطِفْلِ منثور

****

مرَرْتُ في مَعْرَك الآجالِ مُرْتجفاً
كأنّني من ذُهولِ الرّعبِ مَمْرور
مُسْتَسْلِماً للرّدى في قَلْبِ جحفلِهِ
دمي حلالٌ وروحي فيهِ مَهْدور
تجهّمَ اللّيْلُ في وجْهي وماطَلَني
كأنّني المتنبي وهْوَ كافور
طالَتْ بنا الأرضُ والساعاتُ واتّصلَت
وضاعَ في أنْمُلي عَدّ وتقدير
وإنما الدهرُ أوراقٌ مُزَوَّرَة
ورَأيُنا فيهِ تَزييف وتَغْرير
تجْري على صفحة الدنيا هياكِلُنا
كأنّها تُرَّهات أو أساطير

****

يا راحلاً في يدِ الرحمٰنُ لا وَقَفَتْ
إلاّ وأنتَ بروحِ الخُلدِ مَغْمور

عِفْنا الحياةَ وقد غادَرْتَ ساحتَها
وكُلّنا واجِمٌ للخَطْبِ موتور
أولادُكَ الغُرّ ها هم مثلما تركت
عيناكَ طُهْر مناجيبٌ مغاوير
لم يَنْقَض الخَطْبُ عَقْداً من عزائِمِهم
كالتِبر يَزدادُ سَبْكاً وهو مصهور
شَعّتْ ضمائرُهُم في ليلِ مِحْنَتِهِم
كما يضيء بحُسْنِ الصَّقْلِ بلّور

****

إلى أولئك الأنجال الطُّهر المناجيب أقدِّم هذه الدمعة الدامية المتواضعة التي جرت في آثار ذلك الراحل العظيم، وتناثرت من مخالب ذلك الخطب الأليم إن جراحنا الفاغرة بالدم لتعزّيكم وتدعو لكم بالسلوان.

الحنين إلى الوطن

ذِكْرَياتٌ فاحَتْ بِرَيّا الجِنان...

فسَبَتْ خاطِري وهَزَّتْ جَنَاني

عُمُرٌ من دقائِق مُسْتَعادٌ

ودُهورٌ مُطلَّة من ثواني

فكأنَّ الماضي تأخّرَ في النّفس

... أو استرجَعَتْ صَداه الأماني

ما وَجَدْنا وراءَها غَيْرَ غاباتِ

... وحوشٍ من الدماءِ قَواني

لم تُهَوّمْ للنّومِ عينٌ ولم تَهْدأ

... لنا مُهْجَة من الخَفَقان

ما يهبُ النّسيمُ إلاّ وَجَدْنا

طَيّهُ زَفْرَةً مِنَ الأوطان

تحملُ الطّلّ للرياضِ وتُذْكى

في الحشا لَفَحَةً من النيرانِ

آهِ وَيْـحَ الـغَـريـب مـاذا يـقـاسـي

مِـنَ عـذابِ الـنـوى ومـاذا يُـعـانـي

كُـشِـفَـتْ لـي فـي غُـرْبَـتـي سَـوءةُ

... الدّنيا ولاحَتْ هِناتها لِعِياني

كـلّـمـا نِـلْـتُ لـذَّةً أنْـذَرْتَـنـي

فَـتَـلَـفّـتُ خـيـفـةً مِـنْ زَمـانـي

وإذا رُمْـتُ بَـسْـمَـةً لاحَ مَـرْآيَ

وطـنـي فـاسْـتَـفَـزّنـي ونـهَـانـي

ليسَ في الأرضِ للغَريبِ سوى...

الدمعِ ولا في السّماءِ غيرُ الأماني

****

حَطّميني يا ريحُ ثمَّ انثُري أشلاء

... رُوحي في جوّ تلكَ الجِناني

وَزّعيني في كلّ حقْلٍ على الأزهارِ

... بـيـن الـقُـدودِ والأغْـصـانِ

زَفَـراتـي طُـوفـي سـمـاء بـلادي
وانـهَـلـي مـن شُـعـاعِـهـا الـرَّيّـان
أطْفىءُ لَوْعَتي بها وأغْمِسي روحي
... فـيـهـا وبَـرّدي ألـحـانـي
وَصِلي جيرتي وأهْلي وأحبابي
... وقِصّي عَلَيْهِمُ ما دهاني
وأنْـثُـري فـي ثَـراهـمـو قُـبُـلاتـي
وأملي رَحْبَ أُفْقِهِمْ من جِناني
وسَليهِمْ ما تَصنَعُ الروضَةُ الغَنّا
... وأدواحُـهـا الـطـوال الـدَّوانـي
هـل رَثـانـي هِـزارهـا هـل بـكـانـي؟
وُرْقُها هل شَجَاهُ ما قَدْ شَجاني
ليْسَتْ للروضِ مُهْجَةٌ فلعلَّ الدَّهر
يُـبْـكِـيـهِ مـثـلَ مـا أبْـكـانـي

****

البِـلادُ تَسْتَنْبِطُ الخالِصَ

... مِنْ مَنْطِقي ومِنْ وِجْداني

ورَمَتْ بي كي تَستَريحَ لآهاتي

... وألحانيَ العذابِ الحِسَان

ليسَ تَهْوَى مني سوى الصوتِ...

يُشجيها وإنْ كانَ فيهِ هَدْمُ كياني

يَقْتَني العودُ غالِياً ثمَّ لا يُرْجى

... انْتِفاعٌ مِنْهُ بغَيرِ الدّخان

فَلَئِنْ لم أعُدْ إليها فقد خلّدتُ

... في سَمْعِها شَجيَّ الأغاني

*****

وطني أنتَ نَفْحةُ اللَّهِ ما تبرحُ

لا عنْ قلبي ولا عَنْ لِسَاني

صَنَعَ اللهُ مِنْكَ طينَةَ قَلْبي

وَبَرى مِنْ شَذَاكَ روحَ بياني

صــوَرٌ مِــنْــكَ مُــشــكِــلٌ فــي فــؤادي
وأبــتــنــي مــن شــذاكَ روحَ بــيــانــي
هاكَ ما قَدْ طهّرتُهُ لكَ في دَمْعي
ومــا قــد صَــهَــرْتُــهُ فــي جَــنــانــي
شُعْلَةَ القَلْبِ لوْ أُذيعَتْ لقالوا
مــرَّ عَــبْــرَ الأثــيــرِ نَــصْــلُ يــمــانــي

تمت ٢٦ جمادي الأولى ١٩٦٥

هذا التاريخ منقول من مذكرة خطية ولا ندري أَهو تاريخ قول القصيدة، أم تاريخ نقلها في هذه المذكرة ولكن من المرجّح أنه تاريخ قول القصيدة، لأن المذكرة لا تُؤرّخ رغم طفحها بالقصائد.

إبراهيم

طليعة الشهداء

إنها زوجة أخي أحمد محمد نعمان، سيدة مكافحة، نبيلة طغت عليها روح الوفاء لزوجها بعد فراره إلى عدن، وعجزت عن أن تواجه الحياة بدونه. وما كاد يغادر «تعز» حتى ألحّ عليها مرض مدنف لم يسلّمها إلاّ إلى القبر.

وجاء خبر الوفاة إلينا ونحن في معمعة النضال واهتزّت عواطف زوجها الوفيّ وعكف يبكي فَقْد حبيبته وأم أولاده بكاءً متصلاً مريراً.

فكتبتُ له هذه القصيدة أطلب إليه أن يضع نهاية للدموع، وأذكّره أنه في معركة لا يجوز فيها البكاء. وحاولتُ أن أصرف عاطفته نحو زوجته بعاطفته نحو بلاده.

كَفْكِفِ الدَّمْعَ، واعتَصِمْ بالعزاء
ليسَ في الحربِ فرصةٌ للبكاءِ

قد تصدّيْتَ للجهادِ، فلا تَأْبَه
... لنَبْلٍ يأتيكَ في الهَيْجاءِ

وتَعَرَّضْتَ للزَّمانِ، فلا تجزَعْ
... لإحْدى أيّامِهِ السّوْداءِ

وأحْتَسِبْ كلّما أصابَكَ لله

... وواجِهْ قضاءَه بالفِداءِ

وَتَبَسَّمْ إلى الخُطوبِ فكَمْ في الخطب

... مِنْ سُؤْدَدٍ ومِنْ عَلْياءِ

أَنْتَ للأمَّةِ التي عَلّقت فيكَ

... عَظيمَ المُنى، كَبيرَ الرَّجاءِ

أوْدَعَتْ في يراعِكَ الغضبُ ما قد

أفْرَغَتْهُ مِنْ أدمُعٍ ودماء

حمّلتْ قَلْبَكَ الجراحَ التي تصرُخ

... في البائسينَ والضعفاء

أرسَلَتْ فيكَ صَوْتَها الثّائِرَ الغَضْبان

... ضدّ الحكومةِ الهَوْجاء

أنتَ للظُلْمِ غُصَّةٌ يُبْتَلى الظالمُ

... منها في كلّ يومٍ بداء

أنْتَ للحقِّ قوةٌ تَزْهقُ الباطلَ

... في عُقْرِ دارِهِ الشَّمّاء

يخْجَلُ العَرْشُ أنْ تكونَ غَضوباً

... منهُ، أوْ أنْ تُذِلّهُ بالتنائى

أنْتَ بالابْتِعَادِ تَصْنَعُ للطاغي

... وتاريخِهِ أشَدّ الهجاء

منذُ غَادرتَ سَوحَه لم يجِدْ...

ما كان في أنفِهِ مِنَ الكِبْرِياء

ويَرى نَفْسَهُ وراءكَ كالصّعْلُوكِ

... يَقضي حياتَهُ في الهُراء

*****

مَنْ يسوسُ البلادَ، مَن يحفظُ العرْشَ

... لمِلْكٍ يَقْضي على الأذكياء

يَنْبُذُ النورَ مِنْ يَدَيْهِ لِيَمْشي

خابِطاً في طَريقِهِ الرّعْناء

ويُريدُ البَقاءَ في الليلِ كالعَريان

... يَنْبُو عَنِ المَكانِ المُضاء

زَعَموا، أنهم سيَقضونَ بالحُمْقِ

على كلّ كَوْكَبٍ في السّماءِ

أي كفّ تمحو النهارَ من الكونِ

وتَقْضي على الدُّجى بالبقاء

****

يا شَقِيقي في مبدئي، يا زميلي

في جِهادي، يا سَلْوَتي يا عَزائي

كنتُ أعْدَدْتُ أدمعاً فتَماسَكْتُ

... ونهْنَهْتُ أدْمُعي ورَثائي

خِفْتُ منها على عواطفك القرْحى

... وآماقِ طَرفِكَ البَكّاء

خِفتُ أنْ يزعَمَ الطّغاةُ بأنّا

قَدْ ضَعُفْنَا لمحْنَة أو بَلاء

بَيْدَ أنَّ الرّثاء حَتْم، وأنْ الحُزْنَ

... حَقُّ الموتى على الأحياء

فابكِها ما استطعتَ وحدكَ، وامْلأ

ساحةَ القبرِ من دموعِ الوفاء

جِئْتَها إذا عزمتَ، تبغي رِضاها

عنكَ شأنَ الأحِبّة الأولياء

وذكرتَ الفراقَ، فامتَقَعْتَ ذُعراً

... وكادت تجودُ بالحَوْباء

وأحَسّت بأنَّها لَنْ تُلاقي

وجْهكَ الحيَّ بعدَ ذاكَ اللّقاء

فأفاضَتْ عليكَ زَفْرَتَها الحَرّى

... وصبَّتْ دَمْعَ الوداعِ النهائي

ورأتْ أنما فَتَحت لها القبرَ

بتلكَ التحيّةِ الخَرْساء

أجْهَشَتْ بالبُكاءِ، وقدَّمتِ الأطفال

... تبكي إليكَ كالشّفَعَاء

أهْرَقُوا أدْمُعاً صغاراً...

يُعينُونَ بها أمّهم على اللأواء

ويقولونَ كيفَ تَبْكينَ يا أُمّاهُ

... - فينا - كالصّبْيَةِ الضّعَفاء

كَيْفَ تَبْكينَ مِثْلَنا وأبونا

عِندنا مُشْفِقٌ على الأبناء

هَيّجوا قلبَكَ الرحيم، فأَشْفَقْتَ

عليهم من هذه الأبناء

واسْتَثَرْتَ العَطْفَ الذي صَبَّهُ اللهُ

... إلى قَلْبِها على التُعَسَاء

فاسْتَهَلّتْ بَشَاشَةً، وتَجَلّى

لكَ في وَجْهِهَا إبْتِسام الهَناء

كَـرِهَتْ واجـبَ الـجـهـادِ فَـرَدَّتْ

دَمْـعَـهـا شـامـخـاً مـن الـخُـيَـلاءِ

جِئْتَها مُهْجَةً تذوبُ من الشَّوْقِ

... فعـادَتْ كـالـصـخـرةِ الـصـمّـاءِ

كَمْ أعانَتْكَ في جِهادِكَ كَمْ ضحَّتْ

.... بـآلامِـهـا عـلـى الـبُـؤسـاءِ

كَمْ تَلَظّى «فؤادُها» بينَ جَنْبَيْها

... لـيـأتـي إلـيـكَ فـي الـهَـيْـجاءِ

ما شفاها الجِهادُ، بالعمَلِ الدّائِبِ

... والـهَـمّ، والأسـى، والـبُـكـاءِ

دَفَعَتْ زَوجَها ليمضي إلى النصرِ

... خـلـيّـاً مـن عـاطِـفـاتِ الـنـسـاء

وانْبَرَتْ تَصْدَعُ الحُشاشةَ حتى

لَـفَـظَـتْ نـفـسَـهـا مـن الـبُـرْحـاء

سَقَطَتْ كالأبطالِ في ساحةِ الحربِ

... وكانَتْ طليعةَ الشُّهَداءِ

****

فامْضِ يا قائدَ الشبابِ إلى الحقِّ

ولا تَكْتَئِبْ مِنَ البأساءِ

خَلِّ أمرَ الفقيدة في ذِمّةِ اللهِ

... جَزيلَ الثّوابِ جَمَّ العَطاء

وتَذَكَّرْ مَصيرَ أُمَّتِكَ الكُبْرى

... على هُوَّةِ الرَّدى والفَناءِ

أيّ قَبْرٍ يُؤوي رُفاتَ بَنيها

أيّ دَمْعٍ يَفي لهُمْ بالعَزاءِ

كَمْ يظلُّ «الإمام» يحفرُ للنّاسِ

... قُبوراً بكفِّهِ الشّلاَّءِ

كَمْ تُقاسي البلادُ من قلبِهِ القاسي

... وتَلْقَى في ظلِّهِ من شقاءِ

ثُلْث قرنٍ لَمْ يَبرحِ «اليمن» الميمونَ

... منه في ليلةٍ لَيْلاءِ

تَعجَز الشّمْسُ أَنْ تُشِعَّ على أفكاره

... السّودِ لَمْعةً مِنْ ضِياءِ

****

قيد جماعي

من قصيدة طويلة وصفتُ فيها بعض الأحرار، وقد شُدَّت أعناقهم بالسلاسل وطاف بهم زبانية الطغاة مسافة أيام طويلة كانت بدايتها بالطواف حول صنعاء، وكانوا يسيرون في الطرقات الوعرة وبين الجبال والشِعاب مشياً على أقدامهم، والسياط من ورائهم، والأغلال في رِقابهم تشد بعضهم إلى بعض.

وقد عاشوا أيامهم السود تحت رحمة هذه الأغلال حياة موحّدة وعذاباً موحّداً ونوماً وتبولاً وتحركاً وسكوناً كل ذلك، موحداً جعلهم كأنهم مخلوق غريب مسخ شذت به طبيعة التكوين. فكررت أعضاء لا تتكرر، ووحدت أجزاء لا تتوحّد، أو كان الطاغية المتألّه الذي ينازع الله في سلطانه. سوَّلت له نفسه أن يبتدع نموذجاً منكراً للتكوين البشري، يزعم له خياله أنه أضخم من النموذج العادي للبشر وأوفر أعضاء، وأثقل وزناً، وأعظم لذلك قيمة وأهمية، وتذوّقاً للعذاب.

من هذه القصيدة:

طافوا بهم حَوْلَ صَنعا يَطمسونَ بهِم
حقاً يضيقُ به الطاغي ويخشاه

وطَوَّقوهُم جَميعاً ضِمْنَ سِلْسِلَةٍ
مِنَ الحديدِ يَهولُ النّاسَ مَرْآه

يَكُبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِمَنْكِبِه
وتلتقي أرجُلٌ منهم وأفْواه

إذا تَحَرَّكَ فيهم واحدٌ صَرَخوا
واسْتَفْحَلَتْ فيهمُ الآلامُ، والآه

كلّ امرىءٍ منهم خَطْبٌ لصاحبِه
يُؤذِيهِ وهو بريءٌ حين آذاهُ

ضَاقَتْ رِقَابُهُمُ في الغُلِّ واحتَرَقَتْ
أقدامُهُم من رَحيلٍ طالَ مَنْآه

إذا اسْتفاتَ أسيرٌ مِنْ مَتَاعِبِهِ
لَبَّتْهُ بُنْدُقَةُ الجندي ورِجلاه

فَنٌّ من البَطْشِ والتعذيبِ مبتكرٌ
خليفَةُ اللهِ للأجيالِ أهداهُ

سيقوا جِياعاً ولم يَسمحْ مُعذِّبهم
أنْ يَسْتَعِدُّوا بزادٍ يومَ بَلْواه

وسارَ مِنْ خَلْفِهِمْ جُنْدٌ زبانية
إذا أتوا خِزْيَةً من أمْرِهِم تاهوا

يَسْتَمْنِحونَ مِنَ الأَسْرى مآكلُهم
يا لُؤمَ مَنْ راحَ يَسْتَجْدي ضحاياهُ

والعسكريُّ بَليدٌ بالأذى فَطِنٌ
كأنَّ إبْليسَ للطَغْيان رَبّاهُ

ومنها:

قَسَوْتَ في البطْشِ يا هذا بلا تِرَةٍ
كانَت لدينا ولا إثمٍ كَسَبْناهُ

كنا نَراكَ أباً بَرّاً، ومُذ لمعَتْ
سُيوفُ بطشكَ رَدَّتْ ما زعمناه

ما كان أَجْدَرَ أنْ تَسْمو إلى المثل

. . . الأعلى وتفهم شيئاً من مَزاياه

إذاً لكُنتَ «أميرَ المؤمنين» كما

يَقْضي لكَ الحقُّ في أسمى قضاياه

لكن تَجَنَّيْتَ حتى لم تَدَعْ أحداً

إلاّ وأفْسَدْتَ دُنْيا وأُخراه

أفكارُكَ السُّودُ لم تتركْ لشَعبِكَ منْ

ضوءٍ تَجُولُ بهِ في الأرضِ عَيناه

وقد تمكَّنْتَ أَنْ تَقْضي قَضاءَكَ في

شَعْبٍ يَسيرُ بِلَيْلٍ ما تعدّاه

تَسُومُنا الخَسْف حتى ليس في يدِنا

إلاّ حديد بلا ذنبٍ حَمَلْنَاهُ

أرضُ الجدودُ التي فيها دمٌ عَبَقٌ

مِن ريحِهِمْ لَمْ تَعُدْ مما ورِثْناه

نَسيرُ فيها عَبيداً، أو نغادرها

أذِلّةً يا لَبؤسٍ قد لَقِيْناه

****

«صنعاء» ويحكِ ما للظلمِ قد رسخت

آثامُه فيكِ، واسْتَشَرْتِ خطاياهُ

وسّعْتِ صدركِ للطغيان يصنعُ ما

يَهْوَى وعينُكِ تَحْميهِ وَتَرْعاهُ

ومنها:

تَجَلُّداً أيُّها الأحرارُ إنَّ لكم

وِتْراً عَزيزاً علَيْنا ما دَفَنّاه

إنّا وَهَبْنا شبابَ العمرِ للوطنِ الدامي

... وإنقاذِ عَطْشاهُ وغَرْقاه

لا بدَّ أن تدرِكوا يومَ الخلاصِ وما

بُدٌّ لنا أن نُلاقي ما طَلَبْناهُ

****

رثاء السيد عباس بن علي

جاء إليَّ إذ كنتُ في عدن السيد أحمد بن عباس بعد أن توفي والده العالِم الشهير في إحدى مستشفيات عدن فحمل إليَّ نبأ وفاة أبيه الراحل.

وأحسستُ بمشاركة وجدانية مع هذا الشاب إزاء فجيعته بوالده، وعمّق هذه المشاركة أني كنتُ صحبت الفقيد فترات طوالاً في «تعز» وحملتُ له في نفسي ذكريات جلّة لا تُنسى. فكتبتُ على لسان الشاب المفجوع هذا العزاء:

خَطْبٌ أثارَ على الشّجُونِ شجونَا
ودَهى الفؤادَ الوداعَ المحزونا

أواه... يا أبتاه لهفةَ مُوْجَعٍ
لا يَسْتَقِرُّ تَلهُّفاً، وحَنينا

سافَرْتُ أرْتاد الشّفاء، فلم أجِدْ
في الأرضِ من طبٌ يَرُدّ مَنونا

جاء العِلاجُ من الطبيبِ، يريد أن
تُشْفى وكانَ المَوْتُ فيكَ كمينا

أخَّرْتُهُ عَنْ وقْتِهِ وكأنّما
نِلْتُ الحياةَ من الطبيبِ ديونا

هَيهات أرتجِعُ السلامةَ بعدَ أنْ
ذَهَبْتَ وحلَّ الخَطْبُ فيكَ يَقينا

وغَدوتُ في «عدن» أروح وأغْتَدي
وأظُنّ في كَيْدِ الزمانِ ظنونا

وأجُولُ من حولِ السريرِ كأنّما
أمسيتُ من ألمٍ عليكَ طعينا

أتَرَقّبُ الألطافَ تأتي بالذي
أعيا الطبيبَ وأعجَزَ السّكْسُونا

وإذا بقَارعَةٍ تحِلُّ ونَكْبَةٍ
تُضْفي عليَّ مِن الشقاءِ فنونا

وإذا بقلبي لا يُطاقُ وجيبهُ
وبدَمْعِ عَيْني لا تَكفّ هتونا

وإذا بـأفـراحـي الـتـي أولَـيْـتَـنـي
وهـراً تـعـودُ مَـنـاحـةً وأنـيـنـا
أبَتَاهُ... مَنْ لي أنْ أوفيكَ الذي
خَوَّلْتَنِيهِ مَدى الحياةِ سِنينا
شَاءَ القَضاءُ بأَنْ تموتَ مُغَرَّباً
وأعيشَ بعدَكَ كالغريبِ حزينا
لو كانَ يَنفعكَ الفِدَا لرأَيْتَني
أصبحتُ دونَكَ في الترابِ دَفينا
أو كان يُؤنِسُكَ الجِوارُ وجَدتَني
أمسيتُ عِندكَ في الرّموسِ خدينا
أو كان يُجْديكَ البُكاء...
لنشرتُ فوقَ النّعشِ قلباً خافقاً وجفونا
لكنّما عَلّمْتَني أنْ أَلْتَقي
بالهولِ ثَبْتاً والخُطوبِ رَزِينا

ما إنْ يُقابِلُني الزمانُ بمحنةٍ
إلاّ وقَدْ لُقّنْتُها تَلْقينا

ودَّعْتَني وتَركتَ نوراً ساطعاً
أَمحو بطَلْعَتِهِ الخُطوب الجُونا

وبَنَيْتَ لي مجداً عريقاً باقياً
ألقى بِهِ حِصْناً عليَّ حصينا

أبَتاهُ... كم لي في تُراثِك عِزَّةٌ
تَأبَى عليَّ بأنْ أعِيشَ مَهينا

أنّي أُعزّي عارفيكَ بزرةٍ
حَرَّى وصَبْر لا يزالُ مَكينا

أرواحُنا لله... إنْ بَقِيَتْ لَنا
عِشْنا، وأَنْ نُقِلَتْ إليهِ رَضينا

****

بمناسبة العيد الأول لقيام باكستان

اليوم، ولّى بباكستان ماضينا
نَجِسٌ وقْعَ خُطَاهُ في مغانينا
هَبَّتْ بهِ نَسَماتُ البعثِ، وانطلَقَتْ
تَهُزّ كُلّ دِفينٍ هاجِعٍ فينا
لما استهلّتْ على الدّنْيا بَشَاشَتُهُ
تَلَفَّتَتْ أُفُقُ الدُّنْيا تُحيّينا
يَوْم مِنَ الدّهرِ، لَمْ تَصْنعْ أشِعّتَهُ
شمسُ الضُّحى، بل صَنَعْناهُ بأيْدينا
قَدْ كَوَّنتهُ ألوفٌ من جماجِمِنا
وجَمَّعتْهُ قرون من مآسينا
نَسيجُ أضوائِهِ البَيْضا دَمٌ عَبِقٌ
سالَت بِهِ مُهَجُ الطُّهْرِ المُضَحّينا
فكلّ ثانيةٍ منهُ لو انْتَسَبَتْ
عُدَّتْ سُلالَةَ أُسْدٍ من أوالينا

أطَلَّ يَغْسِلُ عن أجوائنا، ظُلَمَ
الدُّنْيا، ويَعصِمنا منها ويُنجّينا
يَأوي إلى كلّ جرحٍ من جوانِحِنا
منهُ شُعاع يُعَزّينا، ويأسونا

*****

في العيدِ، نَذَّكِرُ الآلامَ ذاهبةً
عنّا، فتُغضِبُنا الذكْرى وترضينا
لقدْ دفَعنا لها الأرواحَ غاليةً
لكنْ كَسَبْنا الغَوالي من أمانينا
ما أكرمَ الشُّهداءَ الطّهرَ إذْ وهَبوا
لنا الحياةَ، وذاقُوا الموتَ راضينا
أيامَ كانَ الصِّراعُ المرّ يُطعِمُ
أفْواهَ القُبورِ ملايينًا ملايينا
وكانَ روحُ كتابِ اللهِ، يبعثُ
جندَ اللهِ للمَوْتِ تَيّاهينَ زاهينا

أبى لهُم دينُهم، أن يتركوا بقراً
تمحُو السمٰواتِ أو تُلْغي النّبيّينا
وأنْ يُذلّوا لأصنامٍ، وقد جَعَلَ
الإسلامُ عِزَّتَهُم في دينِهِم دَيْنا
وأَنْ يصيروا، وهُمْ أُسْد زَعانِفَة
وأنْ يكونوا، وهُمْ كُثْر قليلينا
وأنْ تَضيعَ قُوى الرّوحِ التي صُنِعَتْ
في ألفِ عامٍ لهُم صُنْعاً وتكوينا
أو يأخذوا مِنْ يَدِ الرحْمٰنِ ما وهبتْ
مِنَ الكنوزِ فَيَعْطُوها الشياطينا

****

لمّا وفَوْا بعُهودِ اللّهِ واتّخذُوا
على الكفاحِ وعاشوا مُسْتَمِيتينا
هَبَّ «الجَناحُ» فلبّاهُمْ وطارَ بهِم
إلى مَعَاقِلِهِمْ، غُرّاً مَيامينا

أراهُمْ، آيةَ اللهِ التي كُتِبَتْ
للمؤمنينَ بها عِزّاً وتمكينا

والأرضُ للّهِ ، لا يُلقي مَقادَتَها
للعاجزينَ ولا يُعْطي الأذَلينا

لم يَدْخُلوا ساحَها كالسائلين لِمَنْ
فيها، ولكن أتوا كالسيلِ غازينا

الأرضُ أرضُهُمْ فيها جدودُهم
ماتوا أعزاءَ أبطالاً ميامينا

فهُمْ إذا بحثُوا عن نِسْبة، وجدوا
آباءهم في رُباها التِرْبَ والطينا

*****

إني لأنْظُرُ باكستانَ في عَجَبْ
منها يُتَيّمُنا فيها، ويُصْبينا

بناؤُها الشامخُ العِمْلاقُ يتركُنا
مِنَ الذهولِ حَيارى مُسْتَهامينا

كيفَ اخْتَفَى وانطوى دَهْراً فلم ترَه
مِنْ قَبْلُ إلاّ عُيونُ العبقرِينا
كانت حقيقتُه من قبل «قائده»
وقبلَ «إقبالِهِ» وهْماً وتَخْمينا
إنَّ الحقائقَ قد تَخْفى، وإنْ كَبُرَتْ
وقد تزولُ بتَضليلِ المضلّينا
لولاهما، كان هذا الصبْحُ منقلباً
ليلاً، وهذا البناءُ الضَّخْم مدفونا
وكانَ هذا الذي يُذْكي عَزائِمنا
عِبْئاً مِنَ الهَمِّ يُشْجينا ويُبْكينا

****

في استقبال الدكتور عبد الوهاب عزّام عند قدومه سفيراً لمصر في باكستان بفندق متروبول كراتشي.

أهْـلاً بـعـزامٍ، وسَـهْـلاً بِـهِ
مِـنْ شَـعْـبِـهِ جـاء، إلـى شَـعْـبِـهِ
تَـنَـالُ بـاكـسـتـانُ مـن رُوحِـهِ
مـا نـالَ وادي الـنّـيـلِ مِـن قَـلْـبِـهِ
كِـلاهُـمـا، يَـكـسِـبُ مِـنْ عَـطـفِـه
ومِـنْ أيـاديـهِ، ومِـن حُـبِّـهِ
كـلّ امـرئٍ يـحـسِـبـهُ مِـنْ هَـوًى
يُـنـمـي إلـى أهْـلـيـه، أوْ سِـرْبِـه
وكـلّ قُـطْـرٍ زَاعِـمٌ أنّـهُ
مـن مـائِـهِ صِـيـغَ، ومِـنْ تُـرْبِـهِ
وكـلُّ أُفْـقٍ يَـدَّعـيـه لَـهُ
مِـنْ زُهـرِهِ الـغُـرّ، ومِـنْ شُـهْـبِـهِ

الـدِّيـنُ يـدعُـوهُ إلـى رَبِّـهِ
والـعِـلْـم يُـضْـبِـيـهِ إلـى كُـتْـبِـهِ

والـشِّـعْـرُ يَـبْـغِـيـهِ لأحـلامِـهِ
هَـيْـمـانَ، فـي الـرَّوْضِ، وفـي دَرْبِـه

والـوَطَـنُ الـمُـخْـتَـلُّ يَـشـكـو لَـهُ
خَـطْـبـاً، ويَـدْعـوهُ إلـى طِـبِّـه

يَـسْـتَـنْـجِـدُ الـرَّحْـمَـةَ فـي قَـلْـبِـهِ
ويَـسْـتَـمِـدُّ الـرَّأْيَ مِـنْ لُـبِّـهِ

والـقَـلَـمُ الـشَّـاعِـرُ فـي أَنْـمُـلـي
يُـنـازِعُ الـكُـلَّ عـلـى جَـذْبِـهِ

آخُـذُه رِفـقـاً، فـإنْ لَـمْ أفُـزْ
بـالـرِّفْـقِ صَـمَّـمْـتُ عـلـى غَـصْـبِـهِ

فـهـو الـمُـنـى مَـنْ حـازهـا كَـفُّـهُ
فـالـصَّـيْـدُ، كُـلُّ الـصَّـيْـدِ فـي كَـسْـبِـهِ

****

يَا كَرَم النِّيلِ، ويا جُودَه
لِكُلِّ قُطْرٍ ضَجَّ مِنْ جَدْبَهُ
بَعَثَتَ أحْلى جَدْوَلٍ سَلْسَلٍ
تُذِيقُ باكسْتان مِنْ عَذْبِهِ

أنهارُ «بَنجابِ» به تلتَقي
لُقْيا جَوٍّ وافى إلى حِبِّهِ
قد طالَما هامَ إلى وِرْدِها
وطالَما هامَتْ إلى شُرْبِهِ

هَشَّ لَهُ تَيّارُها، وازدَهى
زَهْوَ الثَّرَى هَشَّ إلى سُحْبِهِ
تَعبَّهُ عَبّاً، ويَعدو بهِ
خِضَمّها، نَشوانَ في وَثْبِهِ

فكلّ مَوْجٍ، طامِحٌ شَامِخٌ
كأنَّهُ الأهرامُ، في عُجْبِهِ

وكلّ نَبْعٍ، واثِبٌ صاخِبٌ
كأنَّ رُوحَ النّيلِ تَجْري بِهِ
****
عزامُ، يا مَن روحُهُ شُعْلَةٌ
تكشِفُ للشّرْقِ دُجى خَطْبِهِ
يا هِبَةَ النّيلِ، إلى أمَّةٍ
تَهيمُ في النّيلِ، وفي شَعْبِهِ
أنظر إلى الإسلامِ ما بالُه
أجْمَعَتِ الدّنْيا على حَرْبِهِ
قاطَعَه، حتى حَواريّه
وأجْفَلوا عنهُ، وعن قُربِهِ
عَلامَ هذا الخوفُ مِن نورِهِ
وفيمَ هذا الضيقُ من رَحْبِهِ
وكيفَ نَخْشاهُ على أُمَّةٍ
مِنْ روحِهِ صيغَتْ، ومِنْ كَسْبِهِ

سادَتْ على الدُّنيا بسلْطانِهِ
وراعتِ الأعداء مِنْ غَضْبه
وجاءَ عَهْدٌ جاهِلٌ ما انطوى
من مجْدِهِ الماضي، ومِن غَيبِهِ
يأخُذُ عَنْ أعدائه رأيه
في سَعْيِهِ الأعمى، وفي دَرْبِهِ
ويقْبَلُ الزَّغْمَ بأنَّ الدواء
في كَفِّهِ يُفْضي إلى نحبِهِ
يَخْجَلُ من رُوحٍ، به أغْرَقَتْ
كأنَّما يخْجَلُ مِن ذَنْبِهِ
وأنْظُرْ إلى الأوطانِ مَنْكوبَةً
تخبِطُ في الليْلِ، وفي رُعْبِهِ
في كلّ أرضٍ وطَنٌ موثَقٌ
يَعيشُ في القَيْدِ، وفي كَرْبِهِ

قد عَقَّهُ الخارجُ مِن صُلْبِهِ
وخانَهُ النّابِتُ مِنْ تُرْبِهِ
قَسَوْا عليه، وهُمُ أهلُه
في مِحْنَةِ الدهرِ وفي خَطْبِهِ
قد شاركوا الطّاعِمَ من لحمِهِ
وساعَدوا الغاصِبَ في غَصْبِهِ
يَرْتَزِقُ الخائِنُ مِنْ بَيْعِهِ
ويأكُلُ الظالمُ مِنْ نَهْبِهِ
والنادِبُ الباكي على نَعْشِهِ
يَسْعَى مع السَّاعي إلى صَلْبِهِ
ألْسِنَةٌ تَهْذي لتَضْليلِه
وأَنْمُلٌ تَمْتَدُّ في سَلْبِهِ
يُعْطُونَهُ في خَطْبِهِ أدْمُعاً
تَزيدُ في الخَطْبِ وفي جَلْبِهِ

مـا فَـعَـلَ الإسْـلامُ فـي شَـرْقِـهِ

مِـنْ أجْـلِ كَـشْـمـيرٍ، وفـي غَـرْبِـه

يَـسْـتَـنْـجِـدُ الـجُـرْحُ بـنـا صـارِخـاً

فـنُـمْـسِـكُ الأيـديَ عـن رأيِـهِ

فـمـا هـو الإسـلامُ مـا شـأنُـه

ومـا انـسِـيـاقُ الـنّـاسِ فـي رَكْـبِـهِ

إنْ كـانَ لَـفْـظـاً خـاوِيـاً زائـفـاً

فَـلْـنُـجـمِـعِ الأمْـرَ عـلـى شَـطْـبِـه

أوْ كـانَ شَـراً فَـلْـنُـنَـدِّدْ بِـهِ

ولْـنُـطْـلِـعِ الـدّنـيـا عـلـى ثَـلْـبِـهِ

أو كـانَ جُـبْـنـاً أن يـرانـا الـوَرى

مِـنْ زادةِ الـديـنِ ومِـنْ حِـزبِـهِ

فـهَـا هـي الـيـابـانُ مـا بـالُـهـا

لَـمْ تَـقْـتَـفِ الـغَـرْبَ ولَـمْ تُـشْـبِـه

أَلَيْسَ يُرْضي الغَرْبَ منَّا سوى
أنْ نَنْزِعَ الأرْواحَ في حُبِّهِ
ألَيْسَ يَكْفيهِ، بأنّا نُرى
في قَيْدِهِ العاتي، وفي ثَوْبِه؟

*****

عزام، هذي زَفْرَةٌ أُطْلِقَتْ
مِنْ لَهَبِ الروحِ ومِنْ ذَوْبِهِ
ثارَتْ على صمتي، وضاقَتْ بِهِ
وفَجَّرَتْ دَمْعِي، مِنْ غَرْبِهِ
في مَوْكِبِ اللّقْيا يَذيعُ الهَوَى
ويخرجُ المَسْتورُ مِنْ حُجْبِهِ
ويَذْهَلُ العاشِقُ عَنْ عَقْلِهِ
وَيَكْشِفُ الهَيْمَانُ عَنْ قَلْبِه

*****

ميلاد القائد الأعظم الباكستاني
محمد علي جناح

كتبتُ للإذاعة الباكستانية في ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٧١:

عصورٌ مِنَ الدَّيجورِ أنجَبْنَ كَوْكَباً
أنزَنَ بهِ شَرقاً، وأدْهَشْنَ مَغْرِبا

محَوْنَ بهِ أثامَهُنَّ التي مَضَتْ
وأنْهَضْنَ مِنْهُ حَظّهُنَّ الذي كَبَا

وأخْرَجْنَ شَعباً، كانَ كَنزاً مُضيّعاً
تُراقِبُهُ الدّنيا، وسرّاً مُحْجَبا

يَعيشُ بسجنٍ مِنْ رُقًى، وطلاسِمِ
أسيراً صَمُوتاً، خائِفاً، مُترقّبا

أخَفَّ مِنَ الأوهامِ وقعاً على النّهى
وأنأى عَنِ المَوْتى، وأخفى مِن الهَبَا

تُطِلّ عَلَيْهِ الشّمُسَ عَمْياً كليلةً
كأنَّ بها مَسّاً مِنَ السّحرِ مُغْرِبا
إذا وَهَبَتْهُ ساطِعاً مِن ضِيائِها
تحوَّلَ مِنْ فِعلِ الطّلاسِمِ غَيْهَبا
*****
وجاءَ جَناحٌ كَوْكَباً في شُعاعِهِ
عيونٌ مِنَ الأقْدارِ تَجْلو المُغَيّبا
صَحا من سِناه الشّعبُ والتفَّ حولَه
يداً حُرَّةً طُولى، وجَيشاً مدرَّبا
وَهَبَّتْ إليهِ أُمَّةٌ مِنْ قُبورِها
هُبوبَ اليتامى يَنْشِدونَ لهُم أَبَا
رأَتْ نفسَها في ضوئِهِ، فتكشّفَتْ
لها، واستبانَتْ أمرَها المُتشعّبا
وكَانَتْ، قد ارتابَتْ قديماً بنفسِها
وشكّتْ، كمَنْ قد شكَّ فيها، وكذَّبا

فألفَتْ قوًى مَذْخورَةً في كيانِها
وجيلاً مِنَ الإسلامِ رَيّان مُخْصِبا
وعَزَّ عليها أَنْ تراهُ مُكَبَّلاً
وتَتْرُكَهُ رَهْنَ الخُطوبِ مُعَذَّبا
فَنادَتْ جَناحاً كَيْ يُحلَّ وِثاقَه
ويَمْنَحهُ مِنْ رِبْقَةِ الذّلِّ مَهْرَبا
ويُعْطِيهُ وسْطَ الدّياجيرِ مَشْعَلاً
يشقّ لَهُ مِنه طريقاً، ومَذْهَبا

****

وفي كلِّ صَوْبٍ مِنْ ثَرى الهندِ أُمَّةٌ
تَلَوَّنَ فيها كلُّ شيءٍ، وأَغْرَبَا
تَجمَّعَ فيها كلّ جنسٍ، فمزَّقَ
التّجمّع منها كلَّ شيءٍ، وخَرَّبا
يُصَاقِبُ جارٌ جارَهُ، في ديارِهِ
حقوداً علَيْهِ، ثائِرُ النَّفْسِ مُغْضَبا

كأنَّهُما قِرنا وغَى، قد تربَّصا
بِحِضْنَيْهِما، واسْتَجْمَعا، وتلبَّبا

وأعْجَبُ أمْرٍ فيهُمُ البَقَرُ التي
تُثيرُ خلافاً دامِياً وتعصُّبا

فذا زاعمٌ فيها إلٰهاً مقدَّساً
وذا واجِدٌ منها غِذاءً مُحَبَّبا

*****

أَفي العقلِ، أَنْ تُبْنى مِنَ الحِقْدِ أُمَّةٌ
موحَّدةٌ أوْ تُرتَجى، أو تُرتَّبا

ويُترَكَ فيها شعبها متطاحِناً
تجمَّع في أحقادِهِ، وتألَّبا

أبى الله هذا، ما عَسى يصنعُ الوَرى
بأجمَعِهِم فيهِ، إذا اللهُ قدْ أبَى

لقَدْ جَمَعَ الشَّيطانُ للكَيْدِ أَهْلَه
وأرْجَفَ بالأحْقادِ دَهْراً، وأجْلَبا

فـمـا هـو إلاّ أنْ رمَـى اللهُ نَـحـرَهُ

بِسَهْـمٍ إذا ما انْقَضَّ أَوْدَى وأغْـطَبا

وسَدَّدَ قَلْبَ القائِدِ الأعظَمِ الذي...

اصطَفاهُ لتَنْفيذِ المشيئةِ واجْتَبَى

فُـؤادٌ إلـٰهـيُ الـمَـشـيـئَـةِ كُـلَّـمـا

دَجى الخَطْبُ أذكى عزمَه فتَكَهْرَبا

تَرَعْرَعَ، في مَهْدِ الصِّراعِ، فصارَعَ...

الـلـيـالـي، وقـاسـاهـا، وذاقَ، وجَـرَّبـا

إذا نـزِلَـتْ فـيـهِ خُـطـوبٌ جـديـدةٌ

أجـدّتَ قـواهُ فـانـبـرى وتـأهَّـبـا

وعـاشَ «جناحٌ» في الـسّماءِ مُحَلِّقاً

طـمـوحـاً إلـى عـلـيـائِـهـا مـتـوَثِّـبـا

يكادُ إذا ما احْتَكَّ في النَّجْمِ يَشعل...

الـسُّـهـى كـثِـقَـابٍ مِـنْ ثِـقَـابٍ تَـلَـهَّـبـا

يُكافِحُ أعداءاً ويَصْنَعُ أُمَّةً
وَيَقْتادُ أساداً، ويُنْجِبُ أَعْقُبا

يولون: غالي في الطموحِ، وما دَرَوْا
بأَنَّ لَهُ قلباً مِنَ الأرضِ أرْحَبا

يُفكِّرُ فيما لا يُفَكِّرُ قومُه
بهِ، ويُريهِمْ أَبْعَد الأمْرِ أقرَبا

ويُشْعِلُ فيهِمْ من حماسٍ يحسّه
لرأي لَهُ لَمْ يَفْقَهوا منهُ مَطْلَبا

وأَثْقَلُ أعْباءِ العُلَى خَلْقُ أنْفُسٍ
تُضَحي لأمرٍ لا يزالُ مُغَيَّبا

****

نُحَيِّيهِ في يوم نُحسُّ شُعَاعَه
بِأَنْفاسِ ذِكْراهُ شِذِيّاً مُطَيّبا

نُحْيي بِذِكْراهُ النَّهارَ الذي بهِ
علَينا تَجَلّى، والقضاءُ الذي حَبا

إذا جاءَ هذا اليومُ، جاءَ وليدُهُ
«جُناحُ» فقُلنا فيهِ أهلاً ومَرْحَبا
وعادَتْ بهِ الدُّنيا جديداً وجدَّدَتْ
بهِ فَرْحَةً كُبْرى، وعيداً ومَوْكِبا
كذا يَقْهَرُ الأبطالُ مَعنى فنائِهِم
وما ماتَ مَنْ أَحْيا شُعوباً وأَنْجَبا

*****

صيحة البعث

أُلقِيت في أول اجتماع عام لحزب الأحرار اليمنين بعد عام ١٩٤٣.

سَجّلْ مكانَكَ في التاريخِ يا قَلَمُ
فهٰهُنا تُبْعَثُ الأجيالُ، والأُمَمُ
هنا القلوبُ الأبيّاتُ التي اتَّحَدَتْ
هنا الحنانُ، هنا القُربى، هنا الرَّحِمُ
هنا الشريعةُ من مشكاتِها لمَعَتْ
هنا العدالةُ والأخلاقُ والشِيَمُ
هنا العروبةُ في أبطالِها وَثَبَتْ
هنا الإِباءُ، هنا العَلْياءُ، هنا الشَّمَمُ
هنا الكواكبُ، كانت في مَقَابِرِها
واليومَ تُشْرِقُ للدُّنْيا، وتَبْتَسِمُ

هـنـا الـصـوارمُ مـنَ الأغـمـادِ ثـائـِرَةً
هنا الضياغِمُ في الغاباتِ تَصْطَدِمُ
هنا البراكينُ هَبَّتْ مِن مضاجِعِها
تَطْغى، وتَكْتَسِحُ الطاغي، وتَلْتَهِمُ
لَسْنا الأولى أيْقَظوها مِنْ مَراقِدِها
اللهُ أَيْـقَـظَـهـا، والـسَّـخـطُ، والألَـمُ
شَـعْـبٌ تَـفَـلَّـتْ مِـنْ أغْـلالِ قـاهِـرِهِ
حُرّاً فَأَجْفَلَ مِنْهُ الظُّلمُ، والظُّلَمُ
نَـبـا عـنِ الـسّـجـنِ ثـمَّ ارْتَـدَّ يَـهْـدِمُـهُ
كـيـلا تُـكـبّـل فـيـهِ بـعـدَهُ قَـدَمُ
قَدْ طالَما عَذَّبوهُ، وهو مُصْطَبرٌ
وَشَـدَّ مـا ظَـلـمـوهُ، وهـو مُـحْـتَـكَـمُ
لَـمْ يَـكـفِـهِـم، أنَّـهُ عـبـدٌ، وأنَّـهـمُ
أرْبـابُـه، ويـحـسِـبـونَ اللهَ دونـهـمـو
أذابَ مُـهْـجَـةً فـيـهِـم، فـمـا اعـتـرَفـوا
بها، ولا قَنِعُوا منها، ولا سَئِموا

*****

إنَّ القيودَ التي كانَتْ على قَدَمي
صارَتْ سِهاماً، مِنَ السَّجانِ تَنْتَقِمُ
إنَّ الأنينَ الذي كُنَّا نُرَدِّدُهُ
سرّاً، غَدا صيحةً تُصْغى لَها الأُمَمُ
والحقُّ يَبْدأُ في آهاتِ مُكْتَئِبٍ
وَيَنْتَهي بِزَئيرِ مِلْؤُهُ نِقَمُ

****

جُودوا بِأَنْفِسِكُمْ للحَقِّ، واتَّحِدوا
في حَزْبِهِ، وثِقُوا باللهِ، واعتَصِموا
لَمْ يَبْقَ للظَّالِمينَ اليومَ مِنْ وَزَرٍ
إلاّ أنوفٌ ذليلاتٌ سَتَنْحَطِمُ
إنَّ اللّصوصَ وإنْ كانوا جَبابِرَةً
لهُمْ قلوبٌ مِنَ الأطفالِ تَنْهَزِمُ
والشّعبُ لو كانَ حيّاً، ما اسْتُخِفَّ بِهِ
فَرْدٌ، ولا عاشَ فيهِ الظالِمُ النَّهِمُ

*****

رثاء شعب

بدأت المرثاة على أثر مصرع الثورة اليمنية الدستورية عام ١٩٤٨.

وأنا مُطارَد في الهند، هارب من البشر، محظور عليَّ أن أمشي على ظهر الأرض، اسمي مسجَّل في القائمة السوداء بمصر في عهد فاروق، فلما سقط الطاغية، وحررتنا ثورة ٢٣ يوليو أتممتُ المرثاة الضارية في حدائق قصر المنتزه بالإسكندرية بعد أن أصبح مِلْكاً للشعب:

وبذلك تحوَّل القصر الباذخ وجنانه الفيحاء بفضل الثورة المجيدة من محراب تُعبَد فيه سلالة الملوك وتتولّد عناصر الفساد وتلعب وترتع إلى ساحات يُجْلَد فيها الطغاة وتسحبهم فيها لعنات الشعب على وجوههم.

ما كنتُ أحْسِبُ أنِّي سوفَ أَبْكيهِ
وأنَّ شِعْري إلى الدُّنيا سَيَنْعيهِ

وأنني سوفَ أبقى بَعْدَ نَكْبَتِهِ
حيّاً أُمَزِّقُ روحي في مَراثيه

وأَنَّ مَنْ كنتُ أرْجوهُم لنجْدَتِهِ
يومَ الكريهةِ كانوا من أعادِيهِ

أَلْقَى بِأَبْطالِهِ في شَرٍّ مَهْلَكَةٍ
لأنَّهُمْ حَقَّقُوا أغلى أَمانِيهِ
قدْ عاشَ دَهْراً طويلاً في دياجِرِهِ
حتى انمَحَى كلّ نورٍ في مآقيهِ
فصارَ لا الليلُ يُؤذيهِ بظُلْمَتِهِ
ولا الصَّباحُ إذا ما لاحَ يَهْدُيهِ

*****

فإنْ سَلِمتُ فإني قد وهَبتُ لَهُ
خُلاصَةَ العمرِ ماضيهِ، وآتيهِ
وكنتُ أَحْرِصُ لو أنِّي أَموتُ لَهُ
وحْدي فِداءً ويبقى كلُّ أهْليه
لكنَّهُ أجَلٌ يَأْتي لموعِدِهِ
ما كلُّ مَنْ يَتَمَنَّاهُ مُلاقيهِ
ولَيْسَ لي بَعْدَهُ عمْرٌ وإنْ بَقِيَتْ
أنْفاسُ روحي تُفْديهِ، وتَرْثيهِ

فلَسْتُ أسْكُنُ إلاّ في مَقابِرِهِ
ولَسْتُ أَقْتاتُ إلاّ مِنْ مآسِيهِ
وما أنا مِنْهُ إلاّ زَفْرَةٌ بَقِيَتْ
تَهِيمُ بينَ رُفاتٍ مِنْ بَواقيهِ

*****

إذا وَقَفْتُ جَثا دَهْري بكَلْكَلِهِ
فَوْقي وجَرَّتْ بيافُوخي دواهيهِ
وإنْ مَشَيْتُ بهِ أَلقَتْ غَياهِبُهُ
على طريقِ شِباكاً من أَفاعيهِ
تَكَتَّلَتْ قوةُ الدُّنْيا بِأَجمعِها
في طَعْنَةٍ مَزَّقَتْ صدْري وما فيهِ!

*****

أَنَكْبَةٌ ما أُعاني أَمْ رُؤى حُلُمٍ
سَهَتْ فأَبْقَتْهُ في روحي دواهيه
أعوامُنا في النِّضالِ المُرِّ جاثِيَةٌ
تَبْكي النِّضال، وتَبْكِي خطبَ أهْليه

بالأمسِ كانَتْ على الطغْيانِ شامخةً
تجلوهُ عاراً على الدُّنْيا وتُخْزِيه

وارْتاعَ منها طُغاةٌ ما لها صِلَةٌ
بهِمْ، ولا كان فيهم مَنْ تُناوِيه

لكنَّهُمْ أنِسوها شُعلَةً كَشَفَتْ
مَنْ كانَ عُريانَ منهُم في مَخازيه

فأَجْمَعوا أمرَهُمْ للغَدْرِ، وانتدبوا
لكَيْدِنا كلَّ مأجورٍ، ومَشْبُوه

واسْتَكلَبَتْ ضِدَّنا آلافُ ألْسِنَةٍ
تَسُومُنا كلَّ تجريحٍ، وتَشْويه

مِنْ كلّ مُرْتَزِقٍ لو نالَ رشْوَتَنَا
أنالَنا كلَّ تَبْجيلٍ، وتَنْويه

وكلّ أَعْمَى أَرَدْنا أنْ نَرُدَّ لهُ
عَيْنَيه، فانفَجَرَتْ فينا لياليه!

وكلّ بوق أصمّ الحِسِّ لو نَبَحَتْ
فيهِ الكِلابُ لزكّاها مُزَكّيه
وألّبوا الشّعْبَ ضدّ الشّعبِ وأندَرَأوا
عَليْهِ مِنْ كلّ تضليلٍ وتمويه

****

يا شَعْبَنا نصفَ قَرنٍ في عبادَتِهِمْ
لَمْ يقبَلوا منكَ قرباناً تُؤدّيه
رَضِيتَهُمْ أنتَ أرباباً وعِشْتَ لهُمْ
تُنيلُهم كلَّ تَقْدِيسٍ، وتَأْليه
لَمْ ترتَفِعْ مِنْ حَضيض الرقّ مَرْتَبَةً
ولَمْ تَذُقْ راحَةً ممّا تُقاسيه
ولا استطاعَتْ دُموعٌ منكَ طائلةٌ
تَطْهيرَ طاغِيَةٍ مِنْ سَكْرَةِ التّيه
ولا أضَحَتْ إلَيْنا مَعْشَراً وقفوا
حَيَاتَهُمْ لكَ في نُصْحٍ وتَوْجيه

نَبْني لكَ الشرفَ العالي فتَهْدِمُه
ونَسْحَقُ الصَّنَمَ الطاغي فتبْنيه
نَقْضي على خَصْمكَ الأفعى فتبعَثُه
حيّاً ونُشْعِلُ مِصباحاً فتُطْفِيه
قَضَيْتَ عُمْرَكَ مَلْدوغاً، وها أنذا
أرى بِحِضْنِكَ ثُعْباناً تُرَبّيه
تَشكو لهُ ما تُلاقي وهو مَبعثُ...
الشَّكْوَى وأصلُ البلا فيما تُلاقيه
أحْلى أمانيهِ في الدُّنيا دُموعُكَ...
تُجريها ورأسكَ تحتَ النّيرِ تُحْييه
وجُرْحُكَ الفاغِرُ المَلْسُوعُ يَحْقِنُه
سُمّاً، ويُغطيهِ طِبّاً لا يُداوِيه
فلا تُضِعْ عُمْرَ الأجيالِ في ضِعَةِ
الشكوى فيَكْفيكَ ماضيه، ويَكْفيه

فَما صُراخُكَ في الأَبْوابِ يَعْطِفُهُ
ولا سجودُكَ في الأعْتَابِ يُرضيه
لا عُنقَكَ الراكعُ المذبوحُ يُشْبِعُهُ
بَطْشاً، ولا دمُكَ المسفوحُ يُروِيه
فامْدُدْ يَدَيْكَ إلى الأحْرارِ مُتّخذاً
منهُمْ مَلاذكَ مِنْ رِقٍّ تُعانيه
ماتوا لأجلِكَ ثمَّ انبَثَّ مِنْ دَمِهِم
جيلٌ تؤجِّجُهُ الذّكرى، وتُذكيه
يَعيشُ في النّكْبَةِ الكبرى ويجعَلُها
دَرْساً إلى مُقْبِل الأجيالِ يُمليه
لا يقبلُ الأرضَ لو تُعطى له ثمناً
عَن نهجِه في نضالٍ، أو مَباديه
قد كان يخلُبُهُ لَفْظٌ يَفُوه به
طاغٍ، ويخدَعُهُ وعْدٌ، ويُغْويه

وكانَ يُعْجِبُه لِصٌ يجودُ لَهُ
بلَقْمَةٍ سلّها بالأمْسِ مِنْ فيه
وكانَ يحتَسِبُ التمساحَ راهِبَه
القِدّيسَ من طولِ دمْعٍ كانَ يُجريه
وكانَ يَبذُلُ دُنْياهُ لحاكِمِه
لأنّهُ كانَ بالأخرى يمنّيه
وكانَ يرتاعُ من سَوْطٍ يلوحُ لهُ
ظنّاً بأنَّ سلامَ الرقِّ يُنْجيهِ
واليومَ قد شبَّ عن طوْقٍ، وأنْضَجَه
دَمٌ، وهزَّتْهُ في عُنْفٍ مَعانيه
رأى الطّغاةُ بأنَّ الخوفَ يَقْتُلَه
وفاتَهُمْ أن عُنْفَ الحقْدِ يُحْييه

****

قالوا انتهى الشعبُ إنّا سوفَ نَقذِفُه
إلى جَهَنّم تَمْحُوهُ، وتُلْغِيه

فلْيَنْطَفىء كلّ ومْضٍ مِنْ مَشاعِرِهِ
وَلْيَنْسَحِقْ كلّ نَبْضٍ من أمانيه
وَلْيَخْتَنِقْ صوتُهُ في ضجَّةِ اللَّهب...
الأعمى وتَحْتَرِقِ الأنفاسُ في فيه
لِنَشْرَبِ الماءَ دِماءً مِنْ مذابِحِه
وَلْنَحْتَسِ الخَمْرَ دَمْعاً مِنْ مآقيه
وَلْنَفْرَحِ الفَرْحَةَ الكُبْرى بمأتَمِهِ
وَلْنَضحَكِ اليومَ هُزوءاً مِنْ بَواكيه
وَلْنَمْتَلِكْ كلَّ ما قدْ كانَ يملِكُه
فَنَحْنُ أولى بهِ من كلِّ أهْليه
وَلْيَنْسهِ النّاسُ حتى لا يقولَ فَمٌ
في الأرضِ ذلكَ شَعْبٌ ماتَ نَرثيه

*****

وَيْحَ الخياناتِ، مَنْ خانَتْ ومَنْ قَتَلَتْ؟
عِزْبيدُها الفَظّ يُرديها وتُرديه

الشّعبُ أعْظَمُ بَطْشاً يومَ صَحْوَتِه

مِنْ قاتِليهِ، وأدْهى مِنْ دَواهيه

يَغْفو لكي تخْدَعَ الطّغيانَ غَفْوَتُه

وكيْ يُجَنَّ جُنوناً مِنْ مخازيه

وكيْ يَسيرَ حَثيثاً صَوْبَ مَصْرَعِه

وكي يَخِرّ وشيكاً في مَهاوِيه

*****

عَلَتْ بروحي همومُ الشّعْبِ وارتفَعَتْ

بها إلى فوق ما قد كنتُ أَبْغِيه

وخَوَّلَتْني الملايينُ التي قُتِلَتْ

حَقَّ القِصاصِ على الجَلاّدِ أُمْضِيه

عِنْدي لشرّ طُغاةِ الأرضِ مَحكمةٌ

شِعْري بها شَرُّ قاضٍ في تَقاضيه

أدْعو لها كلّ جَبّارٍ، وأسْحَبُهُ

من عَرْشِهِ تحتَ عِبءٍ مِن مَساويه

يُحني ليَ الصَّنَمُ المَعْبُودُ هامَتَه
إذا رَفَعَتُ لَهُ صَوتي أُناديه
أقْصى أمانيهِ مني أنْ أُجَنِّبَهُ
حُكْمي، وأدْفُنَهُ في قَبرِ ماضيه
وشَرّ هَوْلٍ يُلاقيهِ، ويَسْمَعُهُ
صوتُ الملايين في شِعْري تُناجيه
وإنْ يَرى في يَدي التّاريخَ أنْقُلُهُ
بكلّ ما فيهِ للدنيا وأرْويه
يَرى الذي قدْ تُوفي حُلْمَ قافيَةٍ
مني فَيُمْعِنُ رُعْباً في توقّيه!!
ولَيْسَ يَعْرِفُ أنّي سوفَ ألحَقُهُ
في قبرِهِ ازْدادَ مَوْتاً، أوْ مَرائيه
أُذيقُهُ المَوْتَ مِنْ شِعْرٍ أُسَجّرُهُ
أشدُّ مِنْ مَوْتِ عِزْريلٍ قوافيه
موتٌ تَجَمَّعَ مِنْ حِقْدِ الشّعوبِ
على الطّغيانِ فازداد هَولاً في معانيه

يَؤُزّهُ في اللّظى غَمْزى، ويُذْهِلُه
عنِ الجَحيمِ، وما فيهِ، ومَنْ فيه

****

سَأَنْبِشُ الآهَ من تحتِ الثرى حِمَماً
قدْ أنضَجَتْهُ قُرونٌ مِنْ تَلَظِّيه
وأجْمَعُ الدمْعَ طوفاناً أُزيلُ بهِ
حكمَ الشّرورِ مِنَ الدُّنيا وأَنْفيه
أُحاربُ الظلمَ مهما كانَ طابعُهُ
البرَّاقُ أو كَيْفَما كانت أسامِيه
جَبينُ جَنْكيز تحتَ السّوطِ أجْلِدُه
ولحمُ نيرونَ بالسّفُودِ أَشْويه
سَيّانَ مَنْ جاءَ باسمِ الشّعبِ يَظْلِمه
أوْ جاءَ من «لندن» بالبَغْيِ يَبْغيه!
«حجّاجُ حَجّةَ» باسم الشّعبِ أطرُدُه
وَعُنْقُ «جنبول» باسمِ الشّعبِ أَلْويه

*****

الجامعة العربية

ترحيب بها عند قيامها

جيلٌ صحا دمُه وهَبْ
لبناءِ جامِعَةِ العربْ

ضَمَّ القُوى فيها بعصرٍ
... قد تداعى، واضْطَرَبْ

وبنى قواعِدَها على
أُسُسٍ من الماضي العَجَبْ

تُعنى بتوحيدِ المَصا
ئرِ، والمشاعِرِ، والعَصَبْ

شتّى شعوب ينتمي
دَمُها إلى أمٍّ، وأَبْ

كانَتْ دويلاتٍ تُصَغَّرُ
... في الشِفاهِ، وتُقْتَضَبْ

مـذعـورةٌ مـن كـلِّ

... شيءٍ هبَّ في الدُّنيا، ودبْ

وقَـفَـتْ فـلَـيْـسَ لـهـا خـطًـى

يَـئِـسَـتْ فـلَـيْـسَ لـهـا إربْ

وإذا بـهـا جـبّـارةٌ

مِـنْ وَهْـدةِ الـبـؤسـى تَـثِـبْ

****

نَـهَـضَـتْ بـقـلـبِ الأرضِ

... كالنَّبْضِ الشبابِ إذا التَهَبْ

فـي مُـهْـجَـةِ الـدُّنْـيـا تَـضُـجّ

... مِـنَ الـحـمـاسِ، وَتَـضْـطَـخِـبْ

فـي قـمـةِ الـعـلـيـا تُـحـكّـمُ

... فـي الـشّـعـوبِ، وتُـنْـتَـخَـبْ

تحمي السلامَ، ولا تُبَالي بالغَنيمةِ والسَّلَبْ

وَتَشِيدُ مجداً لا تريدُ بهِ التَعَدّي، والغَلَبْ

ولها مخالِبُ لَمْ تَلْطَخْ مِنْ دمٍ، أوْ تَخْتَضِبْ
الحقُّ فِي يدِها سلاحٌ للشّدائدِ يُنْتَدَبْ
ما إِنْ تقومُ لهُ السّفينُ؟ ولا النّسُورُ، ولا القُضُبْ
روح الحضارةِ: إنْ تَخلَّتْ عنهُ عاجَلَها العَطَبْ

****

طلعتْ على الأجيالِ تَنْفضُ مِنْ دياجيرِ الحِقَبْ
وتَلُمّ من شَمْلِ العروبةِ، ما تَصَدَّعَ، وانْشَعبْ
وتُعيدُ ما دَفَنَ الزمان، وما أضاعَ، وما سَلَبْ
الغربُ يَبْتَسِمُ في رِضى، عنها ويمرحُ في طَرَبْ
والشّرقُ يُبْعَثُ منْ جديدٍ في غلائِلِهِ القُشُبْ
يزهو بها زَهْوَ الوليدِ بِفَجْرِ عيدٍ مُرْتَقَبْ
وشَبابُ يَعْرُبَ من حوالَيْها كسورٍ مِنْ لَهَبْ
يتطلّعونَ إلى الأمامِ، وينظرونَ إلى الشُّهُبْ
جَمَعَتْهُمُ الأمّ الرؤومُ على الحنانِ كما تُحِبْ
أمنوا الطوارقَ في حِماها، واسْتَخفوا بالنوبْ

سبعونَ مِلْيُوناً تَحِنُّ إلى الحياةِ وتَشْرَئِبْ

فرضوا مكانَتَهُمْ على الدُّنيا كما كانَتْ تَجِبْ

مجدٌ عريقٌ لَنْ يُزَيَّفَ عِرْقُهُ، أوْ يُغْتَصَبْ

*****

إفتتاح دار الجمعية اليمانية الكبرى

ها هنا أحرارُ شَعْبٍ يَأْتَمِر
وعقولٌ نَيِّراتٌ تَزْدَهِر
ومشاعيلُ قلوبٍ تلتَقي
وبراكينُ شعورٍ تنفَجر
هٰهنا العزم الذي لا ينثني
هٰهنا البَأْس الذي لا يَنْدَثِر
هٰهنا الحق الذي دانَ لَهُ
كلّ شيءٍ دُونَهُ حتى القدَر
هٰهنا الشّعبُ الذي آلى على
نَفْسِه أنْ يَنْمَحي، أوْ يَنْتَصِر
أمةٌ شاءتْ بأنْ تَحْيا فمَنْ
يا تُرى يُرغِمها أنْ تَنْتَحِر
بُعِثَتْ مِنْ رَمْسِها جَبّارَةً
تتنزّى في حماسٍ مُسْتَعِر

حَطّمَتْ أَضْفادَها تمشي إلى
حقّها مَشيَ العَزيزِ المُقْتَدِرْ

****

هُمْ شبابٌ عاهَدوا اللّهَ بأَنْ
يَهِبُوا الأرواحَ لليومِ العَسِرْ
لا يُبالُونَ بما يَلْقَوْنَه
مِنْ صِعَابٍ وخُطوبٍ، ونُذُرْ
ثَبَتوا للظالمِ العاتي كما
يَثْبُتُ الصّدْقُ لكذّابٍ أشِر
أعْجَزَتْهُ منْهُمُ أفْئِدَةٌ
لَمْ يَزَلْ منها بنحسٍ مُسْتَمِر
سَخِرُوا مِنْ بَطْشِهِ وَهُوَ الذي
ساقَ شعباً بالعَصا سَوْقَ الحُمُرْ
حَقَرُوا أموالَهُ، وهي التي
لَمْ يَكُنْ يحسِبُها أَنْ تُحتَقَرْ

هي مَعبودَتُهُ، وهو يرى
أَنَّهُ يَعْبُدُها كلّ البَشَرْ

****

شَهِدَ اللهُ علَيْنا أنَّنا
نَبْتَغي الحقَّ وفيهِ نَضْطَبِرْ
ندفعُ الأخْطارَ عَنْ أُمَّتِنا
ونُلاقي دونَها كلَّ خَطَرْ
ونَحُطّ الصخرَ عَنْ كاهِلِها
ولَوْ انْحَطَ علَيْنَا واستَقرْ
تضحياتٌ هي أدنى ما على
كلّ ذي قلْبٍ وسَمْعٍ وبَصَرْ
وخُطوب مُرَّةٌ لكنّنا
لَمْ نجد دون لُقاها مِن مفر
مَن يَعشْ في الوطنِ الدامي يجد
أنّهُ دودٌ على جُرْحِ نغر

ويرى العيشَ حراماً ويرى
رِزْقَهُ من دمِ شعبٍ يَختَضِرْ
*****
راقبوا اللهَ فهذا شعبُكُم
بينَ أنيابِ المنايا يَنْتَظِر
هو شعبٌ إنْ يمُتْ تَقْتُلْكم
ريحُه قَتْلَ الوباءِ المُنْتَشِر
أو يَعِشْ في قربِكُمْ تلقوا به
عِزَّةَ الدَّهْرِ، وأمجادَ العُصُر
ليسَ في إيمانِنا مُعْجِزَة
لا ولا نملُكُ مِفْتاحَ القَدَر
لمْ نكُنْ غيرَ دُعاةٍ بينَكُم
صرخوا فيكم: فهلْ مِن مُزدجرْ
يا شَبابَ الجيلِ يا أبطالَه
أتنامونَ على وَخْزِ الأُبَر

أتــظــلّــونَ عــبــيــداً لــلــعــصــا

أتــريــدونَ لــنــا عــيــشَ الــبَــقَــر

انــظــروا مــا حَــوْلَــكُــمْ مــن عَــجَــبْ

واذْرسُــوا مــا فــي يــديكُــمْ مــن عِــبَــر

تــجــدوا الأرضَ جــمــيــعــاً حُــرَّةً

لا تــرى الــقَــيْــدَ بــهــا إلاّ انــكَــسَــرْ

*****

لــيــتَ (سَــيْــفَ الــحــقّ)[1] يــلــقــي أُمّــةً

لــقــيــت سَــيْــفَ ضــلالٍ وسُــعُــرْ

لــكــفــى كــلَّ كــئــيــبٍ بــائِــسْ

وشــفــى كــلَّ فــؤادٍ مُــنْــكَــسِــرْ

ونــجــا شَــعْــبٌ وعــاشَــتْ أُمّــةٌ

هــي فــي خَــلْــقِ الــمــنــايــا تَــنْــحــدِرْ!

---

(١) سيف الحق إبراهيم بن الإمام يحيى الأمير الذي كفر بالقرابة الصغرى قرابة العرش، وآمن بالقرابة العظمى قرابة الشعب.

أتَـرى الأمّـةَ لا تَـهـوى سِـوى
ظـالـمٍ قـاسٍ، وجـبّـارٍ خَـطِـر

قـدَّسُـوهُ ومَـشَـوا مِـنْ حَـوْلِـهِ
مِشْيَةَ الطّوافِ من حولِ الحجَرْ

فـي دُهُـولٍ لـيـسَ يَـذْرونَ بـمـا
قـد أتَـوْهُ مـن غـبـاءٍ وغُـرر

كـلّـهُـمْ يـصـنَـعُ شَـيْـئـاً لَـمْ يـرِدْ
صُـنْـعَـهُ لـكـنّـهُ جـمـع خـدر

هـي دنـيـا الـزَّيْـفِ والـمـكـرِ فـلا
عـاشَ فـيـهـا غـيـرُ شِـرّيـرٍ قَـذِر

*****

يا بحر

إنّي نديمُكَ أيها اللّسنُ
فأبْثُثْ إليَّ خَفّي أسرارِكَ
أفْصحْ فإنَّ النْاسَ ما فَطِنوا
ما قُلتَ في هذيانِ تيارك
لُغَةٌ كأنَّ الجِنَّ قد رَطَنوا
فيها وضجّوا ملء أغوارِك

*****

في حفلة العلم
بإحدى المدارس بعدن

علِّموا النشء في الحياةِ الصعودا، واخلقوهم بالعلم خلقاً جديدا
وابعثوهم من وَهْدةٍ قَبْع الآباء فيها دونَ الأنامِ رُقودا
قَنِعوا بالأحلامِ حيناً من الدهرِ فبادوا وخَلّفوا عبيدا
لم نجد مذ جئنا إلى الأرضِ إلاّ الجهل، والليلَ، والظلام الشديدا
ما نرى في الظهور إلاّ سياطَ العسف أو في الأقدامِ إلاّ القيودا
أُمَّةٌ في الفَلاةِ ضَيَّعَتْ النورَ فضلَّتْ فيها ضلالاً بعيدا
واستمرّت في حيرةٍ تَقطعُ العمرَ ولَمْ تَلْقَ للفَلاةِ حدودا
مُوِّهَتْ حولها الحقائقُ بالوَهْمِ فلَمْ تلقَ للحياةِ وجودا
فَتَجلَّتْ لها البغاثُ نسوراً، وتراءت لها القرودُ أُسودا!
وترى حيّةً فتَحْسبُها سُبْحَةَ مُسْتغْفِرٍ يُطيلُ السجودا
حيرةٌ في متاهةٍ تغرَقُ الأفهامُ فيها ولا تَحسّ الوجودا
ليسَ إلاّ بالعِلْمِ يستيقظ الشّعبُ، ويمحو عنهُ الخُطوبَ السودا

إنَّ في العلمِ بلسمَ العالِم الرازحِ تحتَ الشقاءِ دهراً مديدا

وجدوا فيهِ مُنْقِذاً من شرورِ الكونِ في طيّهِ حكيماً رشيدا

لو فقدنا رقاهُ أوشكتِ الدُّنيا بطغيانِ أهلِها أن تَبيدا

إنْ يكن شَجَّعَ الخرابَ فما خَرَّبَ شيئاً إلاّ ليَبْني جديدا

حسْبُهُ أنَّ حكمَهُ نافذٌ لا يجدُ العالِمونَ عنهُ محيدا

هو قانون اللهِ في الكونِ يجري، كلّ شيءٍ على هداه سديدا

تَتَمشّى لأمرِه الذرّةُ الصمّاءُ ويمْشي فيها قوياً وطيدا

*****

شكوى

ظَلَمَ الزمانُ، وجرت الدنيا، وقيّدني الأبد
كيفَ المصيرُ؟ وكلّ شيء في الحياةِ بلا رَشَد
الأرضُ ترجفُ بالمخاوفِ، والكواكبُ ترتَعِد
والشمسُ تنتَظرُ المَصَارَع في يدِ اللهِ الصَّمَد
وحَمَاقَةُ الإنسانِ تَحْفِلُ بالحياةِ وتَسْتَعِد
والحاكمُ الطاغي يجورُ على البلادِ، ويستبِد
(هذا جناهُ أبي عليَّ، وما جنيتُ على أحد)
يا ربُّ فاجْعَلْ هذه الدُّنْيا بنارِكَ تَتَقِّد
لو شِئْتَ تطلُبُ مَنْ يُطيعُكَ مِنْ بنيها لَمْ تَجِد
ولرُبَّ جبّارٍ يغِشُّكَ بالصلاةِ، ويَجتهِدْ
ويقولُ: عبدُكَ: وهو دونَكَ في الحقيقةِ قد عُبِد!
وإذا رأى مَنْ يَعْبدونَكَ ثار منه لكَ الحَسَد
نَسَبَ الجحودَ إلى الأفاضلِ، وهو أولُ مَنْ جَحِد
تَبْكي دماءُ الأبرياءِ براحَتَيْهِ إذا سَجَدْ

*****

حرب الطغيان الهتلري

حَطِّمي الأسْرَ يا أوربا وقومي
وانثري في الفَضا قيودَ الزعيم
ومُري يومكِ المقَدَّسَ يكسو
صفحةَ الشَّمْسِ من دماءِ القروم
وانثري في السماء أنفاسَكِ الحريَّ، وأنَّات قلبك المكلوم
فإذا هاجمتْكِ أجنحةُ الألمان يوماً تعثّرت بالجحيم
دمّري لعنةَ القيودِ فلمْ تعرف قيود تُؤدي بشعبٍ عظيم
لَنْ يُطيق الحديد أن يطبع العار على «المارن» الأشمّ الكريم
واسمَحي بالدماءِ فالمجدُ لا يُصنَعُ إلاّ من الدَّمِ المظلوم
إنْ صَوْنَ الأرواح يفسد ما فيها من العز، والإباء الصميم
إنَّ قَلْباً يحتَلّهُ شبحُ الذل، جديرٌ بالحَرقِ، والتحطيم
إنَّ عَيْشاً يُعْطى من الغاصِبِ الفَظّ لعيشٍ ملوَّث بالسموم

لا تخافي الرّدى فإنَّ حياةَ الذُّل مِلْك للمستبدّ الظلوم

إنَّ طعْمَ المنونِ عندَ أُباةِ الضَّيْمِ أحلى من الشِّفا للسقيم

وثبةُ الروس أنجدتك، وجاءتك لتحطيم كل عرشٍ أثيم

فثبي نحوَها لكي تَنْزَعَ المِخْلب من جرحك البليغ الأليم

وافتحي للعدُوِّ قبراً يوارى، مِن شَظايا جَبينه المحطوم

وأعدّي نعشاً لطاغية الدُّنيا لترمى أشلاؤه في الجحيم

وافسحي للحياة من صدرك الرَّحْب فقد زال عنك عهد الهموم

أطلقي الألسنَ التي سجَنْتِها، لهواة الوحشِ العنيدِ الغشوم

طهِّري الأعيُنَ التي أطبَقَ الليلُ عليها كل لونٍ دميم

وانظري الأفق كيفَ ينصب ناراً، تنثر الراسيات نثر الهشيم

واسمعي الأسد كيفَ تزأر ملء الأرض ملء السماء ملء السديم

هائماتٍ في الجوّ تَنْهَبُ الآجَال من شأوِها بهولِ الهزيم

كلّما دمدمت بآفاقِ «برلين» اجتوتها فأصبحت كالصريم

ربّ ماذا دهى القضاء وماذا حلَّ فيه من المُهولِ الجسيم

أجَحيمٌ تطير في الجوِّ طيراً، أم طيور ترعرعت في الجحيم

أم شياطينُ تحضرُ النارَ لا تخشى رجوماً لكنها من رجوم

أم نجومٌ ثارَ على الفلَكِ الدَّوار والكائنات والتنظيم

حُبْلياتٍ يلِدنَ للأرض أهوالاً ويُنْجِبْنَ كلَّ خطبٍ عظيم

يتنفّسْنَ عن رعود وبرق، ومَنايا مسوَدَّة وسموم

يتمخّضْنَ عن دُمى تقدح الحشر بنيران جَوفها المشؤوم

تنزوي الأرضُ والسماءُ إذا ما، وثبَتْ في المطارِ للتّحويم

حملت جُندها الأشاوس ينقضونَ منها كصاعقاتِ الغيوم

لم يبالوا غزَت بهم خطَّ «برلين» أمْ استفتحت قباب النجوم

ركبوا في الحديد والنار ناراً، وحديداً يجري بضوءِ العلوم

وتَباروا إلى الحصونِ كما ينقض صقْرٌ على العظام الهشيم

وتهاوَوْا مع القنابلِ في الجوّ فكانوا أبطالها في الهجوم

فَيْلَقٌ في السماءِ يكتسِحُ الأرضَ ويُذري حصونها في النسيم

*****

عيادة مريض

تَقَبَّلْ تحيّاتِ الكئيبِ المُفَجَّعِ
ولَهفة صبٍّ من شكاتِك موجع

وأنكَ إذ تشكو عضالاً فإنني
لأجلِكَ أشكو من فؤادٍ مصدَّعِ

وإنْ لم أكُنْ في الزائرينِ فإنني
أزورُكَ في شِعري وحُزْني وأدمُعي

*****

وداع طبيب دانمركي إنسان

يعود إلى بلاده بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

قِفْ بنا يا بنَ الغَرْبِ قبلَ الوداع
نَنْتَزِعْ مِنْكَ نَفْحَةً لليراع
جَمَعَتْنا بكَ الفضيلةُ من أقربِ حدّ لها وأقصى البقاع
أزْعَجَتْنا معاً جبابرةُ القهرِ وأوْدَتْ بنا طغاةُ الصراع
عُصبةٌ فَظَّةٌ رمَت بشعوبِ الأرضِ من حالِقٍ كرمي المتاع
فاجْتَمَعْنا كما تجمَّعَتْ الأنقاض في وحشةٍ من الاجتماع
ولقد شئتَ أن تعودَ إلى شعبكَ بعد الشتات والانصداع
وترى فيه أُمّةً أخرجَتها، قدرةُ اللهِ من بطون السباع
أنتَ أحرى بأن تَتيه وتختالَ وتزهو زهوَ الكريم الشجاع
وتجوز الأجواء همُك في النجم ومثواكَ في أُنوفِ القلاع
خرج الغاصبون من وطنٍ كدت عليه تقضي من الالتياع
تركوه لكم بغير قتالٍ، وتخلّوا عنه بدون نزاع

فُرَصٌ أنقذتكم وحظوظٌ، خوَّلتكُم ما ليس في المستطاع

كتبَ اللهُ أن يعيشَ بنو الإنسانِ في مأمنٍ من الأطماع

كلما استُعبِدوا بمخترعاتٍ، جاءهم منقذٌ من الاختراع

هكذا شاءت المقاديرُ أنْ تسخر من شهوة الذئاب الجياع

*****

دعيّ

ودَعِيٌّ في الشِعرِ لا يُحسِن إلشِعرَ ولكنه يجيدُ المزاعم

ينبُشُ الترب والحصا زاعماً أن القوافي قد خُبِّئت في المناجم

فإذا لم يجْدهُ في الأرضِ أضحى، ناقباً عنه رأسه بالمحاجم

وإذا سالَت الدماء، ولم تجرِ القوافي رأيتَ أضغاث حالم

*****

استقلال الهند وباكستان

أطـلـقَ اللهُ شَـعْـبَـهُ مِـن عِـقـالِـه

وأزالَ الـثـقـيـلَ مِـنْ أغْـلالِـه

وأعادَ الحياةَ للوطنِ الدامي ولمَّ الرفاةَ من أوصالِه

واصطفى الباكستان صفوة أرض الله خصبه وبأس رجالِه

طهَّرت جوَّه الملوّث أنفاسُ الضحايا العطشى إلى استقلالِه

ومحت كلَّ ما على الأرضِ من عارِ دماءُ الكماةِ من أبطالِه

*****

عادتِ اليومَ عزّة الشرق للشرق وأمسى الغريبُ فوقَ رحالِه

كَبُرَ الشرقُ أن يكون متاعاً، تافه الشأنِ في يديْ نشّالِه

هكذا تبلغُ الشعوبُ مُناها، ويفوزُ الغادي إلى آماله

والذي أخْرَجَ الغَريبَ رجالٌ، قُتِلوا في صراعِه ونزالِه

أنقذوا الهندَ ثم لم ينظروا الهند ولم يحضروا بيوم احتفالِه

هؤلاء المتوَّجونَ وإنْ ماتوا وإنْ ماتَ ذكرهُم من هُزالِه

كُتِبَ النصرُ للضحايا ولم يُكتَب لمن عاشَ سادراً في خيالِه

وإذا كان في التحرُّر عبءٌ، كانَ في الهندِ طاقةٌ لاحتمالِه

****

إنَّ في باكستان قلبَ جناحٍ، يستكن الإسلامُ تحتَ ظِلالِه

إنَّ في الشرقِ قوة الروح لا تبرحُ من أرضِهِ ومن أجيالِه

ولئن نامَ في الليالي الخوالي، فلقَدْ هبَّ من سُباتِ ضَلاله

مطلَعُ الشمس كان أخلقَ بالنّورِ وأولى بشمسِه وهلالِه

لكِ يا هندُ يومَ عيدٍ مجيد، ما أتَتْنا شمسُ الضُّحى بمِثالِه

هوَ عيدٌ للشرقِ تبرُزُ فيهِ، روحُ ماضي جهادِه ونِضالِه

وهْوَ سلوى لكلّ شعبٍ مُهانٍ، مُستضامٍ يئنُّ في أغلالِه

*****

محمد سيد الأنبياء

أطْرِقي يا سماءُ للشّعَراء

واسْمَعي للتّرحيب ملء الفضاء

جُذتِ للأرْضِ من نداكِ بأسمى

كوكبٍ من نجومِكِ الزَّهْراء

عَكَفَتْ حولَهُ القلوبُ عِطاشاً

تحتَسي من سَحَابَةٍ بيضاء

قَطَفْتَ للفَلا يدُ اللهِ أزكى

ثمرٍ من رِياضِه الغَنّاء

لم تلدْ مثلَهُ السماءُ ولم تُنْجِبُ له الأمّهات من أكفاء

صادَفَتْ حظّها الحياةُ وواتى

كلَّ قلبٍ ما يَبْتَغِي مِنْ هناء

عُرسٌ في الدُنا مُنير كأن الأرض فيه قد أصهرتْ من ذكاء

ظَهَرَ المصطفى اليتيمُ فراعَ النّاسَ ما فيه من سنًى وسناء

ذهبَتْ صوْبَهُ المماليك تستجديه من حكمةٍ ومن آراء

وتولّت عنهُ وجوهٌ تخلّت، من حياء وأفلست من ذكاء
كلّ عينٍ صغيرة لا ترى في الكون إلاّ صَغائر الأشياء
لَيْسَ فيما وراءها غير قلبٍ، مُسْتطار مُلَفّقٍ من هراء
كلّ نجم يأوي الفلاةَ غريبٌ، ما لهُ في البيداءِ من أقرباء
لمحوا نوره فقالوا سراب، يتراءى في وقدةِ الرَّمضاء
لَيْسَ يهدي من الظلامِ ولا تُشفى به غُلَّة العِطاش الظمّاء
وأَبَوْا أنْ يُصدّقوا أنَّ في طيّ الفيافي منابعاً للضياء
ما لهذا السّنَا يشبّ ويَنْمُو
في مَهَبّ العواصفِ الهَوْجاء
كيفَ تَسْتَوْلدُ المفازة نجماً
كيفَ تحنُو الصحراء على ابن السماء
ألِفوا الليْلَ والظّلام فكانوا، في شعاع الضُّحى من الغُرباء
ساءهم أنْ تكشّفتْ أوجُهُ الحقِّ وكانَت من غشّهم في غطاء
جزّعوا للشيطانِ إذْ فرَّ واسْتَخْفى من الوحي أيما استخفاء
وبَكَوْا للأربابِ حين توارت، عنهم في الحجارة الخرساء

خذلَتهم سيوفُهم حينَ ساموها قتال الملائكِ الحُنَفاء

واقشَعرَّتْ قلوبهم من ذهول، وتندّت وجوههم من حياء

ورأوا أنّهم يسيرون للهوّةِ من خطةٍ لهم عَوْجاء

****

نامت البِيد واستجمعت سيوفُ الهند من كل غارةٍ شعواء

وكأنَّ الديجور روحٌ مريضٌ، يتوخى علاجه من (حراء)

وكأنَّ اليتيم وسط دجاه، ثورة في خواطر الظّلماء

وكأنَّ الأصنامَ فيهِ طغاة، توَّجتْهُمُ سَخَافَةُ الأغبياء

أسرتهم صوارم الحقّ فانصاعوا إليها وأحضروا للقضاء

كَوكَبٌ ظلَّ حائراً ليسَ يدري، أينَ يلقى ما فيه من أضواء

ضاءَ في الغارِ وجهه ضوء مصباحٍ منيرٍ في مقْلةٍ عمياء

ومشى في الصحراءِ فألبَسها ظل فؤادٍ كالسّدرةِ العصماء

وأتى المسجد الحرام ليمحو، عنه دعوى أربابه الأدعياء

ورأى ملء البيتِ آلهةً صمّاء أودتْ بالأمةِ الصمّاء

وتحدّى قريش بالحربِ واستنزلَ أربابها إلى الهيجاء

وإذا بالأصنامِ محطومة الهاماتِ منثورة على البطحاء
وتدافعُ عنها أكفّ المصلّين لها أو عبادةُ السخفاء
غَرِقَتْ في بحرٍ من النّورِ لا تحيا به غيرُ أنفسِ الأذكياء
وتلاشَتْ تلك الألوهية النّكرا وطارت عروشُها في الهَباء
وتخلّى العبادُ عنها وقد كانوا أعدّوا أرواحهم للفِداء
وكذاكَ الجمهورُ عُشّاقُ أوهامٍ وعبّاد صولةٍ ورِياء!

****

طَلَعَ المصطَفى كما تَطْلَعُ الشّمْسُ بأعقابِ لَيْلةٍ لَيْلاء
فاستفاقتْ بهِ قريشٌ من السّكرةِ واستيقظتْ من الإغماء
ورأوا فيه غرة يتراءى، في سناها لهم شعاعُ الذكاء
تَتَجلّى كأنها فلك شعَّتْ رؤاهُ بكل ما في السماء
ينطقُ الحكمة التي سُكِبَتْ في، مصنع الشّمس والنجوم الوضّاء
ما بنى جملةً من اللّفظ إلاّ، وابتنى اللّفظ أُمَّةً من عفاء!
أطْرَقَتْ للتنزيلِ مكّةُ إطراقَ مشوقٍ إلى بشيرِ اللقاء
سمعَتْ منطِقاً عُجاباً عليهِ
مِسْحَةٌ مِنْ قداسَةٍ ورُواء

وكأنْ قد سالَتْ مساربها الطّهْر بفيضٍ من نَشوةِ الصهباء

غَسَلت ظلمةَ القرون الخوالي، ومَحَتْ ما في الكونِ من بأساء

****

سيّدَ المرسلينَ قُمْ، وانظر الأمة ماذا يُصيبها من شقاء

وتأمّل كم في الكواهلِ من نيرٍ وكَمْ في الرقابِ من أعباء

أطبقَتْ فوقَها الخُطوبُ فما تخلَص من شدَّةٍ ولا ضراء

جَرَفَتها السيول فانتثرت في شاطىء الدهر كانتثار الغُثاء

قَذَفَتْها العواصِفُ الهُوجُ للهُوّةِ من قمةٍ لها شمّاء

وهَوَتْ من علٍ فما بلغَ الهُوّة من جسمها سوى الأشلاء

أنبتَ الدَّهرُ في مضاجعها الشَّوك فلم تلقَ راحةً في وطاء

وتَولّى شؤونها كل وحشٍ، مرهفُ النّابِ مولّعٌ بالدماء

يأكلونَ الدُّنيا باسمِكَ مَكْراً، واختداعاً للسّذج الأغبياء

ويعِدّونَ غِشّهُمْ للملايينِ مراناً على فنونِ الدَّهاء

كيْفَ ضَلّوا عن الطريقِ التي عبّدتها في مناكبِ الصحراء

مضَتْ الأعصُر الطّوال وما زالت هدى المصلحين والحكماء

طُرُقاتٌ غُرٌّ يسيلُ بها في الأرضِ ضوء الشريعةِ الغرّاء

ألّفُوا من خُطاكَ روحَ القوانين وصَاغوا معارِج العُظماء

ينظِّمونَ الحَياةَ منها كما يُستَنْبَط النّطقُ من حروفِ الهِجاء

****

أُمَّةٌ لم تكن تُرى فوق سطحِ الأرضِ أسكنتها مكان ذُكاء

وحَبيسٌ في الغارِ يطمع أن يحتلّ في الأُفُقِ منكبَ الجوزاء

وفقيرٌ في الكوخِ يسمو إلى أن يجعل الأرض في يدِ الفقراء

ومسيمٌ للشاءِ يطمحُ أن يرعى ملوكُ الورى مكان الشاء

تُعْلِنُ الحربَ يا محمَّدُ للدُّنيا وما في يَدَيْكَ جَرعَة ماء!

وتُعادي في نُصرةِ الحقِّ كلَّ النّاسِ حتّى الأقارب الأدنياء

لستَ تدري تُثير حرباً على الأرباب أم تستعدي على الزعماء

شدّ ما قد لقيتَهُ في سَبيلِ اللهِ مِنْ كُربَةٍ ومِنْ لأواء

أيّ قلبٍ يُغنيكَ عن هذه الدُّنيا التي ما بها سوى الأعداء

*****

في محراب الإمام يحيى

أيـهـا الـظـالـمُ الـذي يـتـبـاهـى

أنَّـهُ ابـنُ الـوحـي أو سـبـطُ طـه

تـشـهـدُ الـنّـاسَ يـركـعـون حـوالـيـك

... دهـوراً ويـخـفـضـون الـجـبـاهـا

تـتـوخـى بـأنْ تـكـون شـريـكَ الله

... فـيـهـم أو أن تـكـون الله

لا تُـبـالي سـمِـعْـتَ أنـغـامَ مـوسـيـقـى

... تـغـنـيـكَ أو سَـمِـعْـتَ الآهـا

كـلّـهـا لـذّة الألـوهـيـة الـنـكـراء

... فـي سـمـتـهـا وفـي مـعـنـاهـا

وإذا جـئـت لـلـمُـصـلّـى رأيْـنـاك

... نِـفـاقـاً مـوحـداً أواهـا

إنْ تـكُـنْ أنـتَ مـؤمـنـاً بـإلٰـه

فـلـمـاذا تـكـونُ أنـتَ الإلٰـه

*****

يوم الجلاء

إلى شهداء الحرية في كل مكان

يوم عيد نلقى به الشهداء
ونراهم مباهجاً وهناء
صنعوا يومَ مصر ثمّ استحالوا
في ضحاهُ أشعّةً وسناء
لو نسينا يومَ الجلاءِ لكانوا
هُمْ بحقّ لفَجرَةِ الآباء

ولكانوا هم الموكب، والأفراح والمنشدين، والخطباء
فتحسسهم بروحك يا شعب، تجدهم في غورِها أحياء
وتراهم بعرقك النابض اليوم، حياة جيّاشة ودماء
وتلمسهم تجدهم لواء، وتجدهم حكامك الأوفياء
أنهم أنجبوا «جمالاً» وأصحاب «جمال» والنهضة الشمّاء
وهبوا للجلاء حياتهم الحمراء وأعطوكَ ثورةً بيضاء

حرروا عنقكَ الأسير، ولقوكَ الآباء الأبيّ والكبرياء

فانظر النير والقيود تجدها، كلها في الفضاءِ طارتْ هباء

وانطلق في الحياةِ والنور، فالسّجان في البحرِ يلفظ الحوباء

ضعْ مكانَ القيودِ منكَ جناحاً، وتأهّب للعَلياء أوغر السماء

****

نحن أصحاب هذه الأرض يا غرب، جناناً تكون أم صحراء

ومياهُ النّيلِ العذاب، حبتناها السمٰوات منَّة وعطاء

والدماء التي تضجّ بأعراقِ الملايين، نخوة وإباء

هي نبعُ الحياة فينا ملكناها لنحيَا، كما حييتم سواء

وبنونا الصغار نحن ولدناهم لنا، كي نراهم أبناء

والترابُ الطهور نحن سقيناه، لنمشي في مرجِه سعداء

وخلايا أجسامنا نبتت في تربةِ النيل، غضَّة سمراء

نتملى بها نصيباً من العيش، ونبقى أعزَّة شرفاء

كل هذا حقٌّ لنا فلماذا، جئتمونا في أرضِنا أوصياء

ولماذا أعددتم الجحفل الضخم، وجنّدتم الوحوش الظمّاء

أَحِفاظاً منكم على مصر من مصر، وعدلاً ورحمةً ووفاء

أتخافون أننا نخنق الأبناء منّا، ونحرق الآباء

أخشِيتم أن يغدر النيل بالشعبِ ويمحو جنانه الغنّاء

فلبثتم تقدمون ضحايانا إليه، وتستنكفونَ الدماء

ليسَ شيء من ذاكَ لكنكم كنتم لصوصاً على المدى، خُبثاء

غاضبتنا السماء فجاءت بكم في أرضِنا، لعنةً لنا وازدراء

فعملتم لكي نعيش عبيداً لكم في ديارنا غرباء

تقتلونَ البريء و تسجنون الحرّ منا، أو تسرقون الغذاء

فلئن كنتم جلوتُم وأقلَعتُم، فإنَّ الإنصاف ليس الجلاء

كل لحم فيكم ديون إذا لم، ترجعوها فلستم شرفاء

فدعونا لا نقتل البريء ولكنا، سنقسوا لنُنصِف الأبرياء

سوف لا نظلم الذئاب ولكنا، سنحمي من الذئاب الشاء

سنسلّ الآثامَ والسحت والطغيان منكم، والحقد والبغضاء

سنُذيقُ العبيد من نفحات الله، ضوءاً حراً وجواً رخاء

سنغيث المعذّبين ونحيا معهم أخوة لنا شركاء

ذاكَ شأنٌ لنا طُبِعْنا عليه، لا طغاة كنا ولا جبناء

لم نخَفْ أن نرى الحياة، ولا أن نجد النّاس حولَنا أحياء

****

أيها النيل كم رسفت على القيد، وكابدتَ من غزاة بلاء

ورأيتَ العدى يعبّون عبّاً، منك والقوم من بينك ظمَاء

وحملت الطغاة نيراً على عنقك والشعب أدمعاً، ودماء

نصبوا فوق صدركَ البر، أنياب الردى والمشانقَ النكراء

وأرادوا أن يجعلوا منكَ أفعى، تنفث السُمّ أو تبث الوباء

وأرادوا أن تشرب الدّم من قلبِ الضّحايا، وتأكل الأشلاء

وأذاقوكَ لحم أبنائكَ الغر الأولى قدموا الحياة فداء

حاولوا أن تكون قبراً، فأصبحتَ عريناً تروّع الدخلاء

كلما أطعموكَ جثة ليثٍ، صغتَ منه كتيبة خرساء

حسبوك النهرَ الوديع ستجري، كيفما وجّهوكَ رهواً رخاء

فإذا أنتَ كل قطرة ماء فيك، كانَت جمراً ولم تكُ ماء

وإذا أنتَ كنتَ أعمق غوراً من مقاييسهم وأمضى دهاء

رزعوا حولك السياط فما أنبت، إلاّ حرية وإباء

بذروا الشوك فاسْتحالَ بشطآنك، للشعب جنة خضراء

يا بني النيل كيف عشتم على النيل ظمّاء، تكابدون العناء

أنتم النيل هب من قمم التاريخ وأنصب، رحمةً ورخاء

لو بحثتم جذوركم وجذور النيل، كانت تلك الجذور السماء

كم طحنتم من الغزاةِ وأذللتم ملوكاً، وكَمْ دفعتم فداء

منهم مَن قدتموا إلى البحر مطروداً، ومنهم إلى الضفاف عفاء

وبقيتم أنتم على النيل حراساً، تؤدون حقّه أُمَناء

إنه اليوم فوق أعناقكم يجري، ويُلقي عليكم الأعباء

سحق الغاصبين سحقاً ومَن أولاهم، والملوك والأمراء

وأذاق الجيوش من مائه العذاب، سموماً أملَتْ عليها الجلاء

وغدا اليوم وحدة حاكم الشعب، يربي أبناءه كيفَ شاء

فاحذروا يا بنيه أن لا يراكم، حيث يلقى أبناءه الأوفياء

وزّعوا كل قطرة منه عدلاً بينكم، واصنعوا الحياة سواء
أنتم كلكم بنوهُ ولن يقبل إلاّ عدالة وإخاء
إنه صارَعَ الغزاة طويلاً، كي يراكُمْ من حولِهِ سُعداء
لن يربي فيكم طغاة، ولن يرضى لكم شقوة، ولا أشقياء
قد طردتم أعداءكم فاحذروا، أن تصبحوا اليوم أنتم أعداء
حسبكم نكبة العدو، وما مزّق منكم، وما جنى وأساء
قد تجاوزتم الحدود ولاقيتم، إخاء من خلفها ووفاء
وصنعتم من العروبةِ جيشاً، يتحدّى الأحلاف والحلفاء
وتسلّحتم بما قتل الأعداء غيظاً، وورع الأقوياء
وبعثتم وعي الشعوب فهبّت، تحطّم القيد أو تشيد البناء
وتهاوَت أصنامنا حذر النار وصارت قبل الحريق شواء
أيها الثائرون في مصر ثوروا كل يوم وعلمونا الفداء
قد قبستم في الصخرِ روحاً، وفي الثلج سعيراً وفي الغيوم ضِياء
حطّموا كل صخرة في طريق الشعب، فالشعب لا يُطيق إلتواء
قد صنعتم للصقر ريشاً، فلن يسكن سجناً ولن يرى السجناء

وقدحتم له شعاعاً فلن يروي صداه حتى يعبّ الفضاء

سوفَ نمحو الأصنام حيث وجدناها، ونُلغي وجودها إلغاء

سوف لا نخفض الرؤوس من الذُّل، ولا نُذرف الدموع بكاء

سوفَ لا نستجدي حقوقاً، ولا نشكو سياطاً ولا نداري داء

إننا نأخذ الحقوق ولن نقبلها، منحة، ولا استجداء

سوف لا يشتري الطغاة سوى عبد، نبذناه يستحق الرَّثاء

سوف لا تأخذ الخيانة إلاّ، هملاً من صفوفنا أو غثاء

سوف لا يشتري الطغاة سوى عبد، نبذناه يستحق الرِّثاء

كلما أطعموهُ سحتاً تغنّى فاتحاً فاه يستزيدُ العطاء

لا يُبالي يُبايع الله صبحاً، ثمَّ إبليسَه اللَّعين مساء

القاهرة ١٩٥٦

صفقة الأسلحة

«كانت صفقة الأسلحة وثبة من وثبات مصر المتحررة المستقلة وعاملاً هاماً في تغيير مجرى السياسة في الشرق العربي».

يا سلاحاً بالأمسِ كنتَ القيودا

أنتَ حرّرتنا ـ وكُنا العبيدا

كنتَ أنتَ الرجاء في أنفسِ الأحْرار

منا وكنتَ أنتَ النّشيدا

كم سمعنا الأغلال، وهي تناجينا

بأنَّ الحديدَ يفري الحديدا

كم بعثْنا إليكَ من ثورةٍ شعواء

وخضنا هولاً وبأساً شديدا

كم طلبْناكَ خلفَ كلِّ شهيدِ

غيرَ أنّا كنّا نراكَ الشّهيدا

أنتَ مغزى الدمع اليتيم وقد سالَ
علـى الأرضِ مسـتـطـاراً بـديـدا
ذرَفته الخيام ثكلى يخوض البؤس
والـكـرب والـدُّجـى والـجـلـيـدا
باحثاً عنك: أنتَ: لا يطلب العلم
الـمـرجـى ولا الأبَ الـمـفـقـودا
ضارِعاً للسّماءِ يستنزلُ الشّهب
سـلاحـاً ويـسـتـحـثّ الـرعـودا
إنه الدمع أوقَدَتْه عيونُ الثكل
حـقـداً حـتـى غـدا بـارودا
ارجفوا إنه سلاح على العربِ
حـرامٌ وهـددوا تـهـديـدا
وأرادوا ألاّ نـثـور، ولا نـأ
بـى، وألاّ نـحـيـا، وألاّ نـسـودا

ما علينا بأسٌ إلا ما فرشنا
في طريقِ المصفَّحاتِ خدودا
ما علينا إذا سكنّا خياماً
ما علينا إذا نزلنا اللحودا
إننا أمَّةٌ تسلَّحَتِ الصبر ونالت مقامه المحمودا
إننا جثة وما يزعج الجثة إن بدَّدوا بها تبديدا
إننا أمةٌ لها ألفُ سلطانٍ وتاجٍ ما ضرَّها أن تجودا
إنه الغرْبُ سوفَ يبعث للمريخ منا مَن صارَ منا طريدا
إننا نحنُ لاجئونَ نُلاقي
كرماً باذخاً وغوثاً وجودا
عجباً أمّةُ العروبةِ لا تَلقى
عنِ الغَرْبِ مهرباً أو محيدا
سجنت نفسها وشادت من الوهم جداراً صلباً وصاغت قيودا
وأشاعت في جوّها المشرق الوضّاء ليلاً مزيّفاً منكودا
وأتاحت للسوط أن يجلد الأحرار من أهلها أو يشوي الجلودا

أقسمت لا تفيض إلاّ على السجّانِ من حُبِّها وألاّ تجودا
وانطوت كالعذراءِ في ظلّه الأسود تبغي الرضا وتخشى الصدودا
نتوقى من بسمةٍ تعبُر السّجنَ
ومن نظرةٍ تجوز الحدودا
جرعَتْ ذلّه فما غيّرت وجهاً
عليه ولا أشاحَتْ جيدا
شبِعَتْ محنةً وضيماً ولكن حالها حال مَن يريد المزيدا
ما كواها الطغاةُ إلاّ وزادتهم حديداً لكيِّها ووقودا
أدرك الغربُ أنَّ خمسينَ مليوناً
ثراءٌ ضخمٌ يدرّ النقودا
أنهم أمة من العربِ العرباء، يعيشون في الظلامِ عبيدا
ما لهم مخلب يصول فهم لحم،
شهيّ وثروة لن تبيدا
لو أحسوا لأدركوا أن روح العصر في أرضهم تسود الوجودا
خطر... أن يدبّ في أرضِهم بعثٌ
وأن يعرفوا الطريقَ الرشيدا

هم صقورٌ إن لم يكونوا أسارى
هم حريقٌ إن لم يكونوا جليدا
لو صحوا صحوة تغيّر ميزان القوى واستحال شيئاً جديدا
ولأمسى الغربُ السعيد شقيّاً
ولأضحى الشرقُ الشقيّ سعيدا
فليكونوا دون اليهود سلاحاً
واقتصاداً أو فليصيروا يهودا
ذاكَ أمرٌ يريده الغرب إلاّ
ثورةً أرغمَتْهُ أنْ لا يريدا
إنها ثورةُ الشعوبِ أنارَتْ
في «جمالٍ» فتى جريئاً عنيدا
جمعت عزمها الملايين في زنديه يسطو بها قوياً جليدا
فمضى في رفاقه يحطّم القيد ويرمي على الحديد الحديدا
ويدكّ الأصنام حتى لخافَ النّاس ألاّ يروا لهم معبودا
مدَّ كفّاً للغربِ يبغي انتصافاً
للملايين أو يسيرَ بعيدا

واستخفوا به استناداً إلى الما
ضي وظنّوا اعتزامَه تهديدا
وإذا بالسّلاحِ يهبط مصراً
ويشقّ السّورَ العسيرَ العتيدا
وإذا بالقضبانِ تنماع كالثلجِ
وبالشّؤمِ يستحيلُ سعودا
وإذا العربِ من وراءِ «جمالٍ»
يُعلِنونَ الميثاقَ والتأييدا
أصبحوا كلهم «جمالاً» وصاروا
جحفلاً من ورائِهِ وجنودا
وانطوى العاجزونَ لا كيدهم يمشي
ولا جُبْنُهُم يُطيقُ الجمودا
وطغت فكرة الشعوب فلا استعمارَ في أرضِنا ولا تهويدا
وهوى الغربُ ذاهلاً مستطار اللبّ ينعي نصيبه المنكودا
كيفَ يلغي وجودنا؟ وهو إن نحن نبذناه لا يُطيقُ وجودا

هدأت فجأة جهنمه الغضبى
فكف الأذى وألغى الوعيدا

وصحا ينبش القرارات في شأ
نِ فلسطين علّها أن تفيدا

آمَنَتْ بالشعوب ذرّته الشنعاء
وكانت كفراً بها وجحودا

ذكرت حقنا العتيد وكادت
تتبنى الإسلامَ والتّوحيدا

هكذا الحقّ حين يلقى رجالاً
(كجمال) وحين يلقى أسودا

قوةُ اللّهِ لا تُتوج إلاّ
بطلاً من عباده صنديدا

صانها اللّهُ من هوانٍ فلم يكرم
ذليلاً بها ولا رعديدا

أيها الغربُ لا يغرّك أذناب

يطيلون في ذراكَ السّجودا

ويبيعونك الكرامة والذمّة

والعهد والوفاء والجدودا

أنهم يحفرونَ قبراً كبيراً

أنهم يطلبونَ أمراً بعيدا

لا تصدق بأن يبيعوك غير القبرِ شيئاً

ولا تكن موؤودا

إنّ من خلفِهم شعوباً تلظى

غضباً منهم وخيلاً حقودا

هم يتيهونَ في القصور وما

يدرون في الأرض تائهاً أو شريدا

وهم العمي لا يرونَ حوالَيهم

حريقاً ولا يرونَ الوقودا

وهم الغلف لم يرقوا الصرعى
في يديهم ولم يخافوا الشهودا

وهم الصمّ: كيفَ يهديهم همسٌ؟
وما يسمعونَ حتى الرعودا

وهم البُلْه يجهلونَ «جمالاً»
كيفَ أحيا الموتى وهزّ الرقودا

صارَ أقصى ما يفهمونَ من الدُّنيا
ثراء ورشوة ونقودا

*****

أيها الحقّ لا تَنَمْ قد بُعِثْنا
بعد موتٍ وقد نفضنا اللحودا

قد طردنا الوباءَ من جوّنا الحر
بعيداً، وقد كنسنا الدودا

قد يموت الجنود خلفك لكن
أنت يا حقّ تستحقّ الخلودا

يسقطُ الظالمون في الغربِ والشرقِ

وتبقى المُقَدَّسُ المعبودا

في يديكَ السِياط تجلد «نيرون»

وتشوي «فرعون» و«النمرودا»

القاهرة ١٩٥٦

العجوز وعسكري الإمام

«من قصيدة ضاع معظمها»

المرأة:

يا ربِّ كيفَ خلقت الجندَ ليسَ لهم
عـنـدي طـعـامٌ ولا شـاة ولا نـعـم

وَيـلاه مـالـي أرى وحـشـاً وبـنـدقـه
أذلّـك الـعـسـكـري الـغـاشـم الـنـهـم؟

العسكري:

نعـم أنـا الـبطل المـغـوار جئتُ إلى
عـجـوزة لـم يـهـذب طـبـعـهـا الـهـرم

إنّـا جـنـودُ أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فـلِـمَ
لا تذبحي الكبش يا حمقاء دونهمو؟

أيـن الـدجـاجـة؟ أيـن الـقـات فـابـتـدري
إنّـا جـيـاعٌ ومـا فـي حـيّـكـم كـرَم

المرأة:

يا سيدي ليس لي مالٌ ولا نشب
ولا رجالٌ، ولا أهلٌ، ولا رخم
إلاّ بُنَي الذي يبكي لمسغبةٍ
وتلكَ أدمعه الحمراء تنسجِم
وهذه البيد فاقطف من هواجرها
ما شئتَ إنّا إلى الرحمٰن نحتكِم
ماذا يريدونَ من جوعي ومسغبتي
إني لكالحملِ المشويّ بينهم
يطلبونَ زكاة الأرض؟ ليس بها
إلاّ الحمام وإلاّ الحجر والرخم
أم جزية الكوخِ لا كانت جوانبه
السوداء ولا نهضت في ظلّه قدَم

أمْ قيمة القبرِ قبل الموتِ وأسفاه

الكوخُ قبري فما للظالمين عموا؟

العسكري:

إنـــي إذن راجـعٌ لـلـكـوخِ أهـدُمُـهُ

يـا «شـافـعـيـة» إن الـكَـذِبَ دأبـكـمـو

*****

غربة

خذلَتني حتى المقادير لما
وجدتني في غمرة الهولِ وحدي
أتوقى من المصارع كيلا
يتناهى إليكُمُ الخَطب بعدي
لم أكن بالجبانِ لكن هواكم
فوقَ بأسٍ وفوق عزّي ومجدي
كلما أبت للحفاظ تصدى
لي هواكم فشلَّ كفّي وحدي
يطلبُ الهمّ للحريقِ وللتعذيبِ
مني أضعافُ لحمي وجلدي
وتريد العلى وقوداً من الأعصابِ
لم تَبْقَ ذرّةٌ منهُ عندي
قد ـ لعمري ـ أفلَسْتُ من كل صبر
كنتُ أحيا به ومن كل جهدِ
قد عصاني قلبي وجنّت أحاسيس
وثارت نفسي مع الدهرِ ضدي

البلبل

بعثت الضبابة يا بلبل
كأنَّكَ خالقها الأول
غناؤك يملأ مجرى دمي
ويفعل في القلبِ ما يفعل
سكبت الحياة إلى مهجتي
كأنكَ فوقَ الربى منهل
ترتل فن الهوى والصبا
شجياً وإن كنتَ لا تعقِل
وما الحُبُّ إلاّ جنون الحياةِ
وجانبها الغامض المشكل
غزتك إلى الوكرِ مأساته
ومسّك من خطبه المعضل
فضاقَ بك الروض في رحبِه
وأنتَ بأجوائه مرسَل

نكبت بما نكب العاشقون
وحُمِّلت في الحُبِّ ما حملوا
هدوؤك في طيِّه مِرجَل
وريشك من تحته مشعل
خفيفٌ على الغصنِ لكنما
فؤادك من لوعةٍ مثقل
أنينُكَ ينسابُ بين الغصونِ
كما انْسابَ من نبعِه الجدول
ويسري إلى القلبِ مسرى الحياةِ
وفيهِ من الوجدِ ما يقتل
حبيبك جارك بين الزهور
وبينكما دوحةٌ تفصل
ولسْتَ بعيداً على ناظريه
فما لكَ من أجلِهِ تعول
جناحك فيك فلِمَ لا تطير
إلى ما تحبّ وما تسأل

أَفي عالَم الطيرِ لؤمُ الوشاة
ومَن يتجسّس أو ينقل
وهل للبلابل دينٌ يصد
عن الحُبِّ أو آيةٌ تنزل؟
****
ألا أيها البلبل العبقري
والصادح المدره الفيصل
تنفّس فأنفاسُكَ الخالدات
روحُ الرِّياض التي تَرفل
جناحك آمن من ظلِّها
وريشك من زهرِها أجمل
وأنتَ السعيدُ الوحيد الذي
حباك الزمان بما يبخل
غناؤك للطبعِ لم تكترث
أضاعوا فنونك أم سجّلوا
وتُنشد وحدك ما إن تحسّ
بمن يُحتَفى بكَ أو تَحفل

وتأبى التصنّع بين الجموع
وإن صفّقوا لكَ أو هلّلوا
وتبكي لفنّك لا للخَطوب
وإن كان فيهنّ ما يُذهل
تغني وترقص في دوحةٍ
كأنّ أزاهيرَها محفل
ترحّب بالشمسِ قبلَ الشروق
كأن حِماكَ لها موئل
توهمتها وقفت نفسها
لو لو كرك ضيفاً به تنزل
كأنك حاتم في خِدْرِه
يُحيي الضيوف ويستقبل
أتوه فقيراً وفي صدره
فؤاد وفي فمِهِ مقول

١٥ ربيع الأول ١٣٥٦

١٦ فبراير ١٩٤٦

محمد محمود الزبيري

نقطة في الظلام

قصائد لم تُنشر من قبل باكستان ـ القاهرة

إلى زوجتي

بقلم: أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري

شعور الفراق البائس تجربة وجدانية مريرة، يعجز عنها الوصف، وهي لا تكاد تحدث إلاً عند المحكوم عليهم بالإعدام، وهم ينتظرون تنفيذ الحكم قابعين مستسلمين في ظلام الزنزانة.

هذا الشعور جرَّبته أنا شاعراً وسياسياً ومشرّداً ويائساً من وجود شبر على وجه الأرض يقبل وجودي إلاً المذبح في (حجة).

وفي مثل هذه الكارثة الوجدانية تنبعث من أعماق الحياة طاقة هائلة من الحب كانت كامنة خفية كخفاء القلب بين الضلوع.

والحبيب حيثما يطول الاجتماع سنين طوالاً، لا تنطفىء حرارة الشوق إليه، ولكنها ترسب في مخبئات الكائن البشري، وتنطوي في الخفاء وتصبح كأجهزة الحياة الكبرى مثل القلب والكبد والدماغ والرئة. هذه الأجهزة التي لا يراها الإنسان، ولا يشعر بوجودها ولكنها إذا تعرضت للخطر انكشفت أهميتها فجأة، ويرتاع الإنسان أعظم ارتياع لشعوره بهذا الخطر الذي يهددها.

بهذه المعاني شعرتُ نحو زوجتي حينما كنتُ بعد نكبة الثورة يائساً من لقائها يأساً تاماً.

القصيدة:

يا حبيبي أين أنت اليوم من لوعة قلبي أين أنت؟
أنت مثل الشرر الظالم أشعلتَ فؤادي وانطفأت
إنما بيني وما بينك من بعد النوى ما قد علمت
أنت خلق الهول، خلق الموت، خلق المستحيلات حبت
إنها آلاف أميال لو اجتزت خطاً منها هلكت
أنت لحم، ودم في الغاب طُعماً لدواهيه تركت
وكأني بك جوف الغيل[1] من طهرك عن عطف، وإشفاق بحثت
لم ترى في الغابِ غير الناب، والمخلب والأشواك نبَت
أسعد الأحياء من مزقت ما بين يديه وسلخت
كيف ألقاك ولو في الغيل أو أهواله أو حيث كنت
كنت إلفي فإذا ما غبت أدنى ساعة عني جزعت
ليت شعري كيف كابدت سنين البين ـ بعدي كيف عشت؟
ليتني أسلوك كي أحيا، ويا ليتك عني قد سلوت

(باكستان)

(١) عرين الأسد.

مقدمة

بقلم: د. عبد العزيز المقالح

بمناسبة صدور الديوان الثالث والأخير لشاعر اليمن وشهيدها الكبير الأستاذ محمد محمود الزبيري، والذي يضم ما لم يُنشر من قصائده، أسمحُ لنفسي بأن أتقدم بين يديّ ذلك الديوان بهذه الخواطر:

١ ـ الشاعر. . . والشاعر التاريخي:

منذ سبع سنوات تقريباً سألني صديقي في حوار نشرته مجلة "الحكمة" في حينه عن الفارق بين الزبيري وبين بقية شعراء اليمن الكبار، قلتُ له ـ كما لا زلتُ أتذكر ـ إن الفارق بينه وبينهم ـ وباختصار شديد ـ هو نفس الفارق بين الشاعر التاريخي والشاعر الكبير في المفهوم النقدي المعاصر. وسمات الشاعر التاريخي ـ كما أفهمها ـ هي تلك التي تجعل اسمه يرتبط بتغيير جوهري في تاريخ الشعر وإليه يُنسب ذلك التغيير.

ولتقريب صورة الشاعر التاريخي إلى ذهن القارىء يمكن إيراد أمثلة كثيرة من شعراء عرب وعالميين، ومن شعراء الأمم والشعوب والأقطار، فشكسبير مثلاً هو الشاعر الإنجليزي التاريخي، و"جوته" شاعر الألمان التاريخي، و"دانتي" شاعر إيطاليا التاريخي، ويمكن لفيكتور هيغو أن يكون شاعر فرنسا التاريخي، و"بوشكين" هو شاعر الروس التاريخي، وفي تاريخ الأدب العربي ـ كما أرى ـ شاعران تاريخيان، هما: امرؤ القيس الذي كان شعره مؤشراً لبداية الصحوة في الجزيرة العربية، وأبو الطيّب المتنبي الذي كان ظهوره إنذاراً باقتراب عصر الانحطاط والتراجع.

أما الشعراء العرب التاريخيون في العصر الحديث ـ إذا ما نظرنا إلى كل قطر عربي على حدة ـ فهم لا يكادون يزيدون عن أصابع اليد الواحدة، وهم: أحمد شوقي في مصر، ومعروف الرصافي وبدر شاكر السيّاب في العراق، وأدونيس في الشام، والزبيري في اليمن. ثم مَنْ؟ مَنْ هو الشاعر التاريخي الذي حمل صوته وجه هذا القطر العربي أو ذاك في ظروف معيّنة، وكان شعره علامة أساه وعافيته في منعطف تحوُّل ما، كما حدث بالنسبة لشوقي والرصافي والزبيري؟!. ومَنْ هو الشاعر التاريخي الذي شكّل صوته طليعة متمردة، وحمل ذلك التمرد طابع الابتعاد عن الخط التقليدي للشعر، كما حدث بالنسبة للسيّاب وأدونيس بالرغم من قسوة الأحجار التي يُرمى بها الأخير؟!.

والمعيار الذي تم على ضوئه الاختيار السالف للشاعر التاريخي عالمياً وعربياً ليس هو الشعر وحده وإلاّ لكان في اختيار الرصافي مثلاً قدر من الإجحاف في حق شعراء أكثر منه إبداعاً، ولو أن المعيار كان الموقف وحده لكان اختيار شوقي مجازفة غير مأمونة العواقب لأن مصر قد عرفت شعراء أكثر إلتزاماً واحتفاء بالدلالة السياسية والاجتماعية، الاختيار إذن تم على ضوء دراسة الأثر الجوهري للشاعر، وارتباطه العميق بالتغيير الذي حدث في لحظة تاريخية معينة، وكون ذلك الأثر مؤشراً لعملية تحوُّل ما أو استعجالاً لإشراقة تغيير ما في الحياة الثقافية أو في الحياة بأبعادها المختلفة. ولا يعنينا هنا التدليل على نوع التغيير الذي أحدثه شوقي، ولا البحث عن دور الرصافي أو السيّاب في عملية التحوّل وإنما يعنينا الزبيري، الشاعر التاريخي الذي سعى في سبيل التغيير ليس إلى أن كاد ينتعل الدماء ـ على حد تعبير حافظ إبراهيم ـ إنما إلى أن أنتعل الدماء حقاً وتعمم بالدماء حقاً، وكان ذلك في سبيل تغيير نظام الشعر ـ الثقافة ـ وفي

سبيل تغيير نظام الحكم ـ السياسة ـ وفي سبيل تغيير نظام الحياة بأكملها من خلال الكلمة وبالكلمة. ولا يستطيع أحد أن يُنكر أو يجادل في هذه الحقيقة إلا إذا استطاع أن يُنكر ضوء الشمس أو يجادل في حقيقة وجودها.

ومحنة الشاعر التاريخي وعظمته في آن، أنه يأتي في منعطف تاريخي حاس، ويكون همزة الوصل العميقة بين العصر والتراث، بين الحاضر والمستقبل، وهذه التاريخية تُلقي على كاهله العظيم مسؤوليات لا يحملها غيره، وتضع في رأسه من الهموم ما لا تضعه في رأس شاعر آخر وذلك لسبب واحد، هذا السبب ـ في تقديري ـ أنه قبل أن يكون، استجابة حقيقية لتحدي زمنه، وتأكيد طابع الابتعاد عن الخط التقليدي والمألوف لذلك الزمن. والزبيري ـ في ضوء هذا المفهوم لمحنة الشاعر التاريخي وعظمته ـ واحد من هؤلاء الشعراء التاريخيين الذين كان ظهورهم استجابة حقيقية لتحديات واقع اليمن في أهم فترة من فترات تاريخه المعاصر. ولم يكن استجابة على مستوى التعبير الشعري وحده وإنما هي ـ كما سلفت الإشارة ـ استجابة على مختلف المستويات، وقد تدرّج مع فكر شعبه ثقافياً من قصيدة المدح إلى قصيدة التحريض والثورة، ومن الخطبة المنبرية إلى الرؤية الثورية، وتدرّج مع فكر شعبه سياسياً وإجتماعياً، من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الجبهة الوطنية أو "جبهة التحرير اليمنية" كما سمّاها في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، والتي أرادها بديلاً للإتحاد اليمني، ولم تسعفه الظروف لتوسيع نطاق الجبهة التي بدأت في تجمّع ضيق وجاءت الثورة لتضعه أمام مسؤوليات أعظم وأخطر، وهذا جانب صغير من تصوّر الزبيري للجبهة (تتألف للقضية اليمنية هيئة للتحرير يُطلق عليها "جبهة التحرير" على غرار "هيئة التحرير

الجزائرية". يلقن الأحرار شعاراً واحداً وهو: "النصر أو الموت". ويوجه اليمنيين الثائرين إلى قوة من العون والمدد لا تنفد ملخّصة في كلمة واحدة وهي: "كل مالك وسلاحك في يد عدوك فخذه من عبيده وقاتله". مقر الجبهة غير ثابت وغير معلوم إلا للمسؤولين عنه. رجال الجبهة هم المشتركون في العلم المباشر ولهم أن يختاروا لمعاونتهم مَن يشاؤون ليساعدهم في الإدارة والتنظيم، وأن يعيّنوا قائداً في كل منطقة. الجبهة ليست إنشقاقاً عن هيئة أو حزب إنما هي التعبير العملي عن كل الهيئات والمنظمات والأحزاب، وهي تشبه أن تكون جهازاً تستخدمه العناصر الثورية كلها وتنخرط فيه وتساهم في تغيير الوضع الحالي بالقوة بعد أن أجمع الشعب كله على أن القوة هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البلاد مما هي فيه). وأهداف الجبهة ـ كما حددها الأستاذ الزبيري ـ هي:

١ ـ الجمهورية.

٢ ـ الوحدة اليمنية.

٣ ـ الوحدة العربية.

٤ ـ الإشتراكية.

٥ ـ التحرّر من الإستعمار والإقطاع والرجعية.

وفي تفسيره لمفهوم الوحدة يقدم الأستاذ الزبيري ثلاث ملاحظات هي:

١ ـ الوحدة الكاملة لجميع مناطق اليمن الطبيعية في ظل حكومة واحدة كخطوة أولى في سبيل الوحدة العربية الشاملة.

٢ ـ تحرير المناطق المحتلة من كل سيطرة استعمارية.

٣ ـ السعي بمختلف الطرق لتنفيذ ميثاق الاتحاد بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة، واعتباره الوسيلة الفعّالة الوحيدة للنضال الفعّال ضد الإستعمار، وتحقيق الوحدة.

(مخطوطة الزبيري)

وإننا نكاد نشعر أن ظهور بعض آثار الزبيري الفكرية قد تصيب بقية خصوم الزبيري بالذهول، وخصوم الزبيري الذين عرفهم وعرفناهم هم من الجانبين، من اليسار الطفولي المراهق، ومن اليمين الرجعي المتخلّف. بل هو الذهول قد لا يقتصر على خصومه هؤلاء وحدهم وإنما قد يصيب بعض أصدقائه، وعندما يتم نشر كتاباته ومذكراته سيجد الذين يدّعون معرفتهم للزبيري أنهم لا يعرفون عنه إلا القليل.

وسوف يدرك هؤلاء كم كانوا مخطئين في تقييم رجل استطاع أن يقول في أشد الظروف ظلاماً وإرهاقاً: إننا لا نستطيع أن نبني حاضرنا شعراً أو نثراً، إقتصاداً أو إجتماعاً على الماضي، ليس لأن الماضي ناقص، وإنما لأنه قد مضى وانقضى. وعندما يقرأ الناس في بلادنا من وثائق الزبيري ومذكراته سيعلمون حقاً أن هذا ينطلق من الواقع وليس من مثاليات نرجو أو نتصوّر بأنها يجب أن تكون، وسيعلمون أيضاً أننا لا نُنقّي وجه الزبيري النقيّ، ولا نبالغ في تضخيم صفاته أو نحاول التبشير به كإمام معصوم لأنه دفع عمره وحياته في محاربة الإمامة بكل أشكالها وألوانها، المعصوم منها والمستتر، اليميني منها واليساري، وأنه كان متنبّهاً كأقوى ما يكون التنبّه للذين يأكلون باليمين ويتحدثون باليسار، وأنه كان يكره بكل عواطفه أولئك الذين يحبون الإمام علياً لصلاته، ويحبون معاوية لمأدبته الدسمة!.

ومن العيب أن تمرّ هذه الخواطر ـ والحدث فيها ما يزال عن محنة الشاعر التاريخي وصدامه المرير مع عصره ومعاصريه ـ دون أن نشير إلى المحنة التي عاناها الزبيري من قسوة بعض معاصريه بسبب بعض قصائد المديح التي أُطلق عليها في وقت من الأوقات تسمية ظريفة ومثيرة هي "الوثنيات". وحاول بكل عبقرية بيانه أن يسوق لها من المبررات الحقيقية ما يكفي لتبرير كل مديح قاله ويقوله الشعراء على وجه الأرض، وحين كنتُ ـ منذ وقت قريب ـ أُقَلِّب في صحائف آثاره التي لم تُنشر أذهلني هذا العدوان وهذا الإيذاء قديماً ومبكراً ويجيء بعضه على شكل رسائل إعجاب وتهاني باللقب الذي أحرزه وهو لقَب (شاعر اليمن)، ولم تكن هذه الرسائل لتخلو من التعريض الذكي كالذي جاء في الرسالة التالية التي تلقاها الزبيري في (٤/ ٢/ ١٩٤٤م) قبل فراره إلى عدن، وكانت من صديقه المرحوم يحيى بن إسماعيل الوادعي الذي كان يومئذ يدرس الحقوق في بغداد. تقول ديباجة الرسالة:

"سيدي بلبل قحطان الصادح شاعر اليمن محمد محمود الزبيري، سلام عليك. عزيزي وددتُ منذ زمن مضى ـ هو على وجه التحديد منذ خطواتك بجوار قائد نهضتنا مولانا ولي العهد ـ أقول وددتُ حينئذ أن أهنئك على فوزك الرائع، ولكن قصّر بي الحظ عن هذا الواجب آنئذ. . . . ثم جدت مناسبة شيقة وهي تولّيك المنصب الذي ظلّ شاغراً منذ أجيال وأعني به رئاسة مدرسة الشعر اليمانية. . . ولا شك أن التوفيق حليف مولانا أيده اللّه ـ كما هو شأنه ـ حين أُسنِد إليك أفخم لقب أدبي ومما لا ريب فيه أن هذا الحدث سيضاعف على عبقريتك عبء المسؤولية تجاه أمتك ووطنك".

تلك ـ في رأيي ـ ما تزال الديباجة لأن الموضوع الجوهري للرسالة لم يأت بعد وهو السبب الذي دفع بالمرحوم يحيى الوادعي إلى كتابة رسالته هذه وربما يبدأ مع هذه السطور: "وليس بسرّ أن النشاط الأدبي في اليمن لم يُجار زملاءه في مختلف الأقطار فقصّر عنها وبالتالي نالت منه. ونحن الآن على أبواب نهضة عامة تعقد لواء آمالنا فيها على تاج مولانا شمس الدين، ولا بدّ أن تكون هذه الوثبة شاملة ويجب ألا نجهل بأن الفن وعلى رأسه الأدب، وقلبه النابض هو الشعر يجب أن يكون في الصفوف الأمامية في ميدان الرقيّ فهو كما نعلم ـ أو كما يجب أن نعلم ـ يحرث الأفكار ويسقيها ويطهّرها من الشوائب ويجمّلها، وإن بذرتَ فيها أو غرستَ فيها فصيلة لا تلبث أن تأتي ثمرها جنياً. وإني أُهيبُ بك إلى أن تولي النواحي الاجتماعية شطراً كافياً من ألمعيتك الشاعرة فإنها، فيما أحسب، سبيلٌ غير مطروق في بلادنا ونحن في أمسّ الحاجة إلى معالجتها. وهناك طريق لم يكتشفه بعد روّاد الشعر اليمانيون وهو الذي يسلك بالمجتمع صوب قوميتنا العربية المجيدة، ولا يُخفى ما لهذا الإتجاه من الأثر النافع في بعث معنوية الشعوب، فالتغنّي بماضي الأمة وأسلافها يجعل من الأمة رجالاً يعلمون ويقودون ويزدادون إيماناً بمبادئهم وتمسكاً بزعمائهم وتسري في عقولهم نشوة الغرور القومي.

وقد فهم إخواننا العراقيون الأثر الحسن في هذا الانتهاج، فعمل علماؤه وأدباؤه على إثارة حفيظته فكان لها التأثير الأكبر في نهضة العراق وسرعة خطواته وبلوغه المستوى الذي صار فيه في خلال عشرين عاماً أتاح اللّه له ولأقطارنا جميعاً المزيدَ النافع".

(من الآثار المخطوطة)

ولا أُنكر ما تنطوي عليه هذه الرسالة الذكية من وعي مبكر بالصحوة القومية، ومن إدراك لوظيفة الشعر وطنياً واجتماعياً، وأنها قد كانت بمثابة تذكير مقصود للأستاذ الزبيري حتى لا يستغرقه أدب الملوك وحتى لا يصادر القصر شعره لحسابه، لكن ما جاء فيها من أفكار لم يكن جديداً على الأستاذ الزبيري. فقد كتب في عام ١٩٣٩ قصيدة عن فلسطين كقضية أولى من قضايا الشعب العربي. وكتب في القاهرة في عامي (٤٠) و(٤١) مجموعة من القصائد ذات الإتجاه القومي، وكانت واحدة منها عن الوحدة العربية. لم تكن إذن أفكار الأستاذ الوادعي جديدة على المنطق الشعري عند الزبيري لكنها كانت جديدة على الواقع الشعري في يمن الأربعينات.

ومن استقراء أثر هذه الرسالة ومِن ردّ الأستاذ الزبيري نتبيّن أنه تقبّلها سعيداً معجَباً، ونتبيّن كذلك أنه كان ناقماً على نفسه وعلى سوء حظه الذي جعله يقترب من القصر مهما كان القصد شريفاً من وراء ذلك الاقتراب، ولعله لم يدرك ما وراء سطور تلك الرسالة من غمز ولمز إلا بعد أن قرأ مقالاً عجيباً في صحيفة (الرابطة) يدافع فيه الأستاذ يحيى الوادعي عن نظام الإمام يحيى ويهاجم كل الذين يتهمون ذلك النظام بالتخلّف والتحجّر وهو في ذلك المقال يُرجع أسباب التخلّف إلى الشعب نفسه. وهو ما جعل الزبيري يشك في نوايا الذين يأمرون بالبِر وينسون أنفسهم..

ولننظر أولاً كيف استقبل الزبيري رسالة صديقه الأستاذ الوادعي، وكيف أجاب عليها ساخراً من إمارة الشعر ومن إمارة المؤمنين أيضاً:

"سيدي الأديب الألمعي النابه الصيت يحيى بن إسماعيل الوادعي حيا اللّه عبقريته النادرة وبارك لنا في علمه وأدبه وجعله قرة عين لأمته.. تلقّيتُ كتابك الواصل إليَّ بواسطة صديق الجميع الويسي، ومن أعجب

المصادفات أن الأقدار شاءت أن تسخر مني وأن تهزأ بحياتي فلم يصل كتابك عمق الهوّة التي تفصل بيني وبينك فلم يصل كتابك إليَّ إلاّ في الوقت الذي كنتُ قد تربّعت على إمارة سوق الواجبات في سوق الأحد بوادي من أودية الشرمان بقضاء ماوية. ولما لمحتُ الكتاب وعرفتُ العنوان شعرتُ بهزّات عصبية عنيفة كانت نتيجة محتومة للصراع الفجائي الذي حدث عندي بين الحياة ولغة الموت، وبين الخواطر الاجتماعية الحكيمة وضوضاء السوق الشرمانية المضحكة، وقد ترفّقتُ بأعصابي وخبّأتُ الكتاب في حقيبتي وأرجأت الإطلاع عليه إلى فرصة أخرى. كنتُ في ذلك الحين مأمور سوق واجبات الشرمان، ومعنى ذلك أني قائد لثلّة من الجيش والحرس الملكي في المعركة التي تدور كل سنة على الأقل بين الأمة والحكومة في سبيل تحصيل ضرائب الزكاة من الفلاحين الضعفاء الذين لا يقابلون جيوش الزكاة الجرارة إلاّ بالدموع. وقد تعلمون يا عزيزي أن قائد الجيش يجب عليه أن يخدم التعاليم التي يتلقاها من الجهات العليا. ولو كانت تعاليم وحشية بربرية. وقرأتُ في كتابك أنك تريدني أن أطرق الشؤون الاجتماعية وأن أثير النعرة القومية في الأنوف اليمنية الشماء، ولم تَدْرِ أني كنت إذ ذاك أحتل منصب المعول الهدّام لبقية الرمق المتردد في العظام النخرة، والأشباح الخاوية. الم أقل لك أنها سخرية القدر التي ألّفت هذه الأضحوكة وإلاّ فكيف هذا يا عزيزي، ورأيتك تهنِّئني على المنصب الأدبي الذي احتليته وتمتعت به في ظل العرش المجيد حيّاك اللّه. ولم يدُرْ بخلدك أننا كنا نعزي أنفسنا على تلك الحياة الشقية التي تضطرنا لأن ننتزع اللقمة من حلوق الجائعين باسم الزكاة، إنهم خُلقوا في أديم هذه الرقعة اليمنية المشؤومة!!".

(المصدر السابق)

هل استطاع أحد من الشعراء العرب القدماء أو المحدثين أن يحاكم نفسه بمثل هذه القسوة؟ وأن يعذِّب وجدانه بمثل هذا العنف؟ ويضيف إلى مَن يحاول معاتبته أو غمزه بتهمة ما أنه متهم بما هو أخطر وأكبر، متهم بانتزاع اللقمة من حلوق الجياع؟ هل تكفي هذه الاعترافات المبالَغ فيها للتعبير عن الزلازل الرهيبة التي كانت تتفجر في ذلك الوجدان البشري الحساس، وعن ردود فعل الإثارات في صاحب ذلك الشعور المرهف، لقد أعلن كراهيته للَّقب الأدبي، وعبَّر عن كراهيته للشعر وللحياة في ذلك الواقع الطافح بالموت.

ومن عبث الأقدار، ولا أقول ـ كما قال الأستاذ الزبيري ـ من سخريتها أن كاتب تلك السطور المليئة بالحماسة الوطنية والدعوة القومية، أقصد الأستاذ يحيى الوادعي قد أدركه ما يدرك كثيرين من شباب هذا الوطن، وهي الشيخوخة المبكرة فقد كتب في نفس الفترة مقالاً نشرته صحيفة (الرابطة) لصاحبها المرحوم عبد الغني الرافعي، يدافع فيه عن "العصر الحجري" الذي كانت اليمن تعيش في إطاره يومئذ، وقد أوجعت كلمات ذلك المقال قلب الأستاذ الزبيري لأنه يصدر عن شاب يعي ظروف بلاده ويدعو الشعراء تلميحاً وتصريحاً إلى العمل على النهوض بالشعب، وقد تصدى الأستاذ الزبيري للرد على ذلك المقال وأرفق رده برسالة بديعة البيان توجه بها إلى المرحوم عبد الغني الرافعي صاحب الصحيفة التي نشرت مقال الأستاذ الوادعي، وجاء فيها: "وأرى بعض الإخوان سامحهم اللّه يجاملونها (أي حكومة الإمام). . ونحن نشفق على سمعتهم ومكانتهم، ونأسى على الأمة من أن تُحرم من نجدة ألسنتهم وأقلامهم. ونخشى أن يقول العصر الحديث إن عنصر الشعب اليمني منحط لذاته لا

للظروف الاستبدادية التي أحاطت به. ولذلك ترى شبابه المتعلم يمجّد ظلمات العصر الحجري في القرن العشرين.. أنا أعجب أشد العجب ممن يقدمون الزلفى إلى الحكومة اليمنية مع أن التجارب قد أثبتت أنها لا تقدّر الجميل ولا تفرّق بين المحسن والمسيء، وأنت لو سقتَ إليها عرش السيطرة على الدنيا لما منحتك من المثوبة أكثر مما تمنح سائق عربة الكنس، لأن الله خلق كل شيء في محبتها. يا حضرة الأستاذ... لقد نشرتم مقالة السيد الجليل يحيى بن إسماعيل الوادعي في واجب الشباب اليمني، واضطرتكم حقوق الحرية الصحافية أن تفسحوا له المجال في أن يضع المسؤولية العظمى على أمته فاسمحوا لنا أن ندافع عن هذه الأمة المسكينة ونضع المسؤولية على الحكومة، إذ ليس من العدالة أن توهَب الحربة لأحد الفريقين المتنازعين دون الآخر. فإذا لم تكن الأمة فوق الحكومة فلا أقل من أن يكونا في نظر الصحافة سيان".

(المصدر نفسه)

ولم يكن رد الأستاذ الزبيري على صديقه الأستاذ الوادعي قاسياً أو منفعلاً كما قد يتبادر إلى الأذهان، وإنما كان موضوعياً يفند آراءه بحكمة لمصلحة الوطن. وقد تجنَّب ما استطاع أن يسيء إلى ذلك الصديق أو يشوّه مقاصده، وللذين لا يعرفون الأستاذ يحيى الوادعي فإنه واحد من ضحايا الإمامة ومن الكفاءات التي دفنها حكم الفرد الخائف من كل ضوء، وقد عاش مشرّداً إلى أن توفاه الله بعيداً عن وطنه، وقد أسهمت الجامعة العربية في دفن مواهبه في إحدى إداراتها الشكلية "الإدارة القانونية". وكان رحمه الله ـ كما عرفته عن قرب ـ طاقة متوهّجة الذكاء، يردد في صمت "أضاعوني وأي فتى أضاعوا". وهذا الحوار الساخن الذي دار بينه

وبين الأستاذ الزبيري كان في منتصف الأربعينات، وفي حياة الإمام يحيى، وكان جيلنا يومئذ في سنوات الطفولة الأولى. . .

وبما أنني قد أشرتُ إلى رد الأستاذ الزبيري على مقال صديقه فإنني لضيق المكان وتقادم عهد الحوار، أكتفي بديباجيته أو بالفقرة الأولى منه.

يقول الأستاذ الزبيري: "قرأتُ المقال الطويل للسيد الجليل يحيى بن إسماعيل الوادعي طالب كلية الحقوق وأول محام أنجبته اليمن، تحت عنوان: (واجبات الشباب اليمني)، جاء فيه العجب العِجاب من الأغلاط الاجتماعية والتاريخية والنظرية، ولم يكن هذا الشاب ـ علم اللّه ـ ممن يرتكسون في تلك الأخطاء لعطل في تفكيره أو اختلال في رأيه، أو إفلاس في معلوماته. ولكنه أراد أن يقدم عقليّته قرباناً بين يديّ العرش المتوكلي لغرض قد يكون نبيلاً فيما أعتقد. لأن ذلك الشاب النابه المستنير لا يمكن أن يكون عدواً لبلاده وأمته ولا سيما وهي تنتظر منه أن يأتي في خدمتها والإخلاص لها ما لا يؤدّيه سواه".

(نفس المصدر)

لا أُريد هنا على الإطلاق، بل لا أستطيع أن أُبرّىء الأستاذ الزبيري من أنه كان يمارس لوناً غير مباشر من النقد الإنتقامي ـ إذا جاز التعبير ـ وهو انتقام من صاحب تلك الرسالة المُبْهِرة التي حاول صاحبها أن يقف من الزبيري نفسه موقف المعلم، وأن يذكره بطريقة غير مباشرة ما يجوز وما لا يجوز في الشعر.

ولا أشك أبداً في أن الزبيري قد كان معجَباً أشد الإعجاب برسالة صديقه الوادعي. فقد كشفت له على الأقل فكر مواطن يهمه أمر الوطن ويهمه أمر الشر. وحين أجاب على رسالته لم يتردد عن أن يفضي بكل

أحزانه ومخاوفه، وأن يكشف له من عيوب نفسه ما لم يكن يعلم وما لا يقدر عليه إلا رجل عظيم هان عليه إيفاء قضية الوطن كل شيء بما في ذلك شعره وحياته. ولكن ذلك المقال الذي يمدح الإمام وحكم الإمام أفسد الصورة الجميلة في نفس الزبيري وجعله يرى في صديقه مداحاً نثريا، والمدح بالنثر أسوأ أنواع المديح لأنه ـ على الأقل ـ يخلو من المميزات الفنية والذين يلزمون الشعر بالمواقف الاجتماعية أجدَر بأن يلزموا النثر لأنه أقرب إلى التوصيل.

وهذا الموقف من الشاعر التاريخي سوف يجعله ينظر بنوع من المقت إلى جيل من الكتّاب والشعراء يحاسبونه على أخطاء لم يكن من اقترافها بدّ في فترة التأسيس وغياب الرؤية، ثم لا يحاسبون أنفسهم أو لا يكفّون عن تزكية أخطائهم الفاضحة التي يقترفونها في ظروف أخف خطراً وأوضح رؤية. ومن الغريب أننا حين نستحضر أسماء الأشخاص الذين حاولوا الانتقاص من الدور الشعري للزبيري، وحاولوا التحريض بمدائحه الإمامية كلهم من الذين مدحوا الإمام حياً وميتاً، ومن الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح الأوضاع البائدة. ونادراً ما اختلطت الأمور على أشخاص ـ مع شدة وضوحها ـ كما اختلطت على هؤلاء فهُم يتحركون في غرف زجاجية ويوهمون أنفسهم أنهم يتحركون خلف جدران سميكة من الفولاذ لا تكشف عن مقاصدهم ولا عن أهدافهم، يساعدهم في ذلك مراحل الانتقال التي طالت وتعددت وترتب عليها غياب الوعي الوطني جزئياً أو كلياً وانشغاله بما هو أهم وأخطر من أمور البلاد.

٢ ـ الشاعر التاريخي في مواجهة الاستقلال المزعوم:

ومن هموم الزبيري الشاعر التاريخي الذي حمل هموم الطليعة الأدبية في اليمن، في أحرج المنعطفات التاريخية وأشدّها قتامة، من بين هذه

الهموم همّ يرتبط بمعاناته الناتجة عن قصائد المديح التي عرفنا سلفاً أسبابها ودوافعها، والتي لم ينل عنها لا جزاءً ولا شكوراً، وقد كان آخر منصب رفعته إليه تلك المدائح هو منصب (مأمور سوق) للواجبات وهو من المناصب أو بالأصح الوظائف الصغيرة التي يمنحها الحاكم للجنود ولمن لا وظائف لهم لكي يجنوا من ورائها أرزاقهم المشؤومة.

وذلك الهمّ الذي يرتبط بمعاناته الناتجة عن قصائد المديح هو فراره إلى عدن واضطراره إلى البقاء فيها مع عدد من زملائه الفارّين من بطش الإمام والذين لم يجدوا مكاناً آخر ينقذون به جماجمهم ويهربون إليه من توظيف ثقافتهم الأدبية لحساب الإمام دون مقابل يُذكر. وقد شكّل الفرار إلى عدن همّاً من أوجع هموم الزبيري ومن أخطر هموم الحركة الوطنية في بداية ظهورها لأن (عدن) المدينة اليمنية والثغر التاريخي لليمن كانت آنذاك تخضع للاحتلال البريطاني، وتقف من حيث الشكل في مواجهة صنعاء (المستقلة).

وقد عبّرت ثلاث رسائل بعث بها الزبيري بعد انتقاله إلى عدن عن إحساسه بالتبرُّم من البقاء في عدن، بل والخوف من بقائه في تلك المدينة التي لا تبعد كثيراً عن سيف الإمام، الذي تربطه بالاحتلال علاقة جيدة وإن شاب ظاهرها في بعض الاحيان شيء من الخصام وقد زارها ولي العهد أحمد متنكّراً كما زارها علناً مع أفراد حاشيته..

وقد بعث الأستاذ الزبيري برسالته الأولى إلى زميله الشهيد محمد صالح المسمري، وبعث بالرسالة الثانية إلى زميليه الشهيد عبد اللّه بن علي الوزير والأستاذ يحيى زبارة، وكانت الرسالة الثالثة إلى الشهيد أحمد حسن الحورش، وفي كل رسالة رجاء بسرعة استخراج موافقة رسمية من أية جهة مسؤولة في مصر أو أية وثيقة سفر إلى القاهرة.

وفي إحدى هذه الرسائل ـ وهي رسالته إلى الشهيد المسمري ـ تحليل تفصيلي عن أوضاع اليمن وعن معاناة أبنائها وعن العذاب الذي وجده الزبيري بعد عودته من مصر وفراقه لزميله المسمري، أي "منذ غادرت مصر إلى أن فررت من ظل الخلافة اليمنية الإسلامية الكبرى، العظمى، المقدّسة، المعبودة من دون الله"، على حد تعبير الأستاذ الزبيري في رسالته، والتي يقول فيها: (وما كان يقع في حسباني إذ كنت بمصر أني سأتحوّل إلى عبد مسخر ذليل إ يحرك يده ولا قلمه ولا لسانه إلا بأمر شريف، وكم كنتُ أتحرّق ألماً وحقداً حينما كنتم تكتبون إلينا أحراراً دون أن نستطيع الإجابة عليكم ولو بحرف واحد إلا بنوع من المغامرة التي لا طائل تحتها. . .

إن مأساتي منذ فارقتكم تنطوي على حقائق مؤلمة كثيرة لو شاء قلمي أن يسردها لجاءت في مجلّد كامل على الأقل. ولئن مكّنتني الظروف من جمعها فقد اخترت أن تكون تحت عنوان "مصارع الأحرار والأبرار" . . . لقد كنتُ اتخذتُ طريق الأناة والتعقل وتزلفت إلى ولاة الأمر بصنعاء علّهم يفسحون لنا المجال لشيء من الإصلاح الديني المحض ولكنهم لا يفرّقون بين الدّين والسياسة ولا بين الإرشاد والنبوءة، فظنوا أن الوعظ عمل من أعمال النبوءة، وأن النبوءة قد تؤسس عرشاً أو تبني ملكاً ولذلك فقد كانت نظرة الإمام إليّ كنظرة العباسيين إلى أولئك الذين ادّعوا النبوءة في عصرهم من المختبلين والممرورين، هوجِمَت داري قبل الناس بثلّة من الجيش يقودها الحاكم الأول عمنا لأنه خبير بالزوايا والخبايا، وفشلت حركة التفتيش وأعمى الله أبصارهم عن ذلك البرنامج المطبوع، فلم يعثروا على شيء مما كانوا يبتغون، ثم نفونا إلى الأهنوم ليقصونا (زعموا)

عن جمعيتنا. وسأعرض عن تفصيل بقية القصة إلا أنني أحببتُ أن تعلموا أن ذلك النفي والإعتقال والتشريد نفذ علينا دون أن يجدوا حجة واحدة تبرر تصرفاتهم القاسية. فما بالكم لو عثروا على شيء... إنّا باللّه عائذون.. وخاتمة المأساة أنني نُفِيتُ إلى تعز نفياً، ولكني هذه المرة نُفيت مع عائلتي لتكون نائية عن قيود الأهنوم، وكنتُ قد نزلت تعز أعتزم على النزوح لأول وهلة، وما كنتُ لأُقيم بين ظهراني قوم لا يرتبطون بدين ولا قانون ولا عاطفة ولا إنسانية).

ويصل الأستاذ الزبيري إلى خلاصة رسالته وهو بيت القصيد، وفيها يقول: "الخلاصة يا عزيزي أننا نستنجد الآن غيرتكم وغَيرة الشباب اليمني في مصر كلها كي تقدموا لائحة جماعية إلى الحكومة المصرية وتعرضوا فيها قضية الشباب اليمني المضطهد في الداخل والخارج، وأن تطلبوا منها الاحتجاج على الإمام وأولاده في مطاردة الشباب وتهديده بسفك الدم لمجرّد تهمته بأنه يطالع في الكتب الادبية العصرية لا غير، لا غير، كونوا على ثقة بأنه ليس علينا ذنب غير هذا وأن حياتنا الآن في خطر، ولكننا وللّه الحمد نحمل روحاً فدائية لن تَجْبُن ولن تخاف، وقد خرجنا من أموالنا وأهلينا ولن نزال نجاهد الاستبداد حتى نفوز أو نموت، وإذا لم يكن من الموت بد... الخ، اطلبوا لنا من مصر جوازاً... إحتفظوا بهذا الكتاب عندكم".

كانت تلك فقرات من رسالة الأستاذ الزبيري إلى زميله الشهيد محمد صالح المسمري الطالب والمدرّس ـ حينئذ ـ في الأزهر، وفيها تسجيل دقيق لمعاناته، وفيها أيضاً يتبين أن الزبيري بعد خروجه من سجن الأهنوم لم يكن ينوي البقاء في تعز وإنما كان يتخذها طريقاً إلى عدن ومن عدن

إلى مصر حيث يستكمل دراسته الجامعية ويعمل مع بقية زملائه على فضح الأوضاع الظالمة في صنعاء، وفي رسالة الأستاذ الزبيري إلى زميليه عبد الله بن علي الوزير ويحيى بن أحمد زبارة يقول: "والآن نلفت نظركم إلى ما كانت لنا، ولكم من المباحثات حول الإستبداد ودائه ودوائه، وأعتقد أن أكثر تلك المواقف كانت مبنية على أخطاء كثيرة لجهلنا بكنه القضية اليمينة، وكنا مجمعين إذ ذاك على أن زيارة اليمن ستفيد كثيراً في دراسة أمراض المستبد التي نعانيها وقد تبين لنا صدق هذه النظرية، وانكشفت لنا حقائق مدهشة ما كنا نخطرها على بال، زد على ذلك أن الأمة اليمينة قد نضجت ضمائرها من السخط والتبرُّم وصرنا في حاجة إلى استغلال هذه المواد الملتهبة لما نحن بسبيله والقضية المهمة التي نفاجئكم إلى النظر فيها هي أن الأمة اليمنية إذا اضطرتها نظريات الوحدة العربية إلى الصبر سنتين متواليتين فستفقد لا محالة نصف السكان في كثير من المناطق التي أُصيبت بالتيفوس والجدري والمجاعة التي لم يسبق لها نظير، وهذا على أقل تقدير وإلا فقد رأينا قرى كثيرة جداً لم تبقِ فيها الأهوال المختلفة نفساً واحدة... ومع الأسف نرى رجال الوحدة العربية اليوم هم الذين يتحكّمون في مصيرنا ـ كما نظن ـ وهم مع ذلك لا يقيمون للأمة اليمنية وزناً ولا يفهمون إلا أن هذه اليمن عبارة عن رجل واحد، وأن الخريطة كاذبة فيما زعمت أن اليمن قطر عربي في جنوب الجزيرة بل هو ملك فرد محتوم كبير السن يحب أن يواجه العالم العربي بأسره.

نحن الآن يا حضرة السيدين المحترَمين نريد أن تفسروا لنا موقفكم الغامض وسكوتكم الطويل ولم يبقَ لكم بعد اليوم عذر عند الأمة التي هاجرنا الآن من بين ظهرانيها وهي والله تصيد القردة لتأكلها وتبحث عن

البغال والحمير الموتى لتسدّ من مسغبتها وتموت في الطرقات التي تمر منها الجِمال الحاملة الملايين من أموالها إلى نقم ودار السعادة".

ويختم الأستاذ الزبيري رسالته اللاهبة برجاء مماثل لذلك الرجاء الذي توجه به إلى الأستاذ المسمري وهو انتزاع الموافقة من الحكومة المصرية على دخول الزبيري ورفاقه إلى مصر حين يقول: "نحن في أمس الحاجة إلى معاونتكم قبل الحكومة المصرية، وأهم شيء هو التصريح لنا بدخول الأراضي المصرية، فإذا استطعتم أن تحصلوا على ذلك فليكن التعجيل، ولو تعرضون لهم أننا نقصد زيارة مصر".

(رسالة بدون تاريخ)

لقد كان الأستاذ الزبيري إذن يدرك منذ أول يوم وضع فيه قدمه على أرض عدن، وربما قبل ذلك أنه سوف يتعرض لهجوم من خصومه بسبب ذلك الاختيار.. وإن كان أولئك الخصوم يعلمون أن عدن جزء لا يتجزأ من وطنه، ويعلمون كذلك أنه مهما كانت وطنية الوطنيين ومهما كان حرصهم على استقلال بلادهم فإن الذي كان يجري في صنعاء ليس من الاستقلال في شيء ولا حتى من الاحتلال في شيء، وأن الأوضاع التي كان يعاني منها شمال الوطن ـ يومئذ ـ لم يكن لها مثيل ولم يسبق لها نظير. وإذا كان ذلك الجزء من الوطن قد حافظ ـ كما يقولون ـ على استقلاله بفضل تضحيات أبنائه لا بتضحيات الحاكم الفرد، إذا كان قد حدث ذلك، فقد ظل استقلاله شكلياً خالياً من كل مضمون، وقد أفرغه حكم الفرد من كل معنى. وهذا ما كان يدركه الأستاذ الزبيري ويعيه وعياً تاماً بعد تجربته المريرة مع الإماميين، وبعد قصائد التزلف والنفخ في قربة الاستقلال المقطوعة، ولعل في الرسالة المطوّلة التي بعث بها الأستاذ

الزبيري إلى الإمام يحيى بعد فراره من قصر ابنه ـ وهي أخطر وثائق الحركة الوطنية على الإطلاق ـ لعل فيها ما يشفي النفس، ويفضح أبعاد الاستقلال المزعوم، تقول بعض سطور هذه الرسالة الموجّهة إلى الإمام يحيى والتي تضع بين يديه هموم اليمن بصراحة لم يعهدها من قبل: "لو أنكم فهمتم معنى الإستقلال وفائدته واستغليتم المركز الذي تتمتعون به في صالح الأمة لا في خرابها، أما وأنتم قد ركزتم همتكم ووجهتم أنظاركم لجمع مال الأمة من كل سبيل، ومزّقتم شملها وهضمتم حقوقها وقبضتم يدكم عن إحداث أي إصلاح فيها وحاربتم الثقافة هذه الحرب الطاحنة، وبلغ البؤس بشعبكم في هذه الآونة أمداً أكل الناس الحمير والقردة وفتّوا الروثة والبعرة ليأكلوا حطام الحبوب التي لفظتها أمعاء البغال والخيول، وحتى بلغ الناس من العنف والاضطهاد أن هاجرت النساء أفواجاً إلى عدن فراراً من عنف العسكر وامتهانهم، وهذه حقائق حاضرة نحن على أتم استعداد في البرهان عليها حتى لا يكون فيها شك" ولا ريب. . .

نعم إن كان هذا هو هو الإستقلال الذي حصلتم عليه فما أشبه حكومتكم برجل هاجمه عدوّه ليقتل ولده فدافع عنه ومنع العدو عن قتله، ولكنه أخذ مدية كانت حاضرة لديه وطرح ولده على الأرض وأمر المدية على أوداجه ثم قال له: بيدي لا بيدك يا عمرو. هذا وجه، والوجه الآخر أنكم وإن كافحتم السياسة الأجنبية في عاجل الوقت فإنكم ولا شك قد مهّدتم للإستعمار في المستقبل. إذ أن أمة هرب ربع سكانها إلى الخارج وليس فيها طبيب ولا مهندس، ولا محامي، ولا جرائد ولا مطابع ولا زراعة ولا تجارة ولا صناعة، ولا جيش بمعنى الكلمة، فمن المستحيل أنها تدفع عن نفسها تيار الإستعمار الجبار فيما إذا هاجمها ولو بطائرة واحدة.

إن الأمة الحية المتعلمة لا يمكن أن تموت ولو وقعت تحت كلكل الإستعمار لأنها لا بدّ أن تتخلص منه، وأن الأمة الضعيفة الجاهلة لا يمكن أن تعيش ولو خلق اللّه لها كوكباً مضيئاً يبتعد بها عن الأرض وينجو بها من مخالب الإستعمار. نعم إنكم لم تسلّموا البلاد إلى الأجانب ولكنكم قطعتم أوصالها وحطّمتم قواها، وعطّلتم مواهبها حتى إذا مدّ العدو إليها يده وجدها لقمةً سائغةً وغنيمة باردة وسيشكر لكم العدو هذا الصنيع ويقدّر لكم هذه اليد البيضاء".

(من وثيقة طويلة لم يسبق نشرها)

هل في كل هذه الحقائق والحيثيات الواردة في رسالة الأستاذ الزبيري إلى الإمام يحيى ما يكفي لإقناع خصوم الوطن وخصوم ذلك الشاعر التاريخي الذي وضعته ظروف بلاده، ووضعت شعره وكفاحه في أشق امتحان وتحت شروط اجتماعية وثقافية محكومة بأقصى مستويات التخلّف والإنحطاط ووسط أصعب المعادلات الدولية والعربية؟؟ وهل فيها ما يزرع الخجل على شفاه وأقلام أولئك الذين يريدون أن يمنّوا علينا بالإستقلال المزعوم، وأنهم أغلقوا الأبواب والنوافذ لكي نموت اختناقاً خوفاً من أن تصيبنا ضربة هواء؟؟!

وقبل أن ينتقل الحديث إلى موضوعات الديوان الذي أثار كل هذه الخواطر والشجون تجدر الإشارة إلى مقابلة صحفية تم العثور عليها بين آثار الأستاذ الزبيري بخطّه، ويرجع تاريخها إلى ما بعد قيام الثورة، ولعله لم يسبق نشرها، وربما كانت معدة للنشر، في صحيفة الثورة بمناسبة الذكرى الثانية لثورة السادس والعشرين من سبتمبر، وفيها يتحدث الأستاذ الزبيري بالتفصيل عن مراحل العمل الوطني قبل حركة ٤٨ والذي تمثل في

ثلاث مراحل، وكانت المرحلة الثالثة كما يقول الأستاذ الزبيري: "المرحلة العلنية والمنظّمة"، وهي تبدأ كما تقول سطور المقابلة: "بعد أن وجد الأحرار بأن العمل تحت رحمة الرجعية الحاكمة غير مأمون العواقب وغير مؤدٍّ إلى نتيجة حاسمة. وغير متجاوز إلى النطاق الشعبي الواسع قرروا ضرورة وجود حركة علنية خارج النطاق الإمامي، فخرج مجموعة من الشباب الأحرار هاربين إلى أرض الكنانة عن طريق الحجاز. وكان أبرزهم محيي الدين العنسي وأحمد حسن الحورش، وخرج آخرون هاربين كذلك ومتجهين إلى مصر أيضاً عن طريق عدن، وكان أول من وصل إلى عدن مطيع دماج وعقيل عثمان والشهيد عبد اللّٰه بن حسن أبو راس، وتبعهم أحمد محمد نعمان وزيد الموشكي ومحمد محمود الزبيري ومحمد بن ناجي القوسي وآخرون. فأما الفريق الأول فقد استطاع الوصول إلى مصر دون أن تعترضه عقبة، وأما الفريق الثاني فقد استطاع الإمام يحيى أن يطلب من فاروق أن يرفض دخولهم مصر فاضطروا إلى البقاء في عدن".

مرة أخرى لم تكن (عدن) في تفكير الشاعر التاريخي هي الهدف أو الموقع المناسب لإعلان الخروج الكبير على الطغيان، وكانت القاهرة هي الهدف والموقع المناسب لذلك، ولكن الضرورة وحين يختفي الماء تتم الطهارة بالتراب، وحين تشتد المجاعة تكون الميتة غذاءً مناسباً، هكذا تقول أصول الدين، وهكذا كانت تقتضي ظروف المعركة. وبالرغم من كل المحاذير لم تكن (عدن) سوى مدينة يمنية تعرّضت لمرض الاحتلال الطارىء وهو لا يقل خطراً عن الاستبداد وحكم الفرد الذي خضعت له صنعاء المستقلة.

والآن ماذا عسى يقول الديوان الجديد القديم والأخير للزبيري؟ إنه سؤال سوف يرتسم على شفاه كل الذين سيقرأون عن هذا الديوان، لكنه عندما يغدو بين أيديهم سيجدون أن معظم قصائده مما كتبه الشاعر وهو مشرّد في الباكستان حيث لجأ إليها فراراً من الإعدام المحتّم بعد نكسة ١٩٤٨. ويلاحظ القارىء أن قسماً كبيراً من قصائد هذا الديوان مترجَم عن الأوردية، ومن شعر الشاعرين الكبيرين (إقبال) و(حالي). ونرى لزاماً ـ قبل الحديث عن قصائد الديوان ـ أن نشير ولو بشيء من الإيجاز إلى الفترة الباكستانية في شعر الزبيري، وهي الفترة التي كتب وترجم فيها معظم قصائد الديوان. فقد كانت إلى وقت قريب محاطة بالغموض، إلا أن الإشراق الأخير لبعض آثاره ومذكراته قد ألقى ضوءاً كافياً على تلك الفترة المشحونة بالخوف والقلق والترصّد والتي أعادت صياغة الزبيري روحياً وشعرياً وثورياً، فقد وضعت الأقدار على كاهل ذلك الشاعر المشرّد الفقير أمانة القضية الوطنية بعد أن سقط كل أنصارها بين قتيل وأسير. وعندما يقرأ أبناء اليمن مذكرات الزبيري وآثاره النثرية والشعرية المرتبطة بهذه المرحلة سيعلمون أي رمز عظيم كان هو الزبيري، وأي وطني جليل كان ذلك الشاعر التاريخي.

ولن نتحدث طويلاً عن معاناة الشاعر وعن شظف العيش ومرارة الغربة التي احترق في أتونهما، وربما نكتفي بفقرات من رسالة كان الزبيري قد كتبها بعد عام أو أكثر وبعد أن تحسنت أحواله نسبياً بفضل توصيات الأصدقاء والمعجبين بفكره وشعره، وبعث بها على استحياء إلى وزير المعارف الباكستاني يومئذ "محمود حسن مخدوم"، تقول بعض فقرات الرسالة:

١ ـ جئت بأمر شيخ الإسلام لخدمة الجامعة العباسية.

٢ ـ أنفقتُ على نفسي كثيراً من حين سفري من كراتشي.

٣ ـ حالتي سيئة من كل الوجوه، وحتى أنني لم أجد مكاناً أسكن فيه، وقد سكنتُ مع تلميذ من التلاميذ، وأنا الآن أسكن ضيفاً عند بعض الأساتذة.

٤ ـ لستُ مضطراً إلى الجامعة ومرتّباتها لأني أستطيع أن أطلب نفقاتي من بلادي، ولكني يعلم الله أكتم حالتي عن أهل وطني لئلا يقولون أن مثلي يضيع في باكستان.

٥ ـ حينما سألني أصدقائي في كراتشي عن مرتّبي في الجامعة كتمته عنهم لأنهم قالوا لي أن أقل ما تأخذه أربعمائة روبية، ولما كشفتُ الواقع قالوا لي أن لا تأخذ مرتّباً معيّناً واطلب منهم أن يُنفقوا عليك بأنفسهم، ويكون تعليمك بدون مرتب وهو أشرف لك".

(صورة بالكوبّي عن الأصل المرفوع لوزير المعارف)

وكتب رسالة إلى أحد السفراء العرب ولعله سفير مصر، حينذاك في الباكستان المرحوم عبد الوهاب عزام، وهي واحدة من الوثائق الهامة عن أسباب فشل حركة ٤٨، ومما جاء فيها: "لا أستطيع أن أقول أننا فشلنا لأن قضية الحرية ظلّت قائمة تكمن في أعماق نفسيات الشعوب وتجري في دمائها وتجارب أمتنا كلها. وانضمت اليمن إلى قائمة الديون التي سجلتها الشعوب العربية على دولها حتى بهظتها هذه الديون، وأثقلت ظهورها. وأدرك رجال (حكومتنا) الحاضرة بعدئذ أن الحرية ليست فردية ولا خرافة، لأنه لو أُبيد رجال اليمن جميعاً، ولو دفنوا أنفسهم في التراب، ووأدوا نساءهم وأطفالهم لبقيت الحرية حيّة تجادل عن نفسها في كل مكان"!!.

يا اللّه كم هو عظيم ذلك الشاعر المشرّد، وكم هو شديد الإيمان بمستقبل الحرية لكل أبناء وطنه، وفي مثل هذه الظروف العصيبة والاستثنائية في تاريخ البشر تتجلّى عظمَة الرجال. . إن الذي حدث في مارس ٤٨ لم يكن فشلاً، وإن قضية الحرية في اليمن لن تموت حتى لو مات كل أبنائها، هذا الإصرار الذي يرتفع إلى درجة الثبات، وهذا الإيمان الذي يصل إلى درجة اليقين هو الذي جعل من الزبيري رفيقاً وفيّاً للحرية إلى آخر لحظة من حياته العظيمة.

وفي هذه الفترة الباكستانية تلقى الأستاذ الزبيري مجموعة كبيرة وغير عادية من الرسائل، منها عدد من الرسائل التي تلقاها من الإمام أحمد بعضها عن طريق المرحوم القاضي محمد عبد اللّه العمري الذي يبدو أنه التقى بالأستاذ الزبيري في الهند، وبعضها عن طريق المرحوم الشيخ محمد سالم البرجاني، والبعض الآخر عن طريق شيخ الإسلام في باكستان السيد (شبير) الذي رعى الزبيري في غربته، وكتب عنه الزبيري قصيدة طويلة ومثبتة في هذا الديوان ومن الضرورة بمكان أن نشير إلى أن رسائل الإمام أحمد إلى الأستاذ الزبيري قد كانت تتضمن دعوته إلى العودة إلى الوطن لكي تستفيد بالعهود والإيمان المغلظة بأنّ الزبيري لن يناله أي أذى وأنه سيكون في مقام من التقدير والرعاية الإمامية وستكون أفكاره رهن التطبيق!!.

لم يستجب الأستاذ الزبيري لخديعة الإمام أحمد ولم يثق بعهوده، ولا اطمأنّت نفسه للوساطة التي قام بها الشيخان الجليلان البيحاني وشبير. وقد ظل يماطل ويتهرّب ويطالب في ردوده إلى الإمام إثبات حُسن النيّة من خلال إصلاح أمور البلاد وإطلاق سراح السجناء. وقد سجّل مشاعره في هذه الفترة في مذكرات قصيرة تضمّنت يوميات العذاب الطويل. وقد

بدأ كتابة هذه اليوميات بشكل متقطع منذ أول يوم هبط فيه إلى باكستان. ولا يخالجني شك في أنه قد كتب يوميات أو مذكرات أخرى تحكي صراعه مع المخاوف والمخاطر منذ غادر صنعاء لآخر مرة قبل سقوط الحركة متوجهاً إلى المملكة العربية السعودية وعودته منها إلى عدن، ثم فراره على ظهر باخرة إلى الهند بعد شهور من التيه ولا بدّ أن تكون تلك اليوميات والمذكرات قد تضمنت تفاصيل ما أوجزه في بعض رسائله الطويلة عن هذه الفترة فقد أوضحت كتاباته في الباكستان أنه كان حريصاً إلى أقصى حدود الحرص على تسجيل كثير من الملاحظات والمشاهد وقد اشتملت مذكراته على نماذج كثيرة من الملاحظات والمشاهد، وقد اشتملت مذكراته على نماذج صغيرة من قراءاته وعلى تصوير دقيق لمشاعره المتأرجحة بين الخوف والطمأنينة، بين اليأس والأمل، بين الشعور الطافح بالرضاء وجمال التضحية والإحساس الفاجع بالخيبة المريرة وفي فقرة من هذه المذكرات اليومية إشارة إلى قرب نفاد الجيب من القروش القليلة، وقد كتب تلك الفقرة وهو وحيد منفرد في مقهى قديم من مقاهي كراتشي المتناثرة في الأحياء الشعبية بعد أن شرب كوباً من الشاي وأكل قطعة من الخبز سجّل ثمنهما في مذكّراته.

وكانت كتابة القصائد وتسجيل التأملات الفكرية هو وسيلته الوحيدة والمتاحة إلى الخلاص من قبضة الآلام ومن الإستسلام لأحزان الخيبة، ومن أجمل خواطره أو بالأصح تأملاته الفكرية في هذه المرحلة هذه المقولة العميقة: "من أهم الأسباب فيما يقولون من أن التاريخ يُعيد نفسه ذلك أن المجرّبين يهلكون أثناء التجربة، ويأتي الجيل الذي بعدهم فيحاول أن يعيد التجربة من جديد وكثيراً ما يقع في المصير الذي وقعوا فيه وبهذا يتأخر نضوج العقل الإجتماعي للإنسان ويسير ببطء شديد لكثرة ما يعترض تطوّره الطبيعي".

آخر العناقيد الشعرية
لشاعر اليمن التاريخي

للأستاذ الزبيري في حياته ديوانان من الشعر هما: "صلاة في الجحيم" و"ثورة الشعر". وكان يعدّ الديوان الثالث للطبع حينما فاجأته الثورة بالإنتقال من القاهرة إلى صنعاء أباً روحياً، ووزيراً للتربية والتعليم وهو المنصب الذي شغله لعدة أيام في حكومة الشورى والدستور عام ١٩٤٨. وقد اضطرته الأسفار والمعارك أن يطوي أوراقه ويتفرّغ لحماية الثورة وتصحيح مسارها. ولم يعد يفكر في الشعر أو الفن وهو يلهث من موقع إلى موقع ويخرج من معركة ليدخل أخرى، وفي العامين اللذين قضاهما في خندق الثورة جندياً يقاتل بالكلمة والرأي، والكلمة النضال، في هٰذين العامين لم يُضف إلى شعره كثيراً ولا قليلاً.

ويحتفظ له زملاؤه الذين رافقوه رحلة الموت الأخيرة بقصيدة (سينية) شاعت وذاعت وقد رأيتها عند أحدهم بخط يده المعروف إلاّ أنني ما زلتُ أشك في بعض أبياتها، وأنها قد تكون من القصائد الجماعية التي يكتبها رفاق المقيل أو رفاق السفر وهي عادة أدبية يمنية ما تزال تتنفس بيننا حتى اليوم بفضل مجالس القات. ثم أني عثرتُ بين أوراقه الأخيرة على مشروع قصيدة يناجي فيها صنعاء وهي من حيث فكرتها تشبه قصيدة (وطن النجوم) للشاعر اللبناني إيليا أوب ماضي الذي عاد إلى وطنه لبنان بعد أربعين عاماً من الغربة وبدأ يتحدث إليه متسائلاً:

وطـن الـنـجـومِ أنـا هُـنـا
حـدِّق أتـذْكُـر مَـنْ أنـا

أَلْمَحْتَ في الماضي البعيدِ
فتىً غريراً أَزْعَنا

ويبدو أن مشاغله وهمومه الكثيرة التي جعلته يندمج في الواقع قد منعته عن إكمال القصيدة ولم تُوفَّر له من الوقت ما يُصلح ترتيب بعض الأبيات غير المرتّبة، وهذا هو الجزء الصالح منها للنشر دون أي حذف أو تغيير:

نسمات الوادي نشيد الهي
وعطر مقدَّس وأغاني
عرَفْتَني طفلاً ويُدهشُها حين
أراها شيخاً، وحين تراني
عشت من بعدها دهوراً من الهول، أعادت طفولتي في ثواني
حملت قبلة الإلٰه من الجنَّة
تعطي الدنيا بذورَ الجِنان
طبعتها محمومة الشوق حرى
في خدودِ التُّفاحِ والرُّمان
وطيور سكرَى تعبُّ الخطايا
وهي ريَّانة من الغفران

لا تخافُ الجحيمَ فهي مِنَ الفِرْدَوْ
سِ مخلوقة، ومن رضوان

(مخطوطة)

لن يجد الدارس ـ فيما عدا مشاركة الأستاذ الزبيري في القصيدة السينية وكتابته لهذا المقطع من مشروع قصيدة ـ لن يجد الارس أي شعر يُذكر، وقد كتبتُ ذات مرة أقول ـ وربما يكون آخرون قد سبقوني إلى هذا التعبير ـ إن القصيدة الوحيدة التي كتبها بعد عودته إلى أرض الوطن هي تلك القُبلة التي طبعها على وجه التراب اليمني وزكّاها بدمه الطهور. . .

وكان يمكن لما تبقّى من شعر الأستاذ الزبيري الذي لم يُنشر أن يذهب أدراج الرياح وأن تذهب معه مذكراته وكتاباته الفكرية ورسائله والرسائل التي تلقاها في أثناء قيادته للحركة الوطنية أدراج الرياح أيضاً، أو على أقل تقدير تتبدد هنا وهناك، كان يمكن لذلك أن يحدث لولا وعي زوجته الفاضلة التي أخفت آثاره الفكرية عن كل العيون، واحتفظت بها بعيداً عن كل التيارات التي حاولت أن تزجّ بالزبيري في خلافاتها الآنيّة، وبفضل هذا الحرص النبيل بقي فكر الزبيري كما هو فكر المناضل الرمز، والرائد الأب.

يقدم الديوان الجديد للأستاذ الزبيري ـ كما سلفت الإشارة إلى ذلك ـ القصائد التي لم تُنشر في ديوانَيْه السابقَين، ومنها قصائده العاطفية القليلة التي كان يتحفظ إزاءها، ويرى أن نشرها قد يكشف جوانب من ضعفه الإنساني وبأنه قد أشرك في حبّه الكبير والوحيد عندما غافل الحبيبة الكبرى (اليمن) وتغزَّل في مفاتن غيرها وشغل عينيه ولو للحظات بالتأمل

في غير محاسنها. ومن بين قصائد الديوان بعض القصائد السياسية، كقصيدة (ملحمة السويس) التي تتحدث عن حرب القنال، وكقصيدة (ثورة عمان)، ثم قصائد إسلامية كقصيدته الشهيرة في (جناح)، أو القصيدة التي ألقاها في المؤتمر الإسلامي الذي عُقد في باكستان بعد فراره إليها وقد كان ذلك المؤتمر بالنسبة للزبيري بمثابة طوق النجاة، فقد تحول بعده من مشرّد يتخفى ويترقب مصرعه في أي منعطف إلى شخصية إسلامية معروفة وإلى مدرِّس في إحدى الجامعات الباكستانية، وقد كان لظهوره في ذلك الملتقى وشرح مأساته على أقطابه أثر بالغ الأهمية، دفع الإمام إلى كسب ودّه وتكرار دعوته للعودة عزيزاً مكرّماً بعد أن كان يُطالب به كمجرم هارب من وجه العدالة، وكواحد من قتَلَة الإمام يحيى.

والجانب الآخر من القصائد التي يقدمها هذا الديوان هي تلك الترجمات المنظومة عن الشاعرين إقبال وحالي، وسوف نرى أن هذه الترجمات الشعرية وإن تكن قد تمت في جوّ الشاعرين المذكورين إلا أنها نابعة من روح الزبيري أيضاً فلم يكن قد أجاد اللغة الأوردية عندما بدأ الترجمة وقد وجد فيها تعبيراً صادقاً عن مشاعره الروحية والثورية وبخاصة تلك القصائد التي تحدثت عن الظلم والقهر وعن الطغاة والمستبّدين، وعن الفقراء والفلاحين وغيرهم من مستضعَفي الأرض وضحايا القهر والإذلال.

وتبدو القصائد أو بالأصح المقاطع العاطفية في الديوان ـ باستثناء قصيدة الشاعر إلى زوجته ـ تبدو في ندرتها كالأزهار الغريبة الأريج في وسط الحقل الأخضر، فالوطن، هو المحور الأساسي الذي تدور من حوله كل أشعاره. ولأنه ـ في تقديري ـ لم يمارس كتابة القصيدة الغزَلية

كبقية الشعراء المعاصرين فقد ظلّت غزلياته أقرب شعره إلى التقليدية، ولننظر إلى هذه المقطوعة وعنوانها "غازية" والغازيَة بتحريك الياء هي التي تغزو القلوب والوجدان، وليست "الغازية" بتشديد الياء وهي الإسم الذي يطلقه أشقاؤنا في مصر على الغجرية:

أخذت تلاحظني بطرف فاتك
ذرب على فري الجوانح هاتك
يبدو بأن له نصالاً في الهوى
وبأنَّهُ ابنُ ملاحم ومعارك
يغزو الفؤاد بومضةٍ أخّاذة
عجلى ويدخله دخول المالك
نتخالس النظرات بين عواذل
يَقْظى، وبين مصارِع ومهالك

إن جزالة اللفظ هنا، والإقتراب من موضوع الحب والجمال بقدر لا يُخفى من الكبرياء هو ما يمليه واقع شاعر التحمت أداته الشعرية بالوطن وارتبطت صوَره وتشكيلاته اللغوية به، لكن قيمة هذه المقاطع العاطفية وهي تظهر بنسبة ضئيلة جداً في شعر هذا الديوان تؤكد أن الأستاذ الزبيري قد كان إنساناً كسائر البشر تشدّه النظرة الساحرة ويُبهره جمال المرأة، كما يُبهره جمال الكون وجلال الطبيعة. ولا شك في أن يكون الزبيري قد

استبعد كثيراً من نظائر هذه المقطوعات العاطفية وتخلّص منها بحجة أنها قد تُشغل قارئه بما لا يراه نافعاً ومؤجِّجاً للثورة المنتظَرة.

وتمتاز قصائده الإسلامية سواء تلك التي تظهر في هذا الديوان أو تلك التي ظهرت في ديوانيه السابقين بأنها خالية من التناول المباشر والوعظ المِنبري وهي تتناول الجانب المشرق والمضيء والخالد في الإسلام، روح الدين وعنصره المتطور والمتمرد فكرياً وحضارياً، الدين في شعره إحدى الطاقات الهائلة التي تسعى إلى تقوية الإنسان وتحريره من ربقة الإستبداد ومن كل أنواع العبودية، وفيما يمكن أن يُسمّى خطوطاً عريضة لتنظيم ثوري بعد قيام الثورة كتب الأستاذ الزبيري عن ضرورة استناد التنظيم إلى عقيدة روحية ثم يقول: "إنه يشترط في القصيدة المُشار إليها أن تكون عقيدة إسلامية سليمة وثورية وتقدمية ومبرّأة من ثأر الطغيان الإمامي والرجعية والجمود، والمقياس العملي للثورية والتقدمية قدرة العقيدة على دفع الشعب للعمل الحضاري ورفع مستوى المعيشة للمواطنين... الخ".

(من الوثائق المخطوطة)

في ظل هذه الرؤية الإسلامية السليمة كما يصفها الزبيري نفسه كتب إسلامياته، ومن بين إسلاميات الديوان قصيدته في ذكرى محمد علي جناح وفيها هذا الإحساس الحميم بوجود الجماهير، أي جماهير:

أمم الأرض لا يرقعها الراقع
ترقيع ثوبه وكسائه
وشعور الجمهور أقوى من العقل
ومن حكمه ومن حكمائه

وإذا بالسجون تهوي

وبالسجّان يبغي الفكاك من سجنائه

أما القصائد السياسية في هذا الديوان بخاص فهي أقرب ما تكون إلى المباشرة أملتها ظروف قاهرة حادة، وفرضها التزام فكري بهموم الوطن الخاص والعام. وكان لا بد أن يرتفع فيها صوت الشاعر ويخفت صوت الشعر أو بعبارة أخرى كان لا بد أن تسيطر اللحظة التاريخية بضرورتها على اللحظة الشعرية، وهي سِمة تجلَّت في قصائده السياسية التي كتبها في مصر في النصف الثاني من عقد الخمسينات وتختلف عن قصائده السياسية الأولى تلك التي تجلى فيها خصب التصوير الفني وتوهّج الوجدان الثائر وهو في مطولة عن (السويس) يقدم لنا تجسيمات أو لوحات فكرية تنداح وتتنامى من خلال المواقف الإنفعالية القادرة على الإتصال الحميم بالجمهور. تقول بعض هذه اللوحات الفكرية الخالية من الفن الشعري:

إلى لعنة اللّه انكلترا

إذا شئت أو لعنات الورى

فلن تبصري رحمة في السماء

ولن تجدي موئلا في الثرى

صحونا برغمك يا (ايدن)

فللفجر ربّ به نؤمن

لقد كنت وهماً به نفتن
ونُخرس من أجله الألسن
فإن ضقت أنا أتانا الصباح
وغادرنا ليلك المزمن
وأبرق (موليه) من حمقه
وأرعدَ ضد القضا والقدر
يؤرقه أننا أمة
تُعَدّ كأمته في البشر

في هذه الأبيات صورتان شعريتان مما أِلفناه وأحببناه في شعر الزبيري وهما: "للفجر ربّ"، و"الليل المزمن"، أما بقية الأبيات فتقريرية مباشرة يقتضيها ـ كما أسلفنا القول ـ الالتزام الفكري الذي يجعل الإيصال شرطاً أساسياً ينسجم مع الواقع الثقافي العربي المتخلّف لأبناء هذا الوطن العربي الممتد كالجرح على وجه الكوكب الأرضي، والذي يبدو أنه يسير إلى الخلف بخطوات موفّقة.

وفي الديوان قصائد ومقاطع شعرية تنبض بالفن وتتدفق بالإلهام، ليست من هذا المحور الفكري أو ذاك من بينها قصيدة متعددة المقاطع كتبها الشاعر في الفترة الأولى من إقامته في باكستان، وهي بعنوان: "نقطة في الظلام"، وفيها يرسم إحساسه الفاجع بالوحدة وشعوره الحزين بالعزلة، ومنها هذا المقطع:

ها هي الهوّة ما أعجزني
في دواهيها وما أضيَعني
ليت شعري مَن رماني من ذرى
أفقها الداجي ومَن حطّمني؟
أنا في الوهدة أهوي ويحها
ما الذي في قعرها يجذبني؟
إن شيئاً طالباً لحمي بلا
مهلة، وبلا مَن يطلبني؟

وهذا مقطع مستقل أو قصيدة في مقطع يتحدث فيه عن قوة الإيمان وعن أثر هذه القوة في صياغة التاريخ، وإعداد الأبطال لمواجهة أقدارهم على الأرض بعيداً عن اليأس والقنوط والخوف والإستسلام، إنه يخاطب الإنسان قائلاً:

لو كسَبْتَ الإيمان، إيمان إبراهيم
يوماً لكنتَ إبراهيما
ولأذللتَ مَن تألّه في الأرضِ
وحطّمْتَ أنفه تحطيما

ولـدَمَّـرتَ كـل مَـن كـان "نـمـرودا"
وأذريـتــه حــطـامــا هــشـيــمـا
ولــكــانــت دُنــيــاكَ بــرداً وأمــنــاً
وسـلامـاً، ولـو سـكَـنْـتَ الـجَـحِـيـمـا

أليس في هذا المقطع الصغير من الناحية الفنية وحسب ـ قدرة شعرية خارقة على استغلال الرموز الدينية واستنطاقها من زاوية إنسانية معاصرة تؤكد عظَمَة الإنسان وقدرته على تجاوز ضعفه إذا ما امتلك الشرط الوحيد إلى ذلك وهو الإيمان.

ويأتي دور الحديث ـ في هذه الخواطر ـ عن الترجمات الشعرية في هذا الديوان، وقد فاز فيها "محمد إقبال" بنصيب الأسد باعتباره الصوت الجهير في (الأوردية) وهو الشاعر الذي علم ذرّات الأرض ـ كما يقول ـ كيف تصبح جبارة في مقاومة الظالمين، وكان مع طاغور التوأم الذي أوصلَ صوت القارة الهندية إلى العالم المعاصر. وقد وجد الزبيري في شخصيته الفذّة وفي شعره الإنساني عزاءً ودفئاً يؤنسان وحشته في ذلك المنفى البعيد. وقد أراد أن يبدد أعوام الغربة في الاقتراب من شعر إقبال وفي محاولات مضنية لترجمة القصائد التي تتفق مع إحساسه المتمرد وحلمه النبيل. وقد كتب ذات مرة يتحدث عن تجربته هذه بتواضع كبير ولأهمية هذه التجربة في حياة الزبيري الأدبية ينبغي أن نصغي إلى حديثه عنها بقدر من الاهتمام. يقول:

"كان الأستاذ .حمد حسن الأعظمي يقدم لي معاني المقطوعات أو القصائد الشعرية لإقبال من الأوردية إلى العربية نثراً مقتصرا فيها على

المعنى الأصلي، فأتناول هذا النص المنثور وأرجع أحياناً إلى الأصل أتلمّس روح إقبال من وراء هذا الحائط الحديدي الذي يحجزني عنه ـ حائط اللغة الأوردية والمصطلحات الشعرية الخاصة بهذه اللغة ثم أنطلق بروحي في هذا الجو متحرراً من قيود الترجمة تاركاً حبل خيالي على غاربه، واثقاً من أن معاني إقبال التي تسكن في هذه القصائد المدوَّنة ليست إلا ومضة من روحه الواسعة التي لا تخضع لحدود ولا لقيود. ولا ريب أنه ليس من اليسير أن يُترجَم الشعر إلى نثر فكيف به أن يُترجَم إلى شعر؟، وكيف بهذا الشعر إذا كان أجنبياً عن لغة الشاعر؟ إنها لمعضلة كنتُ أشعر معها ـ إذ أُترجم بعض المعاني ترجمة حرفية أحياناً ـ أن أظلم إقبالاً وأنتزع روح شعره من جثمانها ثم أرغمها على أن تسكن جثماناً آخر وهيهات. . .

إن عبقرية الشعر في أغلب أمرها تظهر في شكل قراءة متينة لبعض الكلمات فيما بينها من جهة، وفيما بينها وبين المعنى من جهة أخرى، ثم فيما بينها وبين بيئة الشعر من جهة ثالثة. وكل كلمة من الكلمات لها شخصية ولها تاريخ وحياة وأحداث جمّة مرَّت بها، ولها عمر طويل قد يطول عمر الفرد بآلاف السنين. ذلك أنها وُلدت مع الأمة التي لا يعرف حين مولدها ثم نشأت وترعرعت في ملايين الألسنة وعاشت في ملايين العقول واصطبغت فيما لا يُعد من الخواطر والهواجس والذكريات، وزاملت تيار التاريخ وتقلّبت مع أحداثه فكأنها عين سحرية رقيبة انطبعت فيها صور الحركة الزمنية التي لا تراها العيون وسكنت فيها نبضات القلوب بعد أن ماتت وانطفأت وأكلها التراب.

هذه طبيعة الكلمة المنفردة لذاتها فإذا هي اقترنت بكلمة أخرى وتزاوجت معها وانسجمت، انضم ذلك التعقيد كله إلى تعقيد آخر وجاء

المعنى بعد ذلك وليداً بالنسبة بينهما وثمرة لهذه الأسرار المتزاوجة التي لا يُستطاع عدّها ولا تصوّرها. ويأتي مع ذلك كلّه حساب البيئة المعقدة التي لا يُعد الإنسان وأدبه إلا صدى من أصدائها. وكما أن الإنسجام بين الكلمة والكلمة يولد معنًى خاصاً من النسبة بينهما ويخلقه خلقاً بحيث لا يتأتى إلا بهما فكذلك الإنسجام بين العبارة وبين البيئة يُعَدّ أهم عنصر من عناصر البلاغة وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو أدق حدّ للغة كما يراها علماؤها. على أن هناك نواحي كثيرة في الحياة البشرية تُذعن للترجمة وتنتقل من أمة إلى أخرى وتُحدِث أثرها في كل زمان ومكان.

أما الثروة الشعرية التي تتوالد بها عناصر اللغة وعناصر البيئة فذلك ما لا سبيل إلى ترجمته ولا إلى نقله".

(مجلة الوعي الباكستانية ص ١٧ بدون غلاف ولا رقم)

أكتفي في هذا المكان ـ من هذه الخواطر ـ بهذا القدر من حديث الأستاذ الزبيري عن الترجمة بعامة وعن ترجمته لقصائد إقبال بخاصة، وربما أعود إلى هذا الحديث مرة أخرى في إطار هذه الخواطر لتوضيح ما تتضمنه من قضايا نقدية في فهم الشعر تشكل رؤية متقدمة ومتطورة.

وإذا كنت قد اجتزت بعض النماذج من قصائده الأخرى فإننا لا بد أن نتوقف أمام نموذجين قصيرين من ترجماته الأولى عن إقبال والأخرى عن حالي، وهذا مقطع من قصيدة طويلة لإقبال بعنوان: "مناقشة إقبال لربّه"، وفيها نقد عميق للمتاجرين بالدِّين والعائشين على اسم اللّه زوراً ورياءً:

يا ربّ عالمك السيّار في نظري
حلو جميل ولكن فيه ما فيه

الطيّبون وأهل الفن فيه أذلاّء
وذو المال في عزٍّ وتأليه

والأرض تنظر نحو الغرب نظرتها
لسيد تتوقّاه وتُرضيه

لم تعط ذا اللب في دنياك من ورق
الصفصاف قوتاً بلا كبر يعانيه

وهؤلاء حملوا الفردوس مزدهرا
إلى الحمير لترعى في مغانيه

إن الكنائس فيها الخمر قانية
حمراء تشعل مَن فيها وتذكّيه

وفي المساجد وعظٌ ميتٌ حرِج
يُميتُ سامعه غمّاً ويَفْنيه

قرآنك الحقّ، لكن مَن يفسّره
يصدُّنا فيه عن أسمىٰ معانيه

يُلقي به جهله الأعمى ويجعله
كأنّه سفر تضليل وتمويه

وهذا مقطع من سداسيات (حالي) وأعترف أنني لا أعرف شيئاً كثيراً أو قليلاً عن هذا الشاعر الباكستاني، ولا عن سداسياته التي ترجم الشاعر جزءاً منها، وقد قرأتُ أوراقاً متناثرة بخط الأستاذ الزبيري تشير إلى هذا الشاعر وإلى أهمية سداسياته بخاصة، وشعره بعامة في اللغة الأوردية، مع إشارة إليه مقترناً بإقبال، وهذا نموذج للسداسيات التي قد يتبادر إلى الذهن أنها ستة أبيات كالرباعيات مثلاً، ولكن كل سداسية تأخذ عدداً غير محدد من الأبيات وربما تكون الترجمة قد اضطرت الشاعر إلى أن يترجم كل ستة أبيات في سبعة أو ثمانية أو عشرة... الخ. كما هو الحال مع هذه السداسية:

أتى سائل بقراط يحذّر خطبه
ويسأله فتوىٰ تعالج كربه
ألا أي داء في البرية مهلك
إذا مسَّ إنساناً قضىٰ منه نحبه
فقال له لم يخلق اللّه مرة
لنا مرضاً إلا ويخلق طبّه
ولكن داء هيّناً لا نخافه
هو الداء يستشري ويقتل ربَّه
وأخطر أمراضاً علينا مغبَّة
هو المرض السهل الذي لن نُطبُّه

نـرى أمـره هـونـاً ونـتـرك سـمّـه
بـأعـمـاقـنـا يـسـري ويـعـلـن حـربـه

ونـعـتـدّ أقـوال الـطّـيـب بـشـأنـه
خـرافـة شـيـخ أصـبـح الـهـجـر دأبـه

ولا يفوتني أن أشير هنا إلى أن الأستاذ الزبيري قد حاول ترجمة بعض قصائد إقبال نثراً شعرياً جميلاً كما في هذا النموذج:

أيها الهلال: ما أعجب المنظر الرائع الذي تتجلى فيه مضيئاً مشرقاً وسط هذا الظلام الحالك الذي يحيط بك.. ألا ما أشبهك بقلب الرجل المسلم تتجهم حوله الحياة وتسود عليه الدنيا ويكفهر في وجه صاحبه العالم ولكنه يظل مشرقاً بنور اللّه يستمد منه الإشراق لأن يد اللّه هي التي صنعته، وأوجدت فيه عنصر الهِداية والضياء فلو استمدّ الحياة من غير اللّه لأظلم وتجهّم.

(مخطوطة)

نقد الزبيري ولغة ترجمة الشعر

كان في حديث الزبيري عن تجربته في ترجمة شعر إقبال، وما عاناه في سبيل نقل الشعر إلى الشعر، وفي اختيار التعابير القادرة على إبراز لغة الشعر الخفية من الأوردية إلى العربية، كان في ذلك الحديث من النظر النقدي ما يشكل نصاً نقدياً يمتزج فيه الشخصي بالعام وفقه اللغة بالبلاغة، وذلك النص ـ بغضّ النظر عن كل الملاحظات ـ نص وثائقي عن تطور النقد الأدبي الحديث في بلادنا جدير بالعناية والمراجعة. وهو يُترجَم عن مفهوم الشعر عند الزبيري كما يعبّر عن إحساسه بدور اللغة في التركيب الشعري وفي عملية الإبداع والخلق الفني.

وإذا كنت ـ فيما سبق ـ قد اقتبستُ جانباً من ذلك الحديث يتعلق بترجمة لإقبال فإني هنا سأعدو مرة أخرى لكي أقترب من ذلك النص النقدي للتعرّف على وجهة نظر الزبيري عن دور اللغة في بناء العمل الشعري واقترابه من أحدث نظرية نقدية للشعر ترى أن القصيدة ليست سوى مغامرة في مجال التعبير في اللغة عندما يقول: "إن سرّ التركيب الشعري لا يستعصي حتى على نقل معناه باللغة ذاتها إلى تركيب آخر. وأعجب من ذلك أنه يتمرد حتى على الشرح والتفسير، فمَن يشرح البيت الشعري الرائع أو ينثره إلى لغته ذاتها لا يستطيع أن ينقل عناصر الإحساس الكامنة في تركيب ذلك البيت إلى الجملة المنثورة أو المفسّرة. فكيف به أن يستطيع إلى لغة أخرى؟ وانظر إلى بيت المتنبي مثلاً:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقِيَ

وللحُبِّ ما لم يبقَ مني وما بقِيَ

هل يتسنى لشاعر أو ناثر أن يؤدي إليك عبارة منثورة أو منظومة تحمل كل أسباب التأثير التي نجدها في هذا البيت الفذ؟ كلا. ومع هذا فمعنى البيت الذي يمكن ترجمته أو تفسيره معنى عادي. ولكن أسباب الفتنة التي أبدعها هذا الشاعر العظيم تأبى أن تخضع لأي نقل أو لأي بيان. فإن نحن نثرنا البيت أو ترجمناه إلى لغة أخرى فإننا لا ننقل إلى الناس إلا معنى عادياً عرفه الأدباء قبل المتنبي وابتذلوه وشبعوا منه. وحينئذ فنحن لم نبرز خصائص هذا الشاعر ولم ننصف عبقريته ولم نقدم إلى الناس شعره الممتاز، بل قدمنا فكرة من أفكارنا ورأياً من آرائه.

فإذا صعب علينا أو استحال أن نستخرج أسرار التركيب ونصوغها في تركيب آخر. كما وجدنا أنفسنا إزاء هذا البيت الفرد، والحال أننا نجد هذه الأسرار ماثلة لأذواقنا في ثنايا هذه الأحرف المعدودة فكيف يقع في قدرتنا انتزاع أسرار البيئة إلى لغة أخرى والسيطرة على مقادير النسبة والتجاوب بين اللغة والبيئة ووضع ذلك كله في الموضع الملائم من تركيب آخر. إن هذا التلاؤم يصعب أو يستحيل. وبهذا تتجمع كل هذه المضلات في سبيل الحيلولة بيننا وبين ترجمة الشعر. ولكن هذا كله لا ينبغي أن يصدّنا عن نقل ما نستطيع نقله إلى لغتنا من تفكير أو إحساس على أن نعتبره تقريباً بين العقليات البشرية وتلقيحاً للروح الإنسانية بعضها ببعض".

(مجلة الوعي ـ دون تاريخ ـ بلا رقم)

ولم يكن هذا النص الذي اجتزأت منه هذه الفقرات والذي تحدث فيه الزبيري عن تجربته في ترجمة شعر إقبال هو النص الوحيد الذي تركه في مجال النقد، فقد خلف نصوصاً أخرى تفوّقه في الأهمية والرؤية النقدية، من بينها نصّ محاضرة طويلة بعنوان (الشعر والقومية) كان قد ألقاها في

أواخر الخمسينات في منتدى أدبي في القاهرة، وتحدث فيها عن دور الشعر في النهوض الوطني وعن خطورته في قيادة الأجيال. وقد تضمنت المحاضرة السالفة الذكر مجموعة من الإشارات النقدية والملاحظات الذكية. منها على سبيل المثال لا الحصر الإشارة التالية حول العلاقة بين العمل الأدبي، والمتلقي بين القصيدة والقارىء: "ومن طبيعة هذا الجمال الإنساني الدفين أنه لا ينشق من أغواره إلا عندما تتناهى إليه ومضات أعمال الفن الأصيل، فإذا تناهت إليه ومضة من هذه الومضات انبعث هذا الجمال المكبوت متجاوباً معها وممثلاً لنا في شكل هذه اللذة الفنية التي نحن بصددها، فليست هذه اللذة إلا ضرباً من الإشعاع الروحي يحدث بمثل هذا التفاعل والتمازج بين عناصر الجمال الكامن في النفس والدافع إليها. وإذا كانت القطعة الفنية كما قلنا جزءاً من النفس الدفينة فإن من شأنها حينما تنقدح بها عناصر نفس أخرى أن يحدث فيها نفس هذا الإشعاع الذي تحدثنا عنه كعود الثقاب المشتعل يشعل النار في كل مادة قابلة للإشتعال".

(نص المحاضرة... مخطوط)

هكذا يتصور الزبيري العلاقة بين العمل الفني والأدبي والمتلقي، استعداداً دفيناً واستجابة مسبقة يحركها مؤثر حادث وهي وجهة نظر جديرة بالدرس والتأمل. وهو في مكان آخر من المحاضرة نفسها يوجز أهمية الشعر ومكانته في التاريخ العربي القديم والحديث فيقول: "تلك إشارة خاطفة إلى مكانة الشعر عند العرب، وكنا نود أن نسرد أحداثاً جمّة في حياة الأمة العربية تأثرت بالشعر مباشرة في مختلف عصور التاريخ، غير أن محاضرة واحدة لا تتسع لكل هذه الغاية، فيكفي بصورة مجملة أن

نقول بأن الشعر في العصر العربي الأول كان يقوم مقام المدرسة والنادي، والمكتبة، والمطبعة، والصحافة، وسائر مؤسسات النشر والدعاية والتعليم. ومن هنا نستطيع أن ندرك خطورة شأنه في تسيير دفة الحياة العربية الأولى"

(نفس المحاضرة)

وفي مكان آخر من المحاضرة إياها تحدث الأستاذ الزبيري عن محنة كانت قد بدأت في التفشّي منذ ذلك الحين وقد بلغت في أيامنا هذه إلى ذروتها وهي محنة الادعاء، فالكل شاعر، والكل أديب، والكل ناقد، لا يوجد قارىء متواضع واحد، ولا مستمع يحب الشعر دون أن يدّعي مماسته، ويهوى الأدب دون أن يعتبر نفسه من أساطينه الكبار، هل كان شاعرنا الكبير يعاني يومئذ من المتطفّلين كما يعاني منهم جيلنا، وهل كانت تلك المحاضرة مناسبة ذهبية يُطلق فيها صرخته التي تضمنت شكوى من هؤلاء الذين يشوّهون مسار الكلمة ويجيدون كل بضاعة إلا الكتابة، يقول الأستاذ الزبيري مجسداً أبعادة هذه المحنة: "ولقد ارتفع مستوى التعليم، وتعلم الناس كل شيء يقع في نطاق المستويات العادية، فتشبه بالشعراء مَن ليسوا بالشعراء، وبالكتّاب مَن ليسوا بالكتّاب، فأصبح كل يستطيع أن يكتب، وكلٌ يستطيع أن يشعر، وكلٌ يستطيع أن يوجّه دعوة ويخترع رسالة. وكما يُقال: لا يوجد أحد خيرٌ من أحد. . . لماذا إذن أقرأ مقالاً لم أكتبه أنا وأتأثر به؟ وأستجيب له ولا أستطيع أن أكتب مثله؟. وأخيراً لماذا أطرب بالبين من الشعر وأهتز له وأتأثر بوحيه وأنا أستطيع أن أنظِم العشرات من أمثاله؟ وهكذا أغمتنا روح التساوي في الأشخاص والأشياء والنظريات والمواهب، فلا موهبة خيرٌ من موهبة، ولا نظرية خيرٌ من نظرية، ولا شيء خيرٌ من شي؟".

(نفس المرجع السابق)

وتعكس هذه الكلمات العالية النبرة، الحادة الألم فجيعة الأستاذ الزبيري في الواقع الشعري كما كان يومئذ. ومما يدل على أن صرخته تلك كانت تعبيراً عن فجيعة وليس عن ألم طارىء، أنه كتب إلى أحد الطلاب القريبين من نفسه رسالة يُعبّر فيها عن تلك المحنة، وعن سيطرتها الشاملة على كل شيء، أنه يخاطب الطالب قائلاً: "إنك تعرف ما انحدرنا إليه من فوضى نقد ومهاترات وتبادل إتهامات، ولست أدري إلى أية قاعدة يرجع الناقدون ما دام كل إنسان له حق التقدير وحرية التقييم وقدسية الحرية الشخصية في كل ما يقول وما يفعل. لقد أصبحنا بلا أزمة ولا معايير، وأصبح المعول على الشطارة، مجرد الشطارة. . . ".

(الوثائق المخطوطة)

يتحدث الأستاذ الزبيري في هذه الفقرة وفي سابقتها عن همّ الهموم بالنسبة للواقع الأدبي المتدهور، وإذا كان واقع الأدب في أواخر الخمسينات قد وصل إلى هذا المستوى من التناقض وفوضى التقويم فإنه في الظروف الراهنة قد وصل إلى القاع وما الاتهامات الجائرة الموجهة ـ دون هدف ـ إلى كل مبدع وفي مقدمتهم الزبيري نفسه إلا التعبير الأخير عن بؤس الحياة الأدبية وانحدارها إلى أسوأ المستويات.

مداخلات عربية وعالمية:

وحتى لا يبلغ القنوط بنا مداه، وحتى لا نظن أننا ـ نحن الأدباء في هذا القطر ـ نبت شيطاني تسلّق على أرض الجحود والنكران سوف نحاول أن ننقذ أنفسنا من هذه الكوابيس المفزعة ونحاول تسليتها ومغالطتها بما نقرأه من حين إلى آخر من الإهمال والجحود الذي يلقاه أدباء كبار في كثير من الأقطار العربية وفي العالم. وهاتان مداخلتان حزينتان: الأولى من

وطن عربي ما زالت حتى الآن تقطر ألماً وتشعّ مرارة، والأخرى من عالم واسع توقّفت بفضل تدخل الدولة وأصبحت مجرد ذكرى.

منذ عام وبضعة أشهر شكا أديب عربي كبيرَ من قسوة الإهمال ومرارة الحرمان بعد سنوات طويلة من الكتابة والعطاء والكفاح في سبيل الحرف العربي، يقول الدكتور عيسى الناعوري: "هناك شيء يهمني كثيراً أن أسجله وأنا أكتب عن حكايتي مع الأدب الإيطالي. فلقد وجدتُ في صلاتي بالآداب الغربية ـ وليس بالأدب الإيطالي وحده ـ أن الناس هناك يقدّرون العمل الأدبي، وأن للأديب مكانة مرموقة ومحترمة. وحين يكتب الإنسان شيئاً، يجد مَن يقدّره ويشكره، بل يجد مَن يُشعره بأهميته، وبأهمية ما يكتب. والتقدير الذي لقيته على كتاباتي وترجماتي عن الأدب الإيطالي خاصة، وددتُ لو ألقى بعض بعضه في بلادي العربية فأنا أعيش مع القلم منذ أكثر من أربعين عاماً، لقيتُ فيها من الحملات والاتهامات من الأقلام العربية، ومن الإهمال من المسؤولين العرب أكثر من الكثير، وفي اشتغالي بالأدب الإيطالي، لقيتُ من التكريم والتمجيد والتقدير ما لا يحلم به أديب عربي ولو عاش عمره عشر مرات.

والأديب إنسان، يجب أن يرى أثراً لعمله، ويحب أن يجد مَن يقول له إنه أحسن العمل.

وهل أخطىء إذا قلت إن في الأديب شيئاً من طباع المرأة؟ فهو يحب الكلمة الحلوة يسمعها من أفواه مواطنيه وبني قومه. فكم هم الادباء العرب الذين يسمعون الكلمة الحلوة من أفواه مواطنيهم وبني قومهم؟. وفي مقابل ذلك، مَن الأديب العربي الذي لم يسمع من أفواه مواطنيه التحقير ومحاولات التحطيم؟ فهل تكون هذه دعوة إلى أمتي العربية لتعرف قيمة القلم وقيمة الكلمة، وقيمة الأديب الذي يعيش مع القلم، والذي يقول هذه الكلمة؟".

(الموقف الأدبي ـ عدد نيسان ١٩٨٠)

ومن الوطن العربي ننتقل إلى الإتحاد السوفييتي لنقرأ حكاية ذات دلالة أعمق. . . عندما انتحر الشاعر (مايكو فسكي) خرج الشعراء الصغار في روسيا من جحورهم يندون برجعيته ويثرثرون حول جبنه وانهزاميته، وأوجعوا بالثرثرات الصبيانية تراب قبر الشاعر الراحل، وسوف أترك بقية الحكاية للشاعر (بابلو نيرودا) الذي يحكي في مذكراته القصة كاملة: "كان مايكو فسكي) قد مات، لكن أعداءه الرجعيين العنيدين كانوا يهاجمون ذكرى الشاعر بأنياب وسكاكين مصممين مصرّين على محوه من خارطة الأدب السوفييتي. حينذاك حدث أمر غير كل ما بيّتوه وافترضوه.

كتبت حبيبته (ليلى بريك) إلى (ستالين) تشير له فيها إلى ما هو مخجل، وعار في تلك الهجمات وتدافع بشكل مؤثر عن شعر (مايكو فسكي). كان المعتدون يظنون أنهم لن يعاقَبوا على فعلتهم محميين بتآلبهم الجماعي. فأُصيبوا بخيبة أمل. لقد كتب (ستالين) على هامش رسالة (بريك): "إن (مايكو فسكي) لهو أحسن شاعر في العهد السوفييتي". منذ تلك اللحظة أخذت تُبنى المتاحف وتُقام النصب التذكارية تكريماً لمايكو فسكي وتكاثرت طبعات دواوين شعره الفاخرة جداً، فصُعقَ المخرصون وخمدوا أمام نفحة (يهوه في الصور).

(مذكرات بابلو نيرودا ص ٤٦٠)

فهل يتوقف إنصاف كل شاعر، واحترام عظامه في قبره على وجود (يهوه) يصرخ في وجه الدنس اللفظي والفجور الكتابي: قف. . . قف أيها الدنس اللئيم. وهل سيكون ظهور الديوان الثالث للشهيد الزبيري دعوة غير مباشرة إلى المناضلين والشرفاء وأنصار الثورة في الشطر الجنوبي من الوطن أن يقفوا في وجه ذلك المندس الآفاق الذي لن تستطيع أدبيات

التقدميين في العالم أن تغسل سطراً واحداً من حقده الملكي على الزبيري؟. إن ذلك الملكي المتخفي وراء الأوراق الحمراء والتعابير اليسارية المشوّهة يهاجم ذكرى الزبيري بأنياب وسكاكين كل الإماميين الحاقدين على الثورة ورموزها النقية. ومن المؤسف أن تلك الأنياب تظهر من خلال الصحافة الرسمية لثورة أكتوبر العظيمة. وفي كتب تحمل اسم المؤسسة التي تحمل اسم ١٤ أكتوبر!!.

هل كتب الزبيري شعراً جديداً؟ وبصيغة أخرى للسؤال؟ هل استهوت الزبيري موجة الجديد في الشعر والتي لم يسلم من تأثيرها سوى قلّة من الشعراء العرب المحافظين؟ وإذا كان قد كتب شيئاً من ذلك الجديد فأين هو ذلك الجديد؟ لقد حاول الزبيري كغيره من شعراء الكلاسيكية الجديدة أن يقتربوا من شواطىء بحر الرومانسية. وأن يجددوا في حدود المفردات والجملة الشعرية وفي نظام المقاطع. وقد استوعب الزبيري أبعاد هذا التجديد وشارك فيه وكتب عدداً من القصائد الرومانسية المجنحة الأخيلة، واختار قاموسه اللغوي بدقة وعناية شعرية وكتب بعض القصائد الخارجة عن نظام القافية الواحدة مستخدماً نظام المقاطع المتعددة القوافي.

وكان في اتجاهه إلى الترجمة مضطراً إلى الإيقاع المتكرر الرتيب وهو ما لم يكن قائماً في القصيدة المترجمة. ولم يؤثر عن الزبيري أنه وصل بالتجديد في الشعر إلى أكثر من ذلك كما لم يؤثر عنه أنه كتب شعراً جديداً، جديداً بالمفهوم أو المصطلح السائد للشعر الجديد.

ولم يكن له موقف معلن من القصيدة الجديدة لا رفضاً ولا قبولاً، وإن كان قد أبدى عناية ملحوظة بقصائد الشاعر عبده عثمان واعتبر ما أُذيع منها في صوت العرب أو ما نُشر في الصحف أو المجلات العربية شعراً نضالياً يعبّر بحرارة وصدق عن ثورة الشباب وحساسية العصر.

وقد فوجئتُ وأنا أقلّب في آثاره الشعرية أن أجد ملفاً صغيراً يضم مجموعة من القصائد الجديدة لم تكن بخط يده ـ وكثير من قصائده المشهورة ليست مكتوبة بخط يده ـ أقول لقد فوجئت برؤية هذه القصائد بين أشعاره وكان ترتيبها يأتي ضمن قصائد الفترة الباكستانية وإلى جوار القصائد المترجمة عن إقبال وحالي. وقد وقفت حائراً إزاء هذه القصائد هل هي من محاولاته التي أراد بها مسايرة الحركة الشعرية الجديدة في بداية ظهورها، ثم تراجع عنها لأنها لم تمنحه ما كان ينتظر؟ أم أنّ صديقاً من شعراء الشباب في ذلك الحين قد بعث بها إليه ليلقي عليها نظرة أو يعطيه رأياً نقدياً ثم غفل عنها؟

لقد اقتربتُ ـ بما عندي من ثقافة نقدية ضئيلة ـ من إحدى هذه القصائد، وحاولتُ أن أقرأها قراءة مقارنة مع قصائد أخرى من شعر الزبيري متتبعاً أسلوب الشاعر في بناء الصور وفي التعبير عن مكنونات نفسه فضلاً عن قاموسه اللغوي ذي الكلمات المصفاة المنتقاة وكانت القصيدة تعكس الحالة النفسية القلقة الحائرة للزبيري الخائف المفجوع الذي لا يكاد يفيق من هول النكسة الوطنية. لقد كدتُ أجزم أن القصيدة للزبيري وأن دراسة متأنّية أخرى لبقيات القصائد أو المقطوعات قد تثبت أن الزبيري هو صاحبها وليس أي شخص آخر، وأنه لم يحفل بنشرها لعدة أسباب، منها أنها قد كانت التعبير الحزين عن حالة الضعف الذي اعتراه بعد النكسة. وأنها من ناحية جمالية لم تكن تعبّر عن طموحه الشعري ولغته الخطابية الفخمة وهذا نموذج صغير من تلك القصائد:

إنـــي هنـــــا

ومشاعري تطوي الحياة

وأنا وقلبي

نتحسس الأمل الكبير
في أن أفيق
من نكستي
في أن أحرك كل ذرات الحياة
في أن أحطّم كل قيد
وأُنير إحساسي
بأعماقي
لأني آدمي
أهب الحياة وأبتغي
وأنال من كل الحياة

إن أمانة البحث وحدها هي التي جعلتني أتردد كثيراً في تنسيب ما تم العثور عليه من هذا النوع من الشعر القريب من القصيدة الجديدة والذي يسايرها في أولى مراحل ظهورها، وهذه الأمانة هي التي جعلتني أقيم هذا القدر من المقارنة كما جعلتني أرفض نشر ما تم العثور عليه من هذه النماذج ضمن ديوانه الثالث والأخير حتى يتم التثبّت لأن القصد من وراء هذا الجهد هو حماية آثار الزبيري والحفاظ عليها وإخراجها إلى النور. وليس القصد ولن يكون محاولة الزجّ بالأستاذ الزبيري في معركة القديم والجديد أو استنطاقه شعراً جديداً أو تقليدياً، ويكفيه شرفاً أنه كان بصوته وبحياته ثم بدمه المنارة التي أضاءت لكل جديد، وهو الذي أيقظ النيام وتحدث عن المستضعفين في الوطن وفي مقدمتهم الفلاح، بمثل هذه

الأبيات التي يجد القارىء بقيّتها في الديوان:

إذا المزارع الشقي
في أراضي السعداء
لم يلق حظاً من حياة
أو نصيباً من غذاء
ولم ينل من جهده
غيرَ احتقارِ وازدِراء
ولم يعوّض من دموع
ودم بجرعة ماء
فأحرقوا سنابل القمح
بأرض الأغنياء
ودمروا ما تجدون
من حقول اللؤماء
الشاربين العذب ظلماً من دماء البؤساء

الطاعمين السحت

من لحم الجياعِ التعساء

الراقصين للنشيد

من نواحٍ وبكاء

المالئين للقبور

من ضحايا الأبرياء

الزاعمين أنهم

أشرف مَن تحت السماء

وبعد؛ فإن أصواتاً تتعالى بوقاحة؛ وأخرى بخجل تردد أن الأدباء قد أطالوا الحديث عن الزبيري وشعره، وهذا الديوان الذي تظهر معظم قصائده لأول مرة يؤكد أن محاولة دراسة الزبيري ومعالجة نصوصه الشعرية ما تزال في مهدها تحبو. وهيهات للكتابة ـ مهما تكاثرت ـ أن تُنصف صاحب هذا الصوت الخالد:

حسبي من الأيامِ أنّي عشتُ لا
أحتملُ الضّيمَ ولا أستعبدُ

ولا يموتُ ميت إن كان في
ذكراه، ما يبقى وما يخلدُ

نحن هدينا الناس من جهالة
وما علينا أنهم لم يهتدوا

نحن زَرَعْنا، وسقينا زرعَنا
دماً، ويأتي بعدَنا مَن يَخصِدُ

د. عبد العزيز المقالح
كلية الآداب ـ جامعة صنعاء

إنذار

أنشأتها بعد أن هدم الإمام بيت الشهيد زيد بن علي الموشكي.

أنشأتَ يحيى سُنَّة التخريبِ
فابشرْ بيومٍ للدمارِ قريبِ

ستخرِّبُ الأيامُ هيكلَكَ الذي
رمَّمْتَهُ بجرائمٍ وذنوبِ

وتحطِّمُ التاجَ الذي كلَّلْتَهُ
بركامِ أنقاضٍ ودمعِ حريبِ

*****

متى ينطلقْ شعبٌ وتسعدْ أمةٌ
ويُفَكَّ عن عانٍ وعن مكروبِ

أنزلتَ باليمنِ المريضِ من الأذى
ما أنزل الشيطان في أيُّوبِ

كانت حياتك محنة عاشت بها
قحطانُ بينَ مخالبٍ ونيوبِ

ومنها:

لا تستمغ للخائنين فإنهم
غشُّوكَ بالتطبيلِ والتطريبِ
إن البواكي هنَّ أصدقُ لهجةً
مَنْ دَجْلٍ مرتزقٍ أو فكٍّ خطيبِ
جعلوك معصومَ الجناب تجلُّ عن
نُصْحٍ وعن لومٍ وعن تأنيبِ
قد زيَّفوا لك كل شيء خيفةً
من صارم في راحتيكَ خضيبِ
فنشأتَ بين حقائقٍ مقلوبةٍ
وكبرتَ عن عقلٍ بها مقلوبِ
فمتى تحل المشكلات وأنت تحرسُها بكل مهنَّدٍ مرهوبِ

ومنها(*)

قد كنتُ أعلم أنَّ فيكَ تردُّداً
عن خوض معركة وشن حروب
في قلبك الجبّار ما يقضي على
شعب قوي المنكبين صليب
الحرب دونك قسوة وفداحة
منها على المتراجع المغلوب
الجائع الصعلوك عندك معدن
يغنيك عن بحث وعن تنقيب
تضع العصا في ظهره فيجود بالمال الغزير وبالدم المسكوب

*****

(*) هذا المقطع ينعي على الإمام تقاعسه عن الإشتراك في الحرب ضد المحور.

أنا آه

أنا أحيا في حومةِ الخطب وحدي

شنَّت الأرضُ كلها الحربَ ضدي

ضربَ الدهر حول كوخي حصاراً

ليتَ شعري ما يطلب الدهر عندي؟

ما أنا قلعة فتحتشدَ الأهوال حولي من أجل سحقي، وهدِّي

أنا آهٌ تطايرت من حطامِ الشعب، واستكبرتْ على المستبدِّ

أتقي نابَهُ، ومخلَبَهُ العاتي

بلحمي العاري، وصدري، وزندي!

وبقلبٍ مكبَّلٍ في شباكٍ

من صلالٍ ملء الجوانح رُبْدِ

لا قصيدي يزلزل الحائطَ الباغي، ولا زفرتي تحطِّمُ قيدي

*****

أقدار النكبة

رامَ شبّيرُ أن يضمِّد جرحي
فَعَدتهُ يد المنايا العجالِ
وأرادَ الوزيرُ طبي فأعدا
ه مصابي بالبعض مما جرى لي
دبَّر الأمرَ لي فأوشك أن يمسي وقد صار حالُه مثلَ حالي
ليسَ هذا أمراً عجيباً فقد مرَّ لعينيَّ منه ألفُ مثالِ
ما كبا حظُّهُ ولكنَّه نا
لَ جزاءَ الساعي لأمرٍ محالِ
منطقُ الحادثاتِ أقوى من الحقِّ ومن كل منطقٍ وجدالِ
وخطوبُ الزمان أثْبَتُ في العزمِ على الأمرِ من قلوبِ الرجالِ
ولها خطَّةٌ تسير إلى الغايةِ منها جريئةً لا تبالي
ولها عمرُها المقدَّرُ لا نبتزُّ منه سويعةً باحتيالِ
ولها شرْعةٌ على الناس تمضي، ليس تصغي منهم لقيلٍ وقالِ

في صراعٍ مع الشرائع والأخلاق والمصلحين والأبطالِ

والسعيدُ السعيد من يتوقّاها

ويمشي بحكمةٍ واعتدالِ

*****

لم تذقْ هدأةً مِن النومِ عَيني

لم يجدْ هدنةً من الهمِّ بالي

لم أنلْ جُرعةً بغيرِ كفاحِ

لم أسغْ لقمةً بغَيْرِ نضالِ

لم أسرْ خطوةً على الأرضِ إلا

كان فيها أحبولة لاعتقالي

كلّ شيءٍ صعبٌ لمن خُلِقَتْ دنياه من ظلمةٍ ومن أوحالِ

مضجعي من شدائدِ وخطوبِ

وطريقي من أذؤبِ وصلالِ

ويحَ عيني ماذا ترى؟ ربما تسرف فيما تحسُّهُ وتغالي

مسختْ لي طبيعةَ الأرض أم جُنَّ جنوني وضلَّ فيها ضلالي؟

أم تريد الدنيا تشوّه مرآها لعيني كي تستحثَّ زيالي؟

ما أنا يا دنيا حريصاً على البقيا ولا جازعاً من أمرِ الرحالِ

فافتحي لي الطريق إني لمَشتاقٌ إليها شوقَ المُحِبّ الغالي

فعلامَ التطويل أيتها الأقدار والسعي في الدروب الطوالِ؟

وإِلى ما هذيّ الصواعق حولي

والبراكين غاضباتٌ حيالي؟

قد ظلمتُ الخطوب جرياً ورائي

وحطمت النبال فوق النبالِ

أنا أدنى الأهداف منكِ فلا ترمي السهام الغضبى وراء الخيالِ

ما أنا حامل الجبال فتنهار على منكبيّ شمُّ الجبالِ

ما أنا صخرها العنيد فتضطر إلى كلِّ ذلِكَ الزلزالِ

فخذيني وحدي ولا تهدمي الدنيا لأجلي وعجّلي بزوالي

حطِّمي كلَّ ذرةٍ من كياني

واطمسي كلَّ خطرة من ظلالي

واخـرقـي رقـعـةَ الـسـمـواتِ فـوقـي
واخـسـفـي مـا مـشـتْ عـلـيـه نـعـالـي
وانسفي ما يحوم حولي من الشؤمِ لئلا يقيمَ بعد ارتحالي
واخـلـقـيـنـي خـلـقـاً جـديـداً يـوارىٰ
فـيـه شـخـصـي عـن أعـيـنِ الأهـوالِ
وضَـعـيـنـي فـي كـفَّـةِ الله أشـكـو
مـا تـحـمَّـلْـتُ مـن هـمـومٍ ثـقـالِ
إنـه وحـده الـقـديـرُ عـلـى إيـجـادِ
صُـلْـحٍ بـيـنـي وبـيـن الـلـيـالـي

*****

أشجاني وآلامي

في ذمةِ الشعبِ أشجاني وآلامي
وفي هواهُ تباريحي وتهيامي
أنفقتُ عُمْرَ شبابي للحميَّةِ عن
قومي وأنفس أيامي وأعوامي
بيني وبينهُمُ آلافُ مهلكةٍ
وهمْ دمي وهمُ خلفي وقدَّامي
ولي بقيةُ عُمْرٍ لا أضنُّ بها
على بقيةِ أهدافي وأحلامي

*****

بَحثتُ عن هبةٍ أحبوك يا وطني
فلم أجد لكِ إلاً قلبي الدامي
أعيشُ في الفلَواتِ الرُّبْدِ ليسَ بها
ظلٌّ ولا منهلٌ يحنو على الظامي
وأنشدُ الحبَّ في بِيدٍ نسير بها
من نابِ صِلٍّ إلى أشداقِ ضرغامِ

حرِّيَتُها إعتاقُ أعناقِ الصلال بها
واعتدَّها بعضُ أنصابٍ وأعلامِ
*****
آمنتُ أنَّ لنا حقّاً وأنَّ لنا
شعباً سينهضُ من كابوسِنا الطامي
وأنَّ في ظلماتِ الغيلِ مأسدةً
عضبى على كلِّ خوَّانٍ وظلاَّمِ
وأنَّ في الشعبِ أبطالاً وأنَّ بهِ
قوماً يُعدُّ الفتى منهم بأقوامِ
همُ العَزا لجراحاتي التي حملت
عزمي وهم عِوَضٌ عن قلبي الدامي
يرمي إلى هَدَفٍ واهٍ فتنسفُهُ
هُوجُ الرياحِ إذا ما أخطأَ الرامي
*****

ضجران

تعوَّدتُ في بلدة «بهاولبور» أن أخرج في الصباح مبكراً إلى ضاحية البلدة حيث المروج الخضر، يتخللها نخيل باسق، وأشجار وارفة الظلال، وتملأ أجواءها البيغاوات المرحة.
وفي ذات صباح لم أجد هذه البيغاوات كعادتها فبدت هذه الضاحية مقفرة موحِشة، وعدتُ إلى مقرِّي فكتبتُ هذه الأبيات:

ألا يــا أيــهــا الــبَــبــغــاءُ
حُــيِّــيْــتِ وأُكْــرِمْــتِ

نــزلْــنــا فــي بــهــاولــبــورَ ذاتِ الــمــعــقــلِ الــثــبْــتِ

أتــيــنــا الــروضــةَ الــغــنَّــا وبُــغْــيــتُــنــا بــهــا أنــتِ

فــمــا طَــوَّفْــتِ فــي أجــوائــهــا
الــفــيــحــاء، ولا طــرتِ

ولا أســمــعْــتِــنــا أنــشــودةَ الــفــجــرِ ولا فُــهْــتِ

ولا غــنَّــيْــتِــنــا صــوتــاً، ولا شُــلْــتِ ولا جُــلْــتِ

لماذا لم تكوني اليومَ
نشوى مثلما كنتِ
وأينَ رياشُكِ اللاتي
بفتنتِها تلفَّعْتِ
وحلَّقْتِ بها في جوٍّ
مَن شِئتِ وسيطرتِ
أنائمةٌ، وفي جنبيكِ
عاصفةٌ تحملتِ؟
أكسلى والرياح الهوج
طَوَعُكِ حيثما رحتِ؟
أغاضبةٌ على الفردوسِ
من زهرٍ، ومن نَبْتِ؟
وقد سوَّى لكِ الخالقُ
دنياكِ كما شئتِ
فكم سُحْبٍ ترشَّفْتِ
وكَم نهرٍ تذوقْتِ

وكم من ثمر سُغْتِ
وكم زهر تنسَّمْتِ
وكم دوحٍ حكمتِ به
الطيورَ وما ترفَّقْتِ
ظلمتِ الأبرياءَ بِهِ
وفُجِّعْتِ، ورُوِّعْتِ
وعانَقْتِ الأخلاَّءَ
وراقصْتِ، وقبَّلْتِ

*****

أما يكفيكِ يا حسناءُ
في الفردوسِ ما نِلْتِ
ولو كنتِ لحواءَ
نُسِبْتِ أو تحدَّرْتِ
لقُلْنا قد وَرِثْتِ الطبْعَ
منها، أو تعلَّمْتِ

*****

نقطة في الظلام

كتبها في «بهاولبور»

لَيلُكَ الشاعرُ فاسمعْ شِعْرَهُ
إنه يلقي علينا سرَّهُ
ليلُكَ المظلمُ فانظرْ أُفْقَهُ
إنَّه الكونُ يلاقي قَبْرَهُ
ليلُكِ الجبَّارُ مَنْ يَمْنَعُهُ
رجفةً حيثُ أتى أذكُرُهُ
هو يجري إثْرَ يومٍ هاربٍ
أبداً، واليومَ يجري إثرَهُ

*****

هدأتْ ثرثرةُ الدنُّيا بهِ
وطوى كلُّ لسانٍ غِيَّهُ
وغدا العالَمُ في هجعتِهِ
كلُّ صَمْتٍ فيهِ يُمْلي وَحْيَهُ

عافَ ثوباً زائفاً من كَذِبِ الشمسِ مصبوغاً، وأبدى زِيَّهُ
وتراءى مرعباً يكشِفُ كالوحْشِ في وجهِ السماءِ عُرْيَهُ

*****

وأنا المدفونُ في ظُلْمَتِهِ
وأنا التائِهُ في آفاقِهِ
وأنا المنسيُّ في سرفتهِ
ضائعٌ حتى على خلاَّقهِ!
نقطةٌ سوداءُ في عرضِ الفضا
تختفي حتى على إشراقِهِ!
لا يراها ناظرُ العينِ ولو
دسَّهُ الناظرُ في أحداقِهِ!

*****

ما أنا في ظلمةِ الليلِ الكثيفْ
ما أنا في هوَّةِ الكونِ المخيفْ
ما أنا في لُجَّةِ كوكبها
يتراءى لي كمخلوقٍ ضعيفْ

ضاعتْ الأنجم فيها كالهبا
أو كألفاظٍ لثرثاءٍ سخيفْ
ما أنا فيهِ؟ وما مشكلتي
ما بقائي، ما زوالي، ما الحتوفْ؟

*****

أنا زيفٌ، أنا أوهامٌ، أنا
حلُمٌ طاشَ إلى حقلِ الوجودْ
أنا إثمٌ قد نفاني التربُ عن
نفسهِ لكن إلى التُّرْبِ أعودْ
كذبٌ يغْمرُ حيناً ثم يرتدُّ كالأصلِ إلى طين ودودْ

*****

كيفَ أرجو أثرَ الدمعةِ في
عالَمٍ تُنْبَذُ فيه الأنجمُ
كيف أنجو أنا وحدي من دياجيهِ، والكونُ غريقٌ مظلمُ
مَن يداوي جرحي، ومَن يسمعُني
مَن يداوي محنتي، مَن يرحَمُ

أنا في الهوَّةِ وحشٌ كاسرٌ
ليسَ يدري ما الذي يلتهِمُ
*****

ها هي الهوَّةُ، ما أعجزَني
في دواهيها، وما أضْيَعني
ليتَ شِعري مَن رماني من ذُرى
أفْقِها الداجي، ومَن حطَّمَني؟
أنا في الوحدةِ أهوي ويحها
ما الذي في قعرها يجذبني
إنَّ شيئاً طالباً لحمي بلا
مهلةٍ، ويلاهُ، مَن يطلبني
*****

ما أنا في ظُلمةِ الليلِ الكثيفْ
ما أنا في هوَّة الكون المخيفْ
ما أنا في لُجَّةٍ كوكبُها
يتراءى لي كمخلوقٍ ضعيفْ
*****

عدوان وانسحاب

القصيدة الفائزة بالجائزة الثالثة في المسابقة التي عقدتها جريدة "المساء" بين الشعراء في العدوان الثلاثي على بور سعيد.

فـي ديـاجـيـرِ الأسـاطـيـرِ وأنـقـاضِ الـعـصـورِ

يـتـراءى فـي غـمـوضٍ
شَـبَـحُ الإِثـمِ الـكـبـيـرِ
حـاسـراً عـن وجـهـه الـمـنـكـر أصـبـاغَ الـدهـورِ

شـارِبـاً مـن دنِّـهِ الـوحـشـيِّ أرواحَ الـشـرورِ
لابـسـاً من سـذْفـةِ الـغـابِ ومـن جِـلْـدِ الـنُـمـورِ
حُـلَّـةً تـنـزعُ عَـنْـهُ
كُـلَّ حِـسٍّ وشـعـورِ

*****

يـخـرج الـسـكِّـيـنَ لـلـذبـحِ كـجـزَّارٍ جـسـورِ

ويـربِّـي الـنـابَ والـمـخـلـبَ لـلـيـومِ الـعـسـيـرِ

ويسوقُ الموتَ للطفلِ وللشيخِ الكبيرِ
ويعدُّ الحبْلَ مسعوراً لخنقِ المستجيرِ
ويصبُّ النارَ كي تطغى على الدَّمْعِ الغزيرِ
يعقِدُ المؤتمراتِ السودَ في العصرِ المنيرِ
ويقودُ الغربَ في دربِ الخطايا والفجورِ
عاصِباً عينيهِ يمشي خَلْفَهُ مَشْيَ الضريرِ
ويريدُ الفجرَ أن يوأدَ من قبل الظُّهورِ
ويريدُ الشَّمسَ ألاً تصبغَ الأرضَ بنورِ
ويريدُ الروضَ أن يخمدَ أنفاسَ الزهورِ
ويريدُ اللِّص أن يمرحَ من خلفِ الستورِ
آمناً من صحوَةِ الشعبِ ومِن بطشِ الضميرِ

*****

دُوَلُ العدوانِ ثالوثُ بلاءٍ مستطيرِ
أمعنَتْ في الغدرِ بالإنسانِ في كلِّ العصورِ
ضربَتْ ليلاً على العالَمِ من إفكٍ وزُورِ

واستطالَ الليْلُ حتى اغتالَ أضواءَ البدورِ
وبدا للكونِ وحشيٌ الرَّوىٰ جمٌّ الشرورِ
غيهباً قاءَتْهُ أحشاءُ كهوفٍ وقبورِ
يسرحُ الإجرامُ فيهِ وهو ذو طَرْفٍ قريرِ
*****
أعلنتْ أبواقُها في الغربِ تقديسَ الضميرِ
رَتَّلَتْ في كلِّ أُذْنٍ حَقَّ تقريرِ المصيرِ
وبكَتْ من فرطِ أحساسٍ ومن فرطِ شعورِ
خلَطَتْ دمعَ جبانٍ بدموعِ المستجيرِ
وَهَبَتْ وجهاً لإقطاعٍ ووجهاً لأجيرِ
ويميناً لغنيٍّ ويساراً لفقيرِ
قُبَلاً في حَلَقِ القيدِ ودمعاً للأسيرِ
*****
عكَفَتْ للغربِ في محرابِ قسّيسٍ وقورِ
وبأمريكا استعارتْ، جِسْمَ هنديٍّ فقيرِ

يجتدي لقمة عيشٍ، في رُواحٍ وبُكُورِ
يتباكى لقروضٍ ويصلِّي لنذورِ
عارضاً أضلاعَ نضوٍ دامياتٍ بالحصيرِ
وهي في الشرقِ لصوصٌ لبسَتْ زِيَّ الخفيرِ
تَهَبُ الأكفانَ للشعبِ وتزهو بالحريرِ
تمتطي أجنحةَ الزيتِ على متْنِ الأثيرِ
وذوو الزيتِ يُساقونَ لها عَبْرَ الحَميرِ

*****

وهي في أجواءِ مصرِ
ذات عدوان مشيرِ
خلعتْ أقنعةَ الزيفِ ودانَتْ بالسّفورِ
لعنةٌ ملء الفضاء الرَّحْبِ للغزو الحقيرِ
مأثم باء بهِ الجانون في الأفْقِ الطهورِ
جنب عين الله جبَّارِ السمٰواتِ القديرِ
في رحابٍ يلتقي القرآنُ فيها بالزبورِ
وطريق كانَ للوحْي وللسرِّ الخطيرِ

ولأرواحِ تطوفُ الكونَ تطْوافَ العبيرِ

ولأحلامِ العذارى، ولأنغامِ الطيورِ

أصْبَحَتْ معبر غاراتٍ وويْلٍ وثبورِ

رجمٌ من لعنةِ الحِقْدِ ومِن رجْسِ الضميرِ

تُمطِرُ الموتَ على شعبٍ - كما ظَنَّتْ - صغيرِ

ما على مَن صُبَّ فيهِ الموتَ من لومٍ كبيرِ

*****

وهي في البحرِ أفاعٍ
سابحاتٌ في الشرورِ

ممسياتٌ في فحيحٍ
مصبحاتٌ في هديرِ

ثملاتٌ من سُموم
راقصاتٌ من غرورِ

حاملاتٌ للشياطينِ
إلى الأرضِ الطَّهورِ

*****

حشدتْ في بورِ سعيدٍ
كلَّ أهوالِ السعيرِ

طمعَتْ أن يركعَ الشعبُ ويعنو للمغيرِ
روَّعَتْهُ بدمِ الأطفالِ والدمْعِ الغزيرِ
وبقايا من أكفٍّ ورؤوس وصدورِ
وعيونٌ طائرات في مناقيرِ الطيورِ
وقصورٌ حولتها الحرب أشباهَ قبورِ
وقبورٌ آوتْ الثوارَ من بعدِ القصورِ
زاحمَ الأحياء موتاهم بها عبرَ الشعورِ
أقسموا أن يُخرجَ الغاصبُ بالعارِ المريرِ
أشهدوا موتاهمو أن يصبروا صبرَ الصخورِ
حُفَر الأشلاء صارَتْ مثلَ آجامِ النُّمورِ
نبعتْ من كلِّ شلْوٍ روحَ بَعْثٍ ونشورِ
توقظُ الشعبَ بصوتٍ، كالحريقِ المستطيرِ:
يا دماءَ الشعبِ ثوري... واصنعي روحَ الصقورِ

حطِّمي أغلالَكِ الرُّبْدَ بإعصارِ السعيرِ
وانسُفي السجنَ بأنفاسِكِ سوراً بعدَ سورِ
واصهري باللَّهَبِ الأحمرِ نيراً بعدَ نيرِ
واسحقي في حقدِكِ المسموم أنيابَ المغيرِ

*****

فإذا الغاصب في خَطْبٍ من الغزْو عسيرِ
لم يجدْ أمْنَ مُقامٍ لا ولا أمْنَ عبورِ
فهو محصورٌ لشعبٍ باسلِ الروحِ غيورِ
وجحيم من حوالَيْهِ وحِقْدٍ ونُفورِ
جمَّدَتْهُ بور سعيد بفحيحٍ وزئيرِ
فهو فيها كأسيرٍ بحِماها مستجيرِ

*****

وإذا العالَم يهتزُّ من الغدْرِ المثيرِ
خُنِقَ العدوانُ بالغضبةِ منه والنكيرِ
سُجِّلَ الخِزْيُ عليهِ
خالداً عبرَ الدُّهورِ

قــاضـيـاً بــالــطـرْدِ لــلـمـجـرمِ والـعــارِ الــشــهـيــرِ

*****

خـرجَ الـغـاصـبُ كـالـهـاربِ مـن سـجـنٍ كـبـيـرِ

أنــقَــذَتْــهُ لــعــنــةُ الــعــالــم مــن شــرٍّ كــثــيــرِ

فـانـطـوى فـي لـيـلِـهِ الـمـهـزومِ كـاللِّص الـوقـورِ

هــادئــاً فــي عــاصِــفٍ مــن لَــعَــنــاتٍ وصــفــيــرِ

عــبـقـريّ الإثــم والــخـسّــة مـفـقـودَ الــنـظـيــرِ

*****

ملحمة بور سعيد

عــدوٌّ تــلــمَّــظَ، واســتــأسَــدا
وثــارَ عــلى عــصــرِنــا الــطــالــعِ
رأى مــصــرَ صــامــدةً لــلــعِــدا
تــقــاومُ فــي مــوقــعٍ رائــعِ
تُــجــنِّــدُ أبــنــاءَهــا لــلــفِــدا
وتــدفَــعُــهُــمْ لــلــمــدى الــواســعِ

***

فــضــجَّ، وأعــول مــمــا بــدا
لــعــيــنيــهِ مــن خــطَــرٍ واقــعِ
وراحَ كــذي جِــنَّــةٍ، واغــتــدا
يــصــولُ عــلى همِّــهِ الــفــاجِــعِ
وقــالَ لــكــفَّــيْــهِ مــســتــنــجِــدا
وليسَ لما قــالَ مِــن ســامِــعِ

***

أتــجْــمــعُ مــصــرُ رفــاةَ الــلــحــودِ
وتخــرُجُ مــن قــبــرِهــا لــلــحــيــاهْ

وتـفْـتَـحُ أعـيـنَـهـا لـلـوجـودِ
ويـمـتـدُّ سـلـطـانُهـا لـلـقـنـاهْ
وتـذْكُـرُ لـلـعُـرْبِ حَـقَّ الإِخـاءِ
وتـدعـو لـنـكـرانِ حـقِّ الـضـراهْ
ويـمـتـلِـكُ الأرضَ فـلاحُـهـا
ويـأكـلُ مـا زرعَـتْـهُ يـداهْ
ويـشـربُ مِـن نـيـلِـهـا أهـلُـهـا
ولا يـركَـعـونَ لـسـوطِ الـطـغـاهْ

*****

فـأيـنَ مـذابـحُـنـا الـدامـيـة
وأيـنَ سـيـاسـتُـنـا الـغـازيـهْ
وأيـن الـفـسـادُ، وفـاروقُـهُ
ومـا اجـتـاحَـهُ حُـمْـقُ الـطـاغـيَـهْ
أسـبـعـيـنَ عـامـاً قـهـرنـاهـمـو
وتـبـقـى لـهـم هـذه الـعـافـيـهْ؟
لـقـد أبـقَ الـعَـبْـدُ فَـلْـنَـمـتـشِـقْ
عَـصـانـا لـيَـعـبُـدَنـا ثـانـيَـهْ

*****

وعادَ العدوُّ مئاتِ السنينْ
ليبحثَ عن حقِّهِ في الجنونْ
وطافَ بنيرونَ في قبرِهِ
وجنكيز بين رماد القرونْ
وسَادَتْهُ روحُ ذواتِ النيوبِ
في غابِها، وذواتِ القرونْ
وحلَّ اللصوصُ، وآثامُهُم
بهِ، والجرائم، والمجرمونْ
*****
وكانَ ضلالاً بهِ ينحدِرْ
ويُدْفَنُ فيهِ الكيانُ القذِرْ
كأنَّ جرائمَهُ في العصورِ
أتَتْ تحتَ أقدامِنا تنتحِرْ
كأنَّ الشعوبَ التي اغتالها
ودمَّرَها منهُ حُكْمٌ عَسِرْ
ثوتْ في الأشاوسِ من بورِ سعيد
لمصرع قاتِلِها تنتَظِرْ
*****

رمىٰ بجهنَّمِهِ الحاقِدَهْ
ليسحَقَ أجيالَنا الصاعدَهْ
ويوقفَ أيامَنا الزاحفَهْ
ويُخْنُقَ أنفاسَنا الواقدَهْ
ولَم يدرِ أنَّ لنا أفئِدَه
تعيشُ بها أُمَّةٌ خالِدهْ

*****

تسلَّلَ خِنجرُهُ الغادِرُ
فروَّعَهُ دمُنا الفائرُ
وذابَتْ مخالبُهُ في الجراحِ
وأحْرَقَها ثأرُنا الثائِرُ
وكَمْ راحَ يزأَرُ ملءَ البِحَارِ
وملءَ الفضا صوتُهُ الفاجرُ
فلَمْ يكُ ذاكَ زئيراً لهُ
ولكنَّهُ النَّفْسُ الآخِرُ

*****

أَيَمتلِكُ اللصُّ بَيْعَ الشُّعوبِ
وَمَحْوَ الحياةِ، وقَهْرَ القَدَرْ؟
لماذا إذاً تتعالىٰ السَّما
وتجري الشموسُ، ويسري القمرْ،
وفيمَ إذاً كلُّ هذا الضّيَا
على الأرضِ يَصْقُلُ روحَ البشَرْ
وما آيةُ الله إنْ لَمْ تَكُنْ
نَكالاً على مَنْ بَغى أو غَدَرْ

*****

ومن دونِ حقٍّ ومن دونِ ثارِ
دهانا بقوّاتِهِ في البحارِ
وعبأ للجوِّ رهْطَ البوارِ
وجهّزَ كلَّ حديدٍ ونارِ
ولَقَّنَهُم كلَّ إثْمٍ وعارِ
ومنّاهمو بالعلى والفَخارِ
وقالَ لهم: ساعةٌ من نهارِ
وتَعْقُبُها نشوةُ الانتِصارِ

*****

وقال: اشنِقوا مصرَ شَنْقَ العُصَاةْ
ولا تدعوها تذوقُ الحياةْ
ولا تتركوها تؤدي الصَّلاةْ
- إلا إذا ركَعَتْ للغُزاةْ -
وألغَتْ علاقتها بالآلهْ
وبِالعَرَبِ من قومِها والقناةْ
فإنَّ بني النيلِ قومٌ عتاةْ
إذا رفعوا في السَّماءِ الجِبَاهْ

***

وراحَتْ جهنَّمُ العاتيهْ
تُفجِّرُ أحقادَها الضاريهْ
نقاتلُها دونَ أطفالِنا
لتَفديهِمُ المُهَجُ الغاليهْ
وَنَبْرُزُ للموتِ في ساحِها
ونلقى معاركَها الدامِيَهْ
فتأبى نِزالَ الرجالِ الشِداد
وتغدو لأطفالِنا غازِيَهْ

عَجِبْتُ لِهذا العدوِّ العتيِّ
يُهاجِمنا في ظلامِ العشيِّ
ويرمي قنابِلَهُ كالعمّي
فوقَ العجوزِ وفوقَ الصبيِّ
هنيئاً لهُ من شجاعٍ قويّ
وفي حِقْدِهِ الرائِعِ العبْقَريِّ
تحَدَّى بِهِ كلَّ حرٍّ أبيٍّ
وضحّى بمركزه العالميِّ
*****
ويا لكِ من قصَّةٍ بور سعيد
ومن غُصَّةٍ للعدوِّ العنيدِ
يظنُّكِ لما رأى من بعيد:
كحلوى تسوغُ بحلقِ الوليدِ
ولّما استساغكِ شِدْقُ البليد
وقَفْتِ لهُ شوكَةً في الوريدِ
فضجَّ وأقسمَ أن لا يذوق
لقمةَ حلوى ولوْ يومَ عيدِ
*****

فيا شوكةً في حلوقِ الذئابِ
منعتِهِمُ أنْ يُسيغوا الشرابْ
وأنْ يضعوا لقمةً تحتَ نابْ
وأن يكسبوا القوتَ في أيِّ غابْ
وأنْ يَطعَموا لذَّة الاغتصابْ
وأن يلفظوا الآه عندَ المَصابْ
وعندَ اختِناقٍ بخزيٍ وعابْ
غداةَ الهزيمةِ والانسحابْ

***

لقد واجهوا أرضَكِ الطاهرهْ
يظنونها نزهةً عابرهْ
وغمزة زرٍّ من الباخرهْ
تقودُكِ مقهورةً صاغرهْ
وتدفُنُ أمجادَكَ الغابِرهْ
وتَنْهَبُ ثروتَكِ الزاخِرهْ
وتُرسِل (إيدنْ) إلى القاهرهْ
وتبعثُ شعبُكِ للآخرهْ

*****

ولكــــنْ ثبــتِّ لهـــم بــور سعيــد
كما يَثْبُتُ الليْـثُ فـــي غابتِهْ
وألْقَيْــتِ هابِطَهــم كالطريــدِ
يبـــــارز لا شـــيء فـــــي وحــدتِهْ
وجَمَّدْتِ جنديَّهُــم فـــي الحديـــد
فـلـــم تـؤوِهِ غـيـــرُ دبـابـتِـــهْ
*****

وأثـبـتِّ أنَّـكِ غِـيـلُ الأسـودِ
وأنَّــكِ صـامــدةٌ كـالخـلــودِ
وأنَّكِ مـــا لا ينـــالُ الطُّغاة
ومـا ليـسَ يشـرونَــــهُ بالنقــودِ
ومــا لا يـسـوقـونــه بـالـعـصـا
ومــــا لا يجرونـــه فـــي القيـــودِ
حبستِ الحيـاة بحلـقِ الغــزاةِ
وحاصَرْتِ أنفاسهـم في الـــوريدِ
*****

لقد وجدوا جندهم في الظلامْ
وباتوا وأنفهُمُ في الرُغام
يحاكِمُهُم عالم لا يُضام
سريعُ الحسابِ رهيبُ الخِصام
يصبّ لهم لعناتِ الأنام
ويُنذِرُهُم بطشه الانتِقام
فما بور سعيد لهم بمقام
ولكنها قفَصُ الاتّهام

*****

وراء الحواجز شُعْث الشَّعَرْ
يلزُّونَ أشباحَهُم في الحفَرْ
كما يدخل الوحش دنيا الحُفَرْ
فيرتاعُ من لحظَاتِ النَّظَرْ
ويخشى ظِلال الحصى والحَجَرْ
وفيها رمز طول جريٍ وَفَرْ
ومن فُرطِ جَهلٍ بسرِّ القدَرْ
ومعنى الحياة وروح البَشَرْ

*****

وفُجِّرَتِ الأرضُ من تحتِهِم
وفارَتْ لحودٌ بروحِ الجدودْ
وقامت عجوزٌ تُنادي الفدا
وتطلبُ من بور سعيد الصمودْ
وقالت لهم: قاوِموا الاعتدا
وثوروا بوجهِ العدوّ اللّدودْ
ولا تجزعوا من سلاح العدا
فروح العرين سلاح الأسودْ

*****

ويهبط غازٍ على دربِها
فترمي يدُ الهُونِ في رأسِهِ
ويلقاهُ آخر من أهْلِها
فيلقى المنِيَّةَ من فأسِهِ
وتلفُظُهم لعناتُ السماء
لينْساقَ كلٌّ إلى نَحْسِهِ
فذاكَ شظايا إلى دَفْنِهِ
وهذا رمادٌ إلى كَنْسِهِ

ويندَلِعُ الشعبُ بينَ البيوتِ
حريقاً ينافِحُ عن أهْلِهِ
يُقاتِلُهُم بالذي عنده
ولا يتخيَّر في قَتْلِهِ
يشوي عدوّاً بسفّودِهِ
ويَشْنُقُ آخر في حَبْلِهِ
ومَنْ يُطْعِمُ الموتَ من نَعْلِهِ
كَمَنْ يُطْعِمُ الموتَ من نَصْلِهِ
*****
وراعَ الشُّعوبَ جهادُ الأباة
وبأسُ الكماة وقهرُ الطُّغاه
وقُطْر صغير تلقى الخطوبْ
فما طاشَ ذعراً ولا مالَ آه
وأدركَتِ الأرضُ أنَّ بمَضْرِ
شعباً أبيّاً يريدُ الحياه
يدافِعُ عن حقِّ كلِّ الشُّعوبِ
ويَكْتُبُ درْساً لكلِّ الغزاه
*****

وشُلَّتْ بمصرَ يدُ المُغتدين
وحاقَتْ بِهم لعنةُ العالمينْ
وكَمْ قد أداروا كؤوسَ الأسى
لقَهْرِ شعوبِ الورى أجمعينْ
وكَمْ سَحَقوا بأساطيلِهِم
وكَمْ زلزلوا مَضْجَعَ الآمِنينْ
فلَمْ يجِدوا مَنْ يرُدُّ الأذى
ومَنْ يتحدّى يدَ الآثِمينْ
ولَم يَكُ يلقَوْنَ في فتحِهِم
سِوى قُبَلٍ في يَدِ الفاتِحينْ
*****
ودارَ الزمانُ على الظالمينْ
فجَرَّعَهُمْ غُصصَ البائسينْ
أذاقَتهمُ مصرُ مرَّ البَلا
وردَّتْهمو دونَها صاغرينْ
وعلَّمتِ الأرضَ أن الضعيفَ
قويٌّ إذا قاوَمَ الغاصبينْ

وأَنَّ سلاحَ الحديد الرهيب
تحطِّمُهُ شوكةٌ في العرينْ
*****
وقالَ الورىٰ ويلَكُمْ من غُزاة
بغيرِ منازلكم نازلينْ
تُريدونَ قيداً لعَضرِ طليق
وعوداً بنا لمئاتِ السنينْ؟
ألا فاحملوا قيدَكُمْ وحدَكُمْ
ولا تفرضوا القيْدَ للآخرينْ
وللقهقهرى فارجِعوا أنتمُ
ولا ترجِعوا أُمم الثائرينْ
وموتوا جِياعاً ولا تَغتَدوا
على لُقمَةٍ في فَمِ الجائعينْ
*****
أحسُّوا وقد نزلوا بور سعيد
بأنَّ جريمتَهُم لا تُفيدْ
وأنَّ المدينةَ قلبٌ عنيد
يزلزلُهُم منهُ نبضٌ شديدْ

يُطيحُ بأسطولِهم في البحارِ
ويُلغي الجيوش ويغلي الحديدْ
وأنَّ العروبةَ نبعُ الوقود
وفي يدِها قَطْعُ هذا الوريدْ
*****

تشلُّ أوربا وآلاتِها
وتوقف كلَّ حديدٍ يدورْ
وتشوي العِدا بجليدِ الشِّتا
وتحرُمُهُمْ من ضِياءٍ ونورْ
وتَهْزُمهم دونَما غارة
ولا ذَرَّة أو حروب تثورْ
وتتركُهُم في رِحابِ القصور
يعانونَ منها ظلامَ القبورْ
*****
بذاكَ تُجلَّى لكلِّ الأمَمْ
بأنَّ مكانَتَنا في القِمَمْ
وأنَّ الحضارةَ من دونِنا
ودونَ عروبَتِنا كالعَدَمْ

وأنَّ العدوَّ خليقٌ بأنْ
يكون فداءً لأرضِ الهَرَمْ
وإنَّا أحقّ بصَوْنِ القناة
وأجْدَرُ منه بحِفْظِ الذِّمَمْ

*****

وأدرَكَ قلبَ العدوِّ العطبْ
فَلَمَّ جرائِمَهُ وانسَحَبْ
ولم يلقَ في كفِّهِ ما طلبْ
ولا في حقائبِهِ ما نَهَبْ
ولم يجن بالغزو غير الهربْ
وغيرَ انطلاق بلادِ العَرَبْ
فكانَ كمَنْ لَمَّ شَمْلَ الحطبْ
وأَشْعَلَهُ تحتَهُ والتَهَبْ

*****

فيَا أخطبوطاً طوى في الرِّقابِ
رُقاً ويا سرطَانَ البشَرْ
لقدْ ضاقَتْ الأرضُ من طولِ ما
جثمْتَ عليها وضجَّ القدَرْ

وكم مرةٍ قد طلبنا المفرَّ
منكَ فأعيا علينا المَفرّ
وها أنتَ تطلُبُنا مهرباً
فسِرْ حيثما شِئْتَ واسبحْ وطِرْ
*****
تَمزَّقْ هباءً وخلٌ الجحيم
- تأخُذُ منكَ وخلٌ سَقَرْ
وخلٌ الشعوبَ تروِّي الغليل
- من غضبٍ قدْ طغى واستعَرْ
ودَعْ للسُّجونِ ودَعْ للشقاء
- عطلةَ دَهرٍ ودَعْ للغِيَرْ
وأَفرِجْ عن الناسِ من سدْفةٍ
ملأتَ بها جوَّهم فاعتَكَرْ
*****
إلى لعنةِ الله انكلترا
إذا شِئْتِ أو لعنات الورى
فلن تبصري رحمةً في السَّما
ولن تَجِدي موئلاً في الثرى

وليسَ يُفيدكِ أن تُقدِمي
على الحربِ أو تَزجِعي القهقرى

*****

تريدينَ للحربِ بترولَنا
وللنَّهْبِ والسَّلْبِ محصولَنا
وتُلْقينَ ناراً على زَيْتِنا
وتَشْوينَ بالنَّارِ مقتولَنا
وتسْتَدْفِئينَ على شيِّنا
وتسْتَمتعينَ بتمزيقِنا
قسَّمْتِ قضيَّتَنا بينَنا
للدنيا اللظى ولديكِ الهنا

*****

صحوْنا برغمِكَ يا (إيدنُ)
فللفجرِ ربٌّ بِهِ نؤمِنُ
لقدْ كنتَ وهماً بهِ نُفْتَنُ
وتخرسُ من أجلِهِ الألسُنُ
فإنْ ضِقْتَ أنَّىٰ أتانا الصباح
وغادرنا ليلَكَ المزْمِنُ

فَمُرْ أنْتَ أنْ لا تُحِسّ القلوب
ـ شيئاً وأنْ لا ترى الأعيُنُ

*****

لنا أرضَنا وشذاها الكريم
وما مَرَّ في جوِّها مِنْ نسيمْ
وما نامَ في حِضْنِها من رَضيع
وما دبَّ في رَحبِها من فطيمْ
وما طافَ في روضِها من عَبير
وما هبَّ في بِيْدِها من ظليمْ
إذا الوردُ لم نتنسَّمْ شذاه
رأى نفسَهُ دونَنا كاليتيمْ

*****

وأبرقَ (موليهُ) من حُمْقِهِ
وأَرْعَدَ ضدَّ القضا والقَدَرْ
يُؤْرِقُهُ أنَّنا أُمَّةٌ
تعدُّ كأمَّتهِ في البشَرْ
يُطارِدُ أشباحَنا في الدُّجى
ويُلْعِنُ أشْخاصَنا في البُكَرْ

ويشطُبُ تاريخَنا في الحياةِ
وينفي الأصولَ ويمحو الأثَرْ
ويَهْوي بخِنْجَرِهِ في الهوا
من حِقْدِهِ ويَعُضُّ الحَجَرْ
*****

وما ذَنْبُنا إنْ خُلِقْنا هُنا
وأَنَّا سَبَقْناهُ في مجْدِنا؟
وأنَّا مَنَعْناهُ عن حقِّنا
وإنَّ القناةَ على أرضِنا
وروحُ الحضارةِ بترولُنا
أمانَةُ بارِينا عِنْدَنا
مغانيها مِلْكُ أيْمانِنا
وآبارُها تحتَ أقْدامنا
تحلُّ بها روحُ أجْدادِنا
وتَحْرُسُها عينُ أَبْنائِنا
*****

وما ذَنْبُنا إنْ خُلِقْنا هنا
وإنَّا نَبَتْنا بقلْبِ الوجودْ
وأنْ أودَعَ الله بترولَهُ
لدَيْنا بجَنْبِ رُفاةِ الجدودْ
وأنَّ الإلٰه ارتضى أننا
نكونُ الحُماةَ لَهُ والجنودْ
حمَينا لهُ الوحْيَ روحَ السَّما
ونَحْمي لهُ الزَّيْتَ روحَ الوقودْ
*****
وما ذَنْبُنا إنْ خُلِقْنا هُنا
وفي يَدِنا عُنُقُ العالمينْ
وأنَّا فَتَحْنا قناة الحياة
في أرضِنا للورى أجمعينْ
وكَم من ضحايا لدى حَفْرِها
وهَبْنا ومِن أدْمُعِ البائسينْ
فلم تجرِ فيها مياهُ البحار
- إلا وراءَ دمِ الكادحينْ
*****

شقـقـنـا بـهـا فـي شـرايـيـنـنـا!!!
طـريـقـاً تـسـيـرُ عـلـيـهِ الـسَـفـيـنْ
تـمُـرُّ عـلـى مُـهَـجِ الـمـشـرِفـيـنْ
- مـنًّـا وفـي أعـيـنِ المرشِـديـنْ
ونـحـنُ الـرعـاةَ لـهـا الـعـارِفـون
- في غَـورِهـا كـلّ سـرٍّ كـمـيـنْ
نـحسُّ بـمـا اصـطـكَّ فـي مائِـهـا
كـمـا قـدْ نـحسُّ بِـنَـبْـضِ الـوتـيـنْ
فإنْ لـم يَكُـنْ شعبُنا في القناة
أميناً فـمَـن ذا يـكـون الأمـيـنْ؟
*****
ومـا ذَنْـبُـنـا أَنَّـنـا هـٰهـنـا
نـدافِـعُ عـن مُـثُـلٍ عـاليَهْ
نؤاخي الشُّعوبَ ونأبى الحروب
ونـطـلُـبُ حـرِّيـةً غـالِيَهْ
ولا نـدَعُ الـغـربَ يُـلـقـي الـغـيومَ
بـآفـاقِـنـا الـحـرَّة الـصـافـيـهْ

ولا نـقْـبَـلُ الـمـالَ يَـبـتـاعُـنـا
ليغــزو بــنــا أُمّــةً ثــانــيهْ
*****

ستغزو الحياةُ عشاشَ الطيورْ
ويروي الضياءُ عيونَ الصقورْ
وينطلِقُ النبعُ بينَ الزهورْ
فيسقي الحَمَامَ ويُحْيـي النُّمورْ
وتَنْبَعِثُ الروحُ رُغْمَ القبورْ
ورغـمَ الـطـغـاةِ وُلاةِ الأمـورْ
فمَنْ شاءَ للشَّعْبِ أنْ لا يثور
فـليأمُـرِ الـشـمـسَ أنْ لا تـدورْ
ولا يبقَ في الأرضِ إشعاعُ نورْ
ولا يـرضـى لله يـومَ الـنـشـورْ
*****

صـحَـوْنـا بـرُغْـمِـكَ يـا طـاغـيـهْ
وقُـمْـنـا لِـنَـخْـلَـعَ ثـوبَ الـكَـفَـنْ
ولَـمْ تـبـقَ مـن أعـيـنٍ غـافـيـهْ
فقدْ سَحَقَ الليلُ زَحفَ الزمنْ

ظـهـرتَ بـصـورتِـكَ الـعـاريـهْ
جـرائـمَ شـاخـصـةً فـي وَثَـنْ
وأعـلـنـتَ أسـرارَكَ الـخـافـيـهْ
وأظـهـرتَ فـي أمرِهـا مـا بطَنْ
*****

أتَـصَـنَّـعُ حـريَّـةً لـلـقَـنـاة
وأنـتَ تـعـيشُ لـقَـطْـعِ الـطـريـقِ
أتـحـرُسُ حـقّـاً وأنـتَ الـذي
أشَعْتَ على الأرضِ نَهْبَ الحقوقِ
وأنـتَ سـلَـبْـتَ دِمَـاءَ الـشُّـعـوب
ـ حريَّةَ الـسيـرِ عَـبْـرَ الـعـروقِ
وَلَـوْ تَـحْـكُـم الـفَـلَـك الـمـسـتـديرَ
مَنَعْتَ على الشمسِ حقَّ الشروقِ
*****

العشق وراء الأقنعة

يَلبَسُ العِشقُ تارةً طَمْرَ صعلوكٍ شريدٍ وتارةً تاجَ قيصرْ

ويرى عارياً وديعاً وأحياناً يخوضُ الوغى ويلبَسُ مَغْفَرْ

هو حيناً في الغارِ يرغو ويجأرْ،

وهو طوراً في الحربِ يغزو ويقهَرْ

كنز ديرٍ في الأرضِ أو روحُ منبرْ

أو قُوىً في يمينِ فاتِحِ خَيْبَرْ

*****

دعوة إقبال

ربِّ هِبْ للشَّبابِ آهاتيَ الحرَّى
وهَبْ للصقورِ ريشاً جديدا
بُغْيتي أن تمدَّ في الأرضِ من
شُعْلَةِ قلبي نوراً عميقاً مديدا

*****

غزو الأعماق

ليسَ في عِرْقِ مسلمٍ من دمٍ باقٍ ولا في غرامِهِ من جنونِ
ما دهى المسلمين، أيُّ عدوّ، نالَ منهُم وأيُّ حربٍ طحونِ؟
أيُّ خَطبٍ إلى المشاعِرِ والأعماقِ وافى وأيُّ غَزْوٍ لَعينِ
أَفْلسوا من قوى لهم كانت الدُّنيا بِها في حرارةٍ ويقينِ

*****

فلسطين

هذه القصيدة من بدايات الزبيري وقد عارض بها قصيدة من نفس الوزن والقافية.

قُمْ إلى الحقِّ داعِياً مستجاباً
وابْعَثْ النَظْمَ للضلالِ شهابا
وادعُ أهْلَ الإسلامِ بالمقْوَلِ العا
لي الذي يُنْعم الزمان اصطخابا
إِيهِ عبد الحميد ما ذلك النظم الذي يُصدع القلوب الصِلابا
صُغْتَ من معدنِ البلاغة تِبراً
يتراءىٰ على القلوبِ حِرابا
سَحَرَتْنا منكَ القوافي فأضحَى
علقَمُ الموتِ مورِداً مُستَطابا
إنَّ مَن حاذَرَ الحِمام فولّى
هارِباً ماتَ بالفَرارِ عِقابا
هؤلاء العِدى يُوالونَ فينا
كلَّ يومٍ تجبُّراً واغتصابا

خاطَبونا بأحسنِ الموت في الجوّ. . فكان الجوابُ منا عتابا

يا لها غفلة كَرَعْنا بها الذلَّ
لدى النائبات صاباً فصابا

هذه ضجّة الردى من فلسطين فلِمَ لا تقوم منها غِضابا

أخوةٌ فارقوا الديار وهم فيها ولاقوا من القطونِ اغترابا

مَزَّقَتْهُم أيدي الحضارة ظُلما
وأرتهم من البلاءِ عِجابا

ولقد أوحشوا البقاعَ لِما قا
سوا وكادت بأن تَميد ارتيابا

كل طود لولا التجاء المصابين إليه لاندكَّ رُعباً وذابا

رحلوا نحوَ مجدِهم وتباروا. .
في سبيلِ الجهادِ شيخاً وشابا

صبروا للبلادِ ولو كانَ فجر الدهر لولى عزّ الوجود وغابا

خلعوا حُلّة الدماءِ على الشعب فصارت على العُلى جِلبابا

وتكادِ السماء تحسد أرضاً
وهبوها تلكَ الدماء شرابا

وتقول النجوم يا ليتني كنتُ لتلكَ الأجسادَ منهم تُرابا

بأبي تلكُم النفوس اللواتي
دَفَعَتْ موجة الجنون غلابا

حسبوها كالكبش ينقادُ طوعا
فرأوها عندَ الدفاع ذئابا

هددوها بالموتِ ظُلماً فقالت:
إننا نطلبُ الحِمامَ طلابا

إنْ أصابوا منا فإنَّ لدَينا
باقياتٍ من الإِبا لن تُصابا

وإذا ما الضعيفُ لاقى قويّاً
تائهاً أصبح القويُّ المُصابا

يا فلسطين هكذا ترتقي الرو
ح فتفدي الأوطانَ والأحسابا

يا فلسطين هكذا يُدْفَعُ الضَّيْمُ ولو كانَ قاهِراً غَلاَّبا

يا فلسطين هكذا يُطْلَبُ المجد ولو كان في فمِ الموتِ نابا

يا فلسطين إنما يُعْرَفُ الحُرُّ إذا مسَّهُ المُصابُ وُصابا

يا فلسطينُ إننا نشتكي البؤ
سَ ونلقَى كما لقِيْتُم عذابا
يا فلسطينُ إنَّ كلَّ فؤاد
يتلظَّى تأسُّفاً واكتئابا
ذهبَتْ هذه الخطوب بسلوا
نا وَعِفنا بها المياه العِذابا
نحسبُ الرعدَ أنَّةً ونخالُ
القَطْرَ دمْعاً ونُطْعَمُ الشَّهْد صابا
وإذا ما بكى الحزين تظنَّىٰ
كلَّ صوتٍ في مسمعيْهِ انتحابا
إنما المسلمونَ روحٌ وجسمٌ
يتراءىٰ قبائلاً وشِعابا
يا فلسطينُ إنَّ فينا شعوراً
لو تجلَّى على الحديدِ لذابَا
لا تظنّوا أنَّا إذا ما ذهبتم
سنرى العيشَ بعدَكُم مُسْتطابا
إننا نُزمِع الرصيد إلى الله ونُزجي إلى المَنونِ الرِكابا

وإذا لم نجِدْ على الأرضِ عزا
فسنلقاهُ في السماءِ ثوابا
يا فلسطينُ إنْ بَعُدْنا فإنَّا
نُرْسِلُ الروحَ من بعيدٍ كِتابا
هذه مُهْجتي تذوبُ نظاماً
فإليكُم مني الفؤادَ المُذابا
فخذوا غادة القصائد كالشمسِ ضياءً وكالجحيمِ التِهَابا
جئتُ فيها بكلِّ معنى مصوغٍ
من ضميرِ الغيوبِ يُبْدي العِجابا
إنَّني أمْتَطي الخيالَ فألقى
من وراءِ الوجودِ بحراً عُبابا
وتَشُقّ الأكوان لي فأرى من
خلفها ما يحيِّرُ الألبابا
*****

عبقريّ الطب

إلى الدكتور الإنساني الصديق السيد أحمد قرة، وتعبيراً عن أعمق مشاعر التأثر والشكر أقدم هذه الأبيات اعترافاً بفضله.

يا عبقريَّ الطبِّ كَم راعَني،
صنيعُكَ البرُّ وكم هزَّني
سَوَّيْتَ وَضْعَ العينِ في طفلتي،
بعدَ انحرافِ شائهٍ مزْمِنِ
مَنْ لي بأنْ أشكرَ مَنْ رَدَّ لي،
عيْناً وأنْ أُجْزي يدَ المُحْسِنِ
الطبُّ إعجازُكَ لكنَّ لي
الشِّعْرَ ومَن يُجْزَ بِهِ يُغْبَنِ
مُعجزَةُ العِلْمِ التي حُزْتَها
فدىً لها معجزةُ الألْسنِ

*****

يا عبقريَّ الطبِّ كَمْ تبتني،
مجداً من الطبِّ وكَمْ تقتَني

لـوْ جـحـدَ الـمُـقْـلَـةَ إنـسـانُـهـا،

وضـاعَ عـنـهـا ضـيـعـةَ الأَزْعَـنِ

صنعتَ إنساناً لأجفانها الثكلى من الطبِّ المضيء السَّني

ولـو عَـدِمْـتَ الـطـبَّ أعـطـيْـتَـهـا،

إنـسـانَـهـا مـن قـلـبِـكَ المؤمـنِ

لَـنْ يُـفْـجَـعَ الـنـاسُ بـأبـصـارِهِـم،

مـا دُمْـتَ فـيـهـم (قُـرَّةَ) الأعـيُنِ

*****

١٩٦٠/٦/١

ميلاد جناح، والقضية الباكستانية

وُلِدَ الصقرُ، واثباً في فضائِهْ
عاتياً في هبوبِهِ، وارتمائِهْ
طيّهُ شعلةٌ تضيءُ له الكونَ، وتُزْجي بهِ إلى عليائِهْ
عاصفٌ أسْرَعَتْ بِصَنْعَتِهِ الأقدارُ واستولدَتْهُ في أجْوائِهْ
يتخطّى الجبالَ شُمّاً فإنْ عاقَتْ سُراهُ تطايرَتْ في هَبائِهْ
أطْلَقَتْهُ يدُ الإلٰهِ ليمضي
صاخِباً ملءَ أرضِهِ، وسمائِهْ
لَيسَ في قُدْرَةِ السجونِ، ولا الأغلالِ تقييدُ عزمِهِ، ومضائِهْ
كَيْفَ تُبْنَى حيطانُ سِجْنٍ حوالى
قَدَرِ الله، أو حوالى قضائِهْ
كَيْفَ تطوي القيودُ روحاً من الله، ومن قدسِهِ، ومن كِبْرِيائِهْ
إنَّهُ الصقرُ دائباً في ذرى الماضي، ومن نورِهِ، ومِنْ لألائِهْ
حاملاً روحَهُ إلينا كتاباً
فيهِ ما في الماضي، ومِن عُظمائِهِ

يتلقَّى كلُّ امرىءٍ مسلمٍ فيهِ دروسَ العلياءِ عن آبائِهْ

يا لـهـا من رسالـةٍ في جنـاحٍ
بَـعَـثَـتْ كـلَّ سـادرٍ فـي غـبـائِـهْ

عَلَّمْتَنا كيْفَ الخلاصُ من الضَّيْمِ، ومِن قهرِهِ، ومِن غُلْوائِهْ

وَأَريتَنا كيفَ الطموحُ إلى المجدِ، وكيفَ الوثوبُ في أجوائِهْ

كـلُّ قـلْـبٍ فـيـهِ جـنـاحٌ يُـريـهِ
نَـهْـجَـهُ فـي سـمـوِّهِ، وارتـقـائِـهْ

يتلقَّى دمُ الأسارى الهواءَ الحرَّ من روحِهِ، ومن أفْيائِهْ

فَـيْـضُ أنـفـاسِـهِ يـصـوغُ فـضـاءً
لـهُـمْ مِـن عـبـيـرِهِ، وصـفـائِـهْ

يتبارَوْنَ فيهِ كالطيرِ بالروضِ هفا من سرورِهِ، وانتشائِهْ

جاءَ والمسلمونَ في الهندِ أسْرى
عـصـبـيَّـاتِـهِ وصـرعـى شـقـائِـهْ

عَظُمَ الخلف، واستبدَّ بأهليهِ، وضجُّوا من هولِهِ، وبلائِهْ

وغدا العيشُ مستحيلاً، وضاقَ الشَّعْبُ من أهلِهِ، ومن أبنائِهْ

هُوَّةٌ لا يسدُّها الكَذِبُ الواهي بتزييفِ لونِهِ، وطلائِهْ

أُمَمُ الأرضِ لا يرقِّعها الراقعُ ترقيعَ ثوبِهِ، وكسائِهْ
ومصيرُ الشعوبِ كالحقِّ لا يبنيهِ بانٍ بوهمِه، وادِّعائِهْ
والملايينُ لا تعيشُ على الشكِّ، ولا تستقرُّ فوقَ هبائِهْ
هُوَ خَلَفٌ في الروحِ ما قيمة الرأي السياسيِّ في لظى هَوْجائِهْ
مِرْجَلُ الشَّعْبِ لا يُبالي إذا جاشَ، بأقطابِهِ، ولا زُعَمائِهْ
وشعورُ الجمهورِ، أقوى من العقلِ، ومن حكمِهِ، ومن حُكَمائِهْ
والزعيمُ الأريبُ مَن يجعل الواقَعَ مِن فوقِ رأيِهِ، وارتيائِهْ
يتمشى مع النواميس لا يحملُ سَيْرَ الورى على أهوائِهْ

*****

وتصدى جناحٌ للمحنةِ الكبرى فذابَتْ في شعلةٍ من ذكائِهْ
أقْبلَتْ نحوَهُ الملايينُ تبغي
وطناً من جهادِهِ، وبنائِه
جَمَعَتْ دَمْعَها لديهِ، وأَلْقَتْ
كلَّ جُرحٍ لِطبِّهِ، ودوائِهْ
وَأَتَتْهُ دُنيا خرابٍ تريدُ البعثَ من روحِهِ، ومِنْ إيحائِهْ

فـانـبـرى فـي نـضـالِـهِ يـفـتـديـهـا
واستَـطـارَتْ لـنَـصْـرِهِ، وافـتـدائِـهْ
ومَضَتْ، في جهادِها، كالأعاصيرِ، تُدوّي بذِكْرِهِ، وندائِهْ
تتلقَّى شذى السماءِ، فَتَهْتَاجُ، هياجَ الحريقِ في هَوْجائِهْ
وتُذيبُ القُيود، في لَهَبِ الرُّوحِ، وَتَمْحُو الشقاءَ عَنْ أَشقيائِهْ
وإذا بالسُّجونِ تَهْوِي، وبالسَّجّانِ يَبْغي الفكاك من سُجَنائِهْ
أَخَذَتْ، حَقَّها من الزَّمَنِ العاتي، ومِنْ لُؤْمِهِ، ومِنْ لُؤَمائِهْ
فَرَضَتْ رُوحها على هَجْعَةِ القَبرِ، وثارتْ في صَمْتِهِ، وانْطِوائِهْ
فَجَّرَتْ، ضَوْءَها العتيدَ من الليلِ، ومِنْ ظُلْمِهِ، ومِنْ ظلْمائِهْ
وَمَضَتْ، في السماءِ، تَنْشُد للشَّعْب مكاناً يؤويهِ في كِبْرِيائِهْ
وتـسـامَـتْ فـوقَ الـزمـانِ، وسَـلَّـتْ
يَومَها الضَّخْمَ، مِنْ جبينِ ذُكَائِهْ
قيلَ لَيْسَتْ بلادَكم، إنَّما أَنْتُم بهذا المكان من غُرَبَائِهْ
غَـصَـبَ الـهِـنْـدَ غَـاصِـبٌ، وبـقـيـتُـم
ذِكْـرَيـاتِ لِـغَـصْـبِـهِ، واعـتِـدائِـهْ

قدْ تولَّى الغازي، وماتَ فموتوا
أنـتُـم، مِـثْـلَ مَـوتِـهِ، وفَـنـائِـهْ
دِينُكم جاءَنا بكم، فاطلُبوهُ
حَيْثُ يُؤْويكُمُ إلى صحرائِهْ
فأَجابوهُ: إنَّما الأرضُ لله، وللقائِمينَ تَحْتَ لِوائِهْ
هيَ مِلْكٌ لِمَنْ دَحاها، وَلَيْسَتْ
مِـلْـكَ أنـدادِه، ولا شُـرَكـائِـهْ
ولِمَنْ يَبْذلُونَ أَرْواحَهُمْ فيهِ، نَشَاوى بِحُبِّهِ، وولائِهْ
ولِمَنْ جابَهُوا المَصَارِعَ، والأهوالَ، شوقاً لوَصلِهِ، ولقائِهْ
نَحْنُ أَنْصَارُهُ، أحقُّ بدنياهُ، وأَوْلَى بأرضِهِ، وسمائِهْ
نَحْنُ أَقْدارُه، نُشيدُ كما شادَ، وتَبْني أكفُّنا كبنائِهْ
نَحْنُ أطوادُه، بِجَوفِ الثَّرىٰ نرسو، وتعلو هاماتُنا في فضائِهْ
نَحْنُ آسادُهُ الغِضابُ، على مَنْ
عَـدَّنـا مِـن نِـعـاجِـهْ، أوْ شـائِـهْ
نَحْنُ حُرَّاسُ إسمِهِ، الواحِدِ القهَّارِ، في مُلْكِهِ، وفي كِبْرِيائِهْ
مَنْ تَسمَّى بِهِ، شَطَبْناهُ، أوْ يرجع عن زَعْمِهِ، وعن غُلوائِهْ

سَوْفَ نبني مُلْكاً طهوراً، وَنَسْتَرخِصُ فيهِ أرواحَنا لفِدائِهْ

كلُّ حَقٍّ لنا، سَنَأْخُذُهُ أَخْذاً، ونعلو عن سُؤْلِهِ واجتدائِهْ

*****

إلى شيخ الإسلام

في غمرة الظلام، وفي عنفوان المأساة التي عانيناها على إثر سقوط حكومة الثورة اليمنية، كنتُ مشرداً في باكستان والهند وكنتُ لا أحمل جوازاً ولا أجدُ بلداً في العالم يقبل دخولي فيه أو إقامتي، وكان وجودي في باكستان وجوداً غير شرعي.

في هذا الجوّ القاتم التعِس جاء العيد، وقد كتبتُ القصيدة التالية أقصّ حالتي على شيخ الإسلام المرحوم شبير أحمد عثماني، وأحاول عنده أن أجد في شريعة الإسلام، وفي شهامة الخلق الإسلامي عَوناً على التخلص من قوانين الإقامة والجنسية.

أنا الغريبُ الضائعُ المشرَّدُ
أتيهُ في الدنيا، ولستُ أُفْقَدُ

خُلِقْتُ في الأرضِ وما لي مَسلَكٌ
فيها، ولا لي في ثراها مَقْعَدُ

وجِئتُ للدهرِ وما لي عندَه
يوماً، ولا لي عندَ آتيهِ غدُ

قد زَجَّتْ الأقدارُ بي في عالَمٍ
ما لي بهِ هوىً، ولا لي مقصدُ

دخَلْتُهُ بالرغمِ - من بابٍ - ولا
أعْرِفُ باباً للخروجِ يوجَدُ

بلَى لَهُ بابُ الردى لكنَّهُ
بابٌ بأسرارِ الحياةِ مُوصَدُ

سجنٌ رهيبٌ ما لَهُ حَدٌّ
يَفِرُّ المرءُ من أطرافِهِ، أَوْ يُبْعَدُ

والناسُ إما كادحٌ مُعَذَّبٌ
بِسَعْيِهِ أو موثَقٌ مُصَفَّدُ

تَقاتَلوا على الذي بأرضِهِ
وما بها سوى القيود تُوجَدُ

قَدْ عَظُمَتْ خطوبهُم، واتَّسَعَتْ
فما لهم على علاجِها يَدُ

في كلِّ شَعبٍ نكبةٌ، وكلِّ أرضٍ
فتنةٌ، أو نارُ حربٍ تُوقَدُ

والعالَمُ اليومَ بأيدي عُصْبَةٍ
لا عقلَ يَهْديها، ولا مُعتَقَدُ
تؤلِّهُ القوَّةَ، والمالَ، ولا
ترى إلٰهاً غيرَ هذا يُعْبَدُ
يا ليلَةَ العيدِ أَعِيدي هذه
الأحزانُ، والشقاءُ، والتشرُّدُ!
في جوفِكِ الحالكِ آلامُ الورى
فأيُّ عيدٍ من دُجاهُ يُولَدُ؟

*****

لَمْ يَكْتَفِ الدهر بأني مثل أهْليهِ
شقيٌّ بائسٌ منكَّدُ
آخُذُ مِنْهُ حصَّةَ البؤسِ التي
على مثالِ طاقتي تُحدَّدُ
فاشتدَّ في عداوتي كأنَّما
يُغبطُني على الشقا ويَحْسَدُ
يهمُّ أن يطردَني من كونِهِ
لكنَّهُ، لم يدرِ أينَ أُطْرَدُ!!

أتى على أحبّتي، فانتشرتْ
رؤوسهم بجانبي، واستُشهِدُوا
وأُحْرِقُ الدُّنيا ولم يبقَ بها
إلا أنا، والنارُ حَوْلي تُوقَدُ
*****

«شبيرُ» أنتَ مُنقِذي من مِحْنَتي
وأنتَ شيخُ المِلَّةِ المُمَجَّدُ
قدْ أوْدَعَ الإِسلامُ فيكَ سِرَّهُ
لأنَّكَ الطَّوْدُ المنيعُ المفْرَدُ
يأوي إلى هَذيكَ مذعوراً إذا
طارِدَهُ هذا الزمان المُلْحِدُ
وتلجأ الدنيا إليكَ كلَّما
أصابَها الهمُّ المقيمُ المقعِدُ
وها أنا مُشْكِلَةٌ، من مشكلاتِ
الأرضِ جاءَتْ في حِماكَ تُرْشَدُ
لذتُ من الدُّنيا إليكَ شاكياً
عساكَ تأسو الجرحَ أو تضمِّدُ

ولي بباكستانَ، حقُّ الدينِ، والسوابِقِ الغُرِّ التي لا تُجْحَدُ

وإنــنــي إلــى حِــمــاكَ لائِــذٌ

وإنَّــنــي بــينَ يــدَيْــكَ مُــقْــعَــدُ

قُصَّ جناحي فسقطْتُ عاجِزاً

مــقــيَّــداً، ومــا أنــا مــقــيَّــدُ

إنْ كانَ ذنبي، أنَّني مجاهِدٌ

داعٍ، فَأَنْتَ الحَكَمُ المُجتَهِدُ

فاحكُمْ بدينِ الله لا تَتركْ يدَ الأهوالِ تعبثْ بالورى إذ فسدوا

قدْ طَوردَ الإسْلامُ إلاّ هـٰهُنا

فهل تراهُ مِن هنا سَيُطْرَدُ؟

إنْ كنتَ لا تَنطُقُ، ـ أنتَ مُفْصِحاً ـ

فَمَنْ ترى ينطِقُ، أو يُسدِّدُ؟

أو كانَ هذا الدِّينُ لا يوجدُ في العدلِ، ففي أيّ مكان يُوجَدُ؟

حَسْب ذوي الدُّنيا شؤونٌ جَمَّةٌ

ـ أُخْرى ـ قُواهم عندها تُسْتَنْفَدُ

دُنْياهُم قدْ أضبَحَتْ مُعْضِلَةً
لَمْ يفطِنوا لحلِّها، أوْ يَهْتدوا
قدْ زيَّفوها بالهوى فاشتبَهَ الواضحُ
للناظِر، والمُعتقَدُ
تآكلوا فيها فهذي أمَّةٌ
تُمحى، وتلكَ أمة تُزْدَرَدُ
وَأَلِفُوا الظُّلْمَ بها، فأصبحَ المظلومُ لا يحنو عليه أَحَدُ
وأَصْبَحَ الحقُّ لِمَنْ في كفِّهِ البطشُ، ومَنْ في طَبْعِهِ التشدُّدُ
طَغَتْ عليهِم قوةٌ جارفةٌ
مُلْحِدَةٌ، بكلِّ شيءٍ تُلْحِدُ
مُذ نَبذوا هَدْيَ السماءِ ما دَرَوا
من بعدِهِ أي سبيل يُحْمَدُ
كُلٌّ بها شاكٍ، وكلٌّ ظالِمٌ
والحقُّ عندَ كلِّهم مُفْتَقَدُ
اتَّخذَوا والحقَّ لهم ألعوبَةً
هذا بهِ يَطغى، وهذا يُفْسِدُ

كانوا يظنّون بأنَّ أُمَم العالمِ حين تلتقي تَتَّحِدُ

فانكشفَ الواقعُ فيهم عكسَ ما
يقوله المفكِّرُ المسدِّدُ

لما تلاقَتْ أُمَمُ الدنيا على
مائدةٍ، لَمْ تلقَ ما تُزَوِّدُ

فأصبحَ الكلُّ لكلٍّ جائِعاً
وصارَ كلٌّ ضدَّ كلٍّ يُحْقِدُ

تعارَفُوا فاكتشفوا بأنّما الإنسانُ وحشٌ هَمُّهُ التصيُّدُ

واجتَمعَتْ عقولُهُم، فكانَ في
مجموعِها الجنونُ، والتبلُّدُ

لا يُنقِذُ العالَمَ إلا قوةٌ
روحيةٌ لروحِهِ تُجدِّدُ

يؤلِّفُ الإِسلامُ فيها شعلةً
تقودُهُ وسْطَ الدُّجىٰ، وتُرْشِدُ

وتِلْكَ باكستانُ في الشرقِ لها
روحٌ من الدِّينِ بها تَنفرِدُ

قد خُلِقَتْ كاملةً، كالشمسِ إذْ
تبزغُ في آفاقِها، وتُولَدُ
العلمُ، والحكمةُ في نطاقِها
والدِّينُ فيها السيِّدُ المسوَّدُ
كأنَّما القرآنُ في أقطارِها
أنفاسُها الطُّهْرُ التي تردَّدُ
وأهلُها كأنَّهم في غَفْلَةٍ
ما عرفوا دنيا الورى، أو شهدوا
يُشوِّقني إليهمو أنهمو
جُنْدٌ وأنِّي مثلهم مجنَّدُ
إنْ كانَتْ الغربة تُشْجِيني فما
يخذلُني الصَّبْرُ، ولا التجلُّدُ
أَلِفْتُ هذا الليلَ، لا أَنْتَظُر الصبحَ بهِ ولا النجومَ أَرْصُدُ
إنْ تنقَمِ الدُّنْيا عليَّ إنَّني
أصرِفُ عن أهوائِها، وأَزْهَدُ

وإنّني ضيَّعْتُ عمري كادِحاً
وضُيِّعَ الأهْلُ مَعي، والوَلَدُ

فإني القلمُ أني مُصْلِحٌ
فيها، وإني عامرٌ مشيّدُ

وإنَّ أجيالاً ستأتي بَعْدَنا
فتَعْرِفُ الحقَّ لنا، وتَشْهَدُ

تَسْتَنْبِطُ الحياةَ من تاريخِنا
وتُوصِلُ الشعبَ العُلى، وتُصْعِدُ

فإنْ أعِشْ، أو إنْ أَمُتْ في هذه الدُّنيا، فلَنْ يموتَ ما أَعتَقدُ

أعيشُ في أمواجِهِ حالكةً
صاخِبَةً تُرْغي بهِ وتزبدُ

ويَرْقُصُ الشِّعْرُ عليها ذاهلاً
كأنَّهُ في قبرِهِ يُعَرْبِدُ

فأيَّ خوفٍ أتَّقي، وأيَّ خطب أشتكي، وأيَّ ظُلمٌ أَنْقُدُ

كَمْ أدمعٍ شاعِرةٍ سَفَحْتُها
من قلبيَ الدامي، وكَم تَنَهُّدُ

تـطـايـرتْ، كـأنَّـهـا أكـذوبَـةٌ
يَهْـذي بهـا مُـشَـغْـوِذٌ مُـبَـلَّـدُ
حسبِي من الأيامِ أني عِشْتُ لا
أحتـمِلُ الضيـمَ، ولا أُسْتَعْبَدُ
ولا يـموتُ مَيِّتٌ إنْ كانَ في
ذِكْراهُ ما يَبْقى، وما يُخَلَّدُ
نَحْنُ هَدَيْنا الناسَ من جهَالةٍ
ومـا عـلينـا أنّهـم لم يهـتـدوا
نَحْنُ زَرَعْنا، وَسَقَيْنا زَرْعَنا
دماً، ويأتي بَعْدَنا مَنْ يَحْصُدُ

*****

ببغاء بهاولبور

كثر في «بهاولبور»، إحدى إمارات باكستان، البغاوات، يلاحظها المرء في الجوّ، وعلى الشجر، ترقص، وتضج، وتمرح، وتتعابث أسرابها من غصن إلى غصن، ومن مزرعة إلى أخرى. ولها كتبتُ هذه الأبيات:

غَرِّدي، أو عربدي مِلْءَ الفضاءِ
واعزفي ما شِئْتِ من فنٍّ الغناء
وانـزِلـي فـي أيِّ وكْـرٍ وارفٍ
عـنـدَ أيِّ الـمُـعـجَـبيـنَ الـقُـدَمـاءِ
قـبِّـلـي أيَّ حـبـيـبٍ، وارشُـفـي
ملءَ منقارِكِ من عَذْب السماءِ
لَنْ يظنَّ الناسُ فيكِ السوءَ أو
يحسبوا فِعْلَكِ فِعلَ السفهاءِ

*****

قوة الإيمان

لو كَسَبْتَ الإِيمانَ إيمانَ إبراهيم يوماً لكنتَ إبراهيما
أَوْ لأَذْلَلْتَ من تألَّهَ في الأرضِ وحطَّمْتَ أَنْفَهُ تحطيما
وَلَدَمَّرْتَ كلَّ مَن كان نمروداً وأذريتَهُ حُطاماً هشيما
ولَكانَتْ دُنياكَ بَرْداً وأَمْناً وسلاماً ولَوْ سكَنْتَ الجَحيما

*****

المؤتمر الإسلامي في حفل إفتتاحه بباكستان

هــذه روحُــهُ وهــذي جــنــودُهْ
فَــلْيُحــاذِرْهُ مَــنْ بــشــرّ يــريــدُهْ
نامَ نَوْمَ الـموتى فظنّوه مَيْتاً
وازدهــاهــم هُــجــوعُــه وهمــودُهْ
طالَ إخْباتُهُ وضاقَتْ بهِ الأرضُ وضَجَّتْ قبورُهُ ولحودُهْ
شِدْقُهُ مَصْرَعُ الوحوشِ فماذا
نــالَ مِــنْــهُ حتــى عَــلاه صــديــدُهْ
صَوْتُهُ يَنْشُرُ المنيَّةَ في الغابِ فيَصْطادُ فيهِ ما لا يَصيدُهْ
أَيْــنَ ذاكَ الــسَّــعــيــرُ أيُّ ثــلــوجٍ
طَــمَــرَتْــهُ وأيُّ بَــرْدٍ يــســودُهْ
كَيْفَ هانَ الهِزَبْرُ في حَرَمِ الغيلِ وسادت ضباعُهُ وقرودُهْ
شدَّ ما استنسرَ البغاثُ بقبرِ النسرِ واستأسدتْ على اللَّيْثِ دُودُهْ
وطِئـــوا أرضَ غابِــه فإذا بالغــابِ وسْنىٰ هضــابُهُ ووهــودُهْ
نَزَعُوا شَوْكَهُ ولكنَّ قاعَ الغابِ شَوْكٌ تُرابُهُ وصعيدُهُ

خَلْفَ نوحِ الطيورِ في مرجِهِ المَوْتورِ منهم زئيرُهُ وأُسودُهْ

وَرَأَوْهُ في غيلِهِ هامدَ الجثْمانِ كالموتِ صمتُهُ وركودُهْ

ولقَدْ أُعْجِبُوا بهِ إذْ توفّى نَفْسُهُ جَهْلُهُ بها وجحودُهْ

لَيْسَ يدري ما يحمِلُ المخلَبُ الجبَّارُ في كفِّهِ وماذا يجيدُهْ

وَغَدوا يسأَلونَ أنفسَهم عنهُ كما يسألُ الدُّجى عِزْبيدُهْ

أينَ معنى الحياةِ فيهِ وأينَ الرُّوحُ في نَبْضِهِ وَأَيْنَ وجودُهْ

إنَّهُ جُثَّةٌ فلا سَلْخُهُ إثْمٌ ولا سَحْقُهُ ولا تَبْديدُهْ

ومضوا يسلخونَهُ فإذا بالـلَّيثِ لهيبُهُ ووقودُهُ

وإذا شعلةٌ تفجَّرَ عنها

قبرُهُ وانتضىٰ لظاها جليدُهْ

وإذا بالعرينِ نابٌ وظفْرٌ،

فيهِ حتى أزهارُهُ وورودُهْ

وإذا عالَمٌ من اليأسِ والإقْدامِ يستقبلُ الحياةَ وليدُهْ

وإذا بالصريعِ ينجو وبالنارِ عليهِ يُشوى بها نمرودُهْ

*****

أضيوفَ الإسلامِ في شعبِ باكستانَ حقٌّ عليكمو تأييدُهْ

أنتمُ ذُخْرُهُ وأنتمْ أمانيهِ الغوالي وشَدْوُهْ ونشيدُهْ

في يَدَيْهِ حقٌّ فلا تخذِلوا الحقَّ وأنتمْ حُماتُهُ وجنودُهْ

أمْرُهُ أَمْرُكُمْ لكم منْهُ ما كانَ سواءً نحوسُهُ وسُعودُهْ

فاحذروا أن تحايدوا إن هذا الشَّعبَ منكم يَكيدُكم مَن يَكيدُهْ

أرضُ كشميرٍ أرضهُ والثرى الطاهرُ فيها آباؤُهُ وجدودُهْ

صنعوا من دِمائِهم ذلك الوادي فمنها أفوافُهُ وبرودُهْ

لَيسَ يَخْلو مَن عرَفَهُم في ثرى كشمير لا وردُهْ ولا عنقودُهْ

ما رأَيْنا الأوطان تُشرى بمالٍ، إنَّما يملكُ الترابَ شهيدُهْ

وفلسطينُ ذلكَ الوطَنُ الغالي

أحَقٌّ قدْ اضمحلَّ وجودُهْ؟

قَصَمُوا ظَهْرَهُ وقالوا مُصابٌ

فادِحٌ ينبغي لنا تضميدُهْ

كلّما أَوْجَسُوا من الشَّعْبِ خوفاً،

سَلَّموا أمْرَهُ إلى مَنْ يُبيدُهْ

أَمِنَ العَدْلِ أنْ نقرَّ ونستبقي
على الغَضبِ كلَّ لصٍّ يُجيدُهْ
يُطْرَدُ الشعبُ من حِماهُ ويُشْتاقُ إليهِ من كلِّ شعْبٍ طَريدُهْ
لَمْ يدمِّرْ حِمى القوانينَ في العالمِ إلا نقودُهُ ويهودُهْ
سوفَ يَحيا برغمهم مرَّةً أُخْرى وإنْ طالَ مَوْتُهُ وركودُهْ
سوفَ يَبْني الشعبُ الأبيُّ ضحاياهُ ويَسترجِعُ القديمَ جديدُهْ
نَحْنُ نَبْغي الفِدا فما حُجَّةُ
الباغي علينا؟ ما وعدُهُ؟ ما وعيدُهْ
لو رأى ما نكنُّهُ في الحنايا
لاقْشَعَرَّتْ سجونُهُ وقيودُهْ
والزعيمُ المفتي هو الموعد الحقُّ
لشَعْبٍ يسوسُهُ ويقودُهْ
في جَبينِ الفتى شعاعٌ من الحقِّ محالٌ إطفاؤُه وخمودُهْ
ما رأوه إلا وهانَتْ قِوى الطاغي عليهِمْ ونارُهُ وحديدُهْ
ولَنا في شمالِ إِفريقيا شعبٌ قريبٌ وإنْ تناءَتْ حُدودُهْ
نُقِفَتْ كلها العهودُ سوى عهدِ أمينٍ لا يُسْتَطاعُ جحودُهْ

يَنْضَوي حولَهُ الشبابُ الملايينُ جنوداً لأي فتحٍ يُريدُهْ

كـلَّـمـا ذادَهُ الـعـدوُّ وأَقْـصـاهُ

تـدَانـى إلى هـوانـا بـعـيـدُهْ

لَم يزلْ غابُ طارقٍ يُنجِبُ الأُسْدَ ويَستَنْبِتُ المخالبَ عودُهْ

تتلظَّى بروحِهِ الماردِ الجبَّارِ صَخْراؤُهُ وتغلي نجودُهْ

وظلالُ ابنِ نافعٍ لم تزلْ في البحرِ تروي تاريخَهُ وتُعيدُهْ

طَبَعَتْ في المحيطِ صورةَ لَيْثٍ، يَقْهَرُ البحرَ ذِكْرُهُ وخلودُهْ

يَجْفلُ الموجُ كلما مسَّ ظِلُّ السيفِ عِرنينَهُ ويعنو مَريدُهْ

وإلى مصرَ يزدهيني هوى الشِّعرِ فأُنْهي خيالَهُ وأذودُهْ

إنَّها مصرُ نيلُها العَذْبُ شِعْرُ الله في الأرضِ لا يُجارىٰ قصيدُهْ

وحقوقُ الوادي ستملىٰ على الدهرِ وإنْ طالَ مَنْعُهُ وصُدُودُهْ

كَمْ أرادوهُ أنْ يُقرَّ على الضيمِ فتأبى أبطالُهُ وأُسودُهْ

كيفَ يُلْغى حقٌّ وفي النيلِ والأهرامِ والشعبِ قائماتٌ شهودُهْ

*****

يا رجالَ الإسلامِ تاريخُكُمْ ضَخْمٌ ولكنْ هل فيكمو مَن يُعيدُهْ؟

يومُ أسلافِكُمْ يرى يومَكُمْ هذا كما ينظُرُ الوليدَ جُدودُهْ

روحُ ماضيكُمُ بأعراقِكِمْ يثوي ويهفو إلى الوثوبِ قعيدُهْ

ذاهِلاً كيفَ تبحثون عن المجْدِ وفيكُم كنوزُهُ ورصيدُهْ

قدْ جعَلتُم لمدِّ تيَّارِهِ حدّاً فأنْتُم قيودُهُ وسدودُهْ

فأطلَّتْ كما يطلُّ ضحايا السجنِ منكم عصورُهُ وعهودُهْ

ورَنَتْ من نوافِذِ الزمنِ الخالي إلَيْكُم عيونُهُ وشهودُهْ

فحرامٌ أن تنظروا الفَلَكَ الأعلى وأنْتُم نحوسُهُ ونكودُهْ

وحرامٌ أنْ تطلَعَ الشَّمْسُ في شرقٍ شقيٍّ ما فيهِ إلا عبيدُهْ

رُبَّ شعبٍ يحيا ويقعدُ خوفَ الموت شرٌّ من المنايا قعودُهْ

أنتمو عالَمٌ من المغرِبِ الأقصى إلى الشرقِ خافِقاتٍ بنودُهْ

عالَمٌ واحدٌ وإنْ زَعَمَتْهُ، ألفُ شعبٍ ثُغورُهُ وحدودُهْ

عالَمٌ مسلمٌ عنيدٌ فلا استعمارُهُ ممكنٌ ولا تهويدُهْ

سوفَ يبقى حقيقةً تملأُ الأرضَ ويَفْنَى عدوُّهُ وحَسودُهْ

*****

كفاح

حَشَدْنا العزائِم ملءَ الصدورْ
وثُرْنا على ظُلُماتِ القُبورْ
ورُحْنَا نُروِّضُ أَجْيادَنا
ونَنْسُجُ أجنحةً للصُقورْ
ونوقِد أعصابَنا في الدروبِ
بينَ الشِّعَابِ وبينَ الصخورْ
ونَدْفَعُ أيَّامَنا الكالِحاتِ
لِتَمْشي بِنا تحتَ عبء العصورْ
ونبذُرُ بينَ شَتيتِ الرُفاتِ
حياةً تهبُّ وروحاً تثورْ

*****

وأوفَى على الناسِ فجرٌ جديدْ
تراءى لهم ضَوْؤُهُ مِن بعيدْ
فهَبُّوا يعدُّونَ أنفاسَهُم
لتُطلِقَ ملءَ الفضاءِ المديدْ

وَيَنتَظِرونَ انهِيارَ السجونِ
وَسَحْقِ القيودِ وعِتْقَ العبيدْ
ويَختَشِدونَ بأرواحِهِم
لتَصْنَعَ أحلامُهُمْ يومَ عيدْ

*****

ويَنْبَعِثُ «الصوتُ» عبْرَ السَّماءِ
يَصُبُّ البلاءَ على الظالِمينْ
يثيرُ البراكينَ مِنْ تَحْتِهِم
ويوقِظُ كلَّ سَعيرٍ دفينْ
يُحيلُ دماءَ الضحايا لظى
ويشوي بها أكْبُدَ القاتلينْ
ويصنَعُ دمعَ الأسىٰ صيْحَةً
فَيُشفي بها أنْفُسَ البائسينْ

*****

وفي كلِّ كوخٍ ترى حاقِداً
تحفَّزَ للثأرِ في غَضبتِهْ
يثورُ بهِ الكوخُ من حولِهِ
وتندلِعُ النارُ مِنْ تُرْبَتِهْ

وتُـرْعِـبُ أسـمـالُـهُ الـبـالـيـاتُ
كـمـا يُرْعِـبُ اللَّيثُ فـي لُـبْـدَتِـهْ
يـعـيـشُ سـعـيـداً عـلـى مـوعَـدٍ
مـع الـثـأرِ يحـسـم مـن نـكـبـتِـهْ
ويُصغي إلى صَرْخاتِ الأَثيرِ تزْأَرُ غَضبىٰ على مِحْنَتِهْ

*****

تحية لصوت عمان المكافحة
وشعب عمان الباسل المناضل

بين (نزوى) وبين (صنعاء) حِمْيَرْ
مـاردٌ فـي الجـبـالِ ثـار، وزمْجـرْ
هبَّ في وجْهِ مَن بغى، واستعمَرْ
وانبرى ضدَّ مَن طغى، وتجبَّرْ
زعـمـوا أنـه اسـتـكـانَ، وهـذا
«صوتُه» كالحَريقِ في الغابِ يَزْأَرْ
كَـلِـمٌ يـزْرَعُ الـعـريـنَ مـنـونـاً
لَيْسَ سُخْفاً يَهْذي بهِ مَنْ ثَرْثَرْ
كلُّ حرفٍ ينسلُّ في كَبِدِ الأعداءِ منهُ رصاصةٌ، أو خَنْجَرْ
نَفَسٌ كالصاروخِ يحمِلُ للباغينِ فيهِ صواعِقاً تَتَفجَّرْ
يَجِدُ الثائرونَ زادَهُمُ الثوريَّ فيهِ يذودُ عنهُم، وَيَثْأَرْ
*****
أَيُّها الصوتُ هذه الأرضُ لوْ كانَتْ قُبوراً صَنَعَتَ فيها المَحْشَرْ
*****

المغامرة هي الحياة

ثبْ مع الليْلِ في ظلامِ البحار
وتــفــلَّــتْ فــي لُــجَّـهــا الـزَخـارِ
وانتفِضْ كالبركانِ في ثَبَجِ البحرِ
... وصــارِعْ زوابِــعَ الــتــيَّــارِ
لَسْتَ تَلْقَى في البحرِ حظّاً منَ الساحلِ
... أو راحــةً مِــنَ الأســفــارِ
فارفعِ الرأسَ حيثُما كنتَ واظهَرْ
وامشِ فوقَ الخطوبِ، والأخطارِ
أنـتَ فـي لُجَّةِ الصراعِ فـهيِّيءْ
لــكَ زِنْــدَ المُصــارِعِ الجـبَّــارِ
لا تَخَفْ من خطْبٍ وكُنْ أَنْتَ خَطْباً
وحَــريــقــاً وشُــعْــلَــةً مِــنْ نــارِ
أنتَ إنْ لَمْ تكُنْ بِنفسِكَ إعصاراً
... تمُتْ تحتَ وَطْأةِ الأعْصارِ
*****

غزليات

الغازية

أَخَذَتْ تُلاحِظِني بطرفٍ فاتكِ
ذربٍ على فَرْيِ الجوانحِ هاتِكِ
يبدو بأنَّ لهُ نصالاً في الهوى
وبأنَّهُ ابنَ مَلاحِمٍ ومعاركِ
يغزو الفؤادَ بومضةٍ أَخَّاذةٍ
عجلىٰ ويدخلُهُ دخولَ المالِكِ
نَتَخالَسُ النظراتِ بينَ عواذلٍ
يَقْظى وبينَ مصارعٍ ومُهالِكِ

*****

الطغيان الحلال

حَسْبُهُ الله ما فَعَلْ
أوقَدَ النارَ، وانفَتَلْ
لا يُبالي بما اكتوى
في لِظاه، وما اشتعلْ
وسِعَتْهُ على هواه القوانين، والمِلَلْ
وأَباحَتْ لَهُ القُلوبَ، وإنْ جارَ أو قَتَلْ

*****

طلب الغفران

اغفُري لي إذا تطلَّعْتُ مأخوذاً

إلى وجهِكِ الطّهورِ السَّنيِّ

ما على الشمسِ لو غسَلَتْ بوَمْضٍ

مِن سِناها ظلامَ قلبٍ شقيِّ

أنتِ أسخى كنز حَبَتْنا به الأقدارُ من فيضِها الكريم السخيِّ

أنتِ نَبْعُ الحياةِ فينا وحاشا

أنْ تضنّي على الظمأ بريِّ

لَمْسةٌ من هواكِ تُشعِلُ أعماقي

وتُضْفي عليَّ حسَّ نبيِّ

أنتِ لَسْتِ المهاةَ تَسطو عليها

عينُ ذئبٍ على المَها وحشيِّ

لَمْ يصغْكِ الإلـٰهُ صبغَتَه المثلى لنسلٍ أو مأربٍ همجيِّ

أنتِ في ناظريكِ روحُ إلـٰهٍ

خالِقٍ كلَّ خَلْقٍ عَبْقَريِّ

*****

أشعار مترجَمَة عن محمد إقبال

العشق وراء الأقنعة

يَلْبَسُ العِشْقِ تارةً طَمْرَ صعلوكٍ شريدٍ وتارةً تاجَ قَيصرْ
ويُرى عارِياً وديعاً وأحياناً يخوضُ الوغى ويَلْبَسُ مَغْفَرْ
هو حيناً في الغارِ يرغو ويجْأَرْ، وهو طوراً في الحربِ يغزو ويَقْهَرْ
كنزُ دَيْرٍ في الأرضِ أو روحُ مِنْبَرْ
أو قوّى في يمين فاتحِ خَيْبَرْ

*****

أمنية إقبال

رَبِّ هَبْ للشَّبابِ آهاتيَ الحرَّى وهَبْ للصُّقورْ ريشاً جديدا

بُغْيَتي أنْ تمدَّ في الأرضِ مِن شُعْلَةِ قلبي نوراً عميقاً مديدا

*****

غزو الأعماق

لَيسَ في عِرْقِ مُسْلِمٍ من دمٍ باقٍ

... ولا في غرامِهِ من جنونِ

ما دهى المسلمينَ، أيُّ عدوٍّ

نالَ منهم، وأيُّ حربٍ طحونِ!؟

أيُّ خَطْبٍ إلى المشاعرِ، والأعماقِ

.. وافى، وأيُّ غـزوٍ لـعـينِ!

أفـلـسـوا مـن قـوًى لـهـم كـا

... نت الدُّنيا بها في قَرارةٍ ويقينِ

*****

الفجر الثاني

أرى سَحَراً يبدو علينا بنورِهِ
ويجلو علينا طلعةَ اليومِ، والغدِ
ولم أكتشفْ من أيِّ نبعٍ شعاعَهُ
يجيءُ، ولا مِنْ أيِّ عِرْقٍ، ومحتدِ
ولكنَّ فجراً يقشعرُّ له الدُّجى
أتى من أذانِ المؤمنِ المتعبِّدِ
*****

إمتداد الشعب العربي

الشاعرُ الهنديُّ يهمسُ في أدبْ
إن لَمْ يسؤْكُمْ يا سلاطينَ العربْ
أيُّ الشعوبِ تعلَّمَتْ من قبلِكم
سِرّاً مليئاً بالعِظاتِ، وبالعجبْ؟
(إنَّ التولي للنبيِّ براءةٌ
من عمِّهِ الداني القريبِ أبي لهبْ)
العالَمُ العربيُّ شعبٌ جاءَ من
فوه الأبُوَّةِ، والنبوَّةِ، والنسبْ
وامتدَّ في معنى النبيّ محمَّدٍ
لا في الحدودِ، ولا الثغورِ، ولا النسبْ

*****

دعاء

ربِّ أشعِلْ أعماقَ روحي كالأسلافِ
. . . واجعلْ أحشاءَ صدري أتونا
ربِّ واكتبْ اسمي بزمرةِ مَن لا خوفَ عليهم
. . . ولا هـمُ يحـزنـونـا
ربِّ إني حطَّمْتُ أغلالَ عقْلٍ
كـنـتُ فـيـهِ مـكـبَّلاً مـسـجـونـا
وتفلَّتُّ من قيودي، فَهَبْ لي
يـا إلـٰهـي تَهـوُّراً وجـنـونـا!

*****

الطائر اللاّهوتي

أفكار منظومة

إذا علَّمَ الحُبُّ النفوسَ مزاياها
فشامَتْ هُداها وارتوتْ من حمَيَّاها
تجلَّتْ لأبصارِ العبيدِ مطامحٌ
من المجدِ كانَتْ للمُلوكِ خباياها

*****

فإن تكُنِ العطّار أو تكُنِ الرومي
وإنْ تَكُ في عقلِ الغزالي، أو الرازي
إذا لَمْ تذقْ نجوى الدياجي، فلَن ترى
مدى الدهر شيئاً من حياةٍ، وإعجازِ

*****

حرامٌ عليكَ الرَّكْبُ يا قائدَ الركبِ
طريقكَ لا تأبَهْ لشرقٍ ولا غربِ
إذا الرَّكبُ نَزْرٌ جهدُهُ فهْوَ لَمْ يكُنْ
ليَسْأَمَ مِنْ سَيْرٍ يَسيرٍ، ولا صعبِ

*****

أيَا طائِرَ اللاُّهوتِ موتُكَ في الفَضَا
خميصاً عُلُوّاً في حياةٍ، وفي حَتْفِ
وإِيَّاكَ من رزْقٍ يـميـلُ لأَجْـلِهِ
جَناحُكَ، أو يهوي إلى الذُلِّ، والخَسْفِ

*****

شحّاذ

قـالَ صُـعْـلـوكٌ لـنـا يـومـاً، بـحـانِ الـنُـدَمـاءْ
إنَّ والـيـنـا لـشـحـاذٌ، خَـلـيٌّ مـن حـيـاءْ

***

إنَّ رأسـاً حـاسِـراً قَـدْ وُضِـعَ الـتـاجُ بـرأسِـهْ
إنَّ عُـرْيـانـاً كـسَـاهُ، ذاهِـلاً عـن عُـرْيِ نـفـسِـهْ

***

(كـيـمـيـا ثـروتـه) الـتـربـة مـن حـقـلـي، وحـقـلِـكْ
يكـرعُ الـصَـهْـبـا ومـا مِـنْ كُـلِّ ذي جَـهْـلٍ كَـجَـهْـلِـكْ
لا يُـبـالـي مَـنْ قَـضـى مـا دامَ يَـمْـتـصُّ، وَيَـغْـلِـكْ
حَـسْـبُـهُ أنْ يَـمْـلأَ الـفـلاحُ كَـأْسـاً ثُـمَّ يَـهْـلَـكْ

*****

بيت منفرد

سَجْدَةٌ لإِلـهٍ تَنَجيكَ يا إنسانُ مِنْ أَلْفِ سَجْدَةٍ لِلْعَبْدِ

*****

الأمر الإِلٰهيُّ للملائكة

قوموا انظروا لعالمِ الدُّنيا
... وزوروا الفقراءْ
وأيقِظوهُمْ مِنْ سباتٍ
وظلامٍ، وغَباءْ
هُبُّوا إلى ساحِ المُلوكِ
وقصورِ الأُمَراءْ
هُزُّوا مقاصيرَ الحِمىٰ
وزَلْزِلوا كلَّ بِنَاءْ
وأَوْقِدُوا نارَ اليَقينِ
في دماءِ الأُسَراءْ
وَعَلِّموا العُصْفُورَ...
كَيْ يَدْفَعَ بَغْيَ الأقوِياءْ
وكَيْ يُذيبَ مَخلبَ الصقرِ
... بروحِ الاستياءْ

وكي يَثُورُ في القيودِ،
والسجونِ، والشقاءْ
وكي يعزَّ في الوكورِ
ويَسودَ في الفَضَاءْ
وكَيْ يعيشَ ما يَشاءُ
في اعتزازٍ وإبَاءْ
يُعلِّم القويَّ كَيْ يعرِفَ
قدْرَ الضعفاءْ

*****

هَذا زمانٌ صارَ فيهِ
الشَّعْبُ فوقَ الرؤساءْ
وفَوْقَ ما يجيشُ في
أَنْفُسِهِمْ من كبرياءْ
وفوقَ ما يؤلِّبون
من عبيدٍ، وإماءْ
وفوقَ ما بتاجِهِم
من زُخرُفٍ، ومن طلاءْ

ومـا عـلـى وجـوهِـهِـم
مـن الـبـريـقِ، والـرُّوَاءْ
فـحـطَّـمـوا كـلَّ ضـلالٍ
مـن بـقـايـا الـقُـدَمـاءْ
إذا الـمُـزارِعُ الـشـقـيُّ
فـي أراضـي الـسَّـعَـداءْ
لَـمْ يَـلْـقَ حَـظّـاً مـن حـيـاةٍ
أو نـصـيـبـاً مـن غِـذاءْ
ولَـمْ يَـنَـلْ مِـنْ جـهـدِهِ
غـيـرَ احـتـقـارٍ، وازدراءْ
ولَـمْ يُـعـوَّضْ مِـنْ دمـوعٍ
ودمٍ جُـرعَـةَ مـاءْ
فـأَحْـرِقُـوا سـنـابـلَ الـقـمـحِ
بـأرضِ الأغْـنِـيَـاءْ
وَدمِّـرُوا مـا تَـجِـدُون،
فـي حـقـولِ الـلـؤمـاءْ

الشاربين العَذْبَ
ظلماً، من دماءِ البؤساءْ
الطاعمين السّحتَ
من لحمِ الجِيَاعِ التُعَساءْ
الراقصين للنشيدِ
من نُواحٍ، وبُكاءْ
المالئين للقُبورِ
من ضحايا الأبرِياءْ
الزاعمينَ أنَّهُم
أشرَفُ مَنْ تَحتَ السَّماءْ

*****

لا تَجْعَلوا بيني،
وبينَ أَعْبُدي مِنْ وُسَطاءْ
وأَخْرِجوا الكُهَّانَ
مِنْ دَيْرٍ مليءٍ بالرِيَاءْ
إنْ سَجَدوا لله يوماً
طوَّفوا للشركاءْ

فأطفئوا النورَ إذَنْ
في حُجُرَاتِ الجُهَلاءْ
في مَعْبَدِ الرُهْبانِ
أو في مسجدٍ للحُنَفَاءْ
وَعَمِّرُوا لي مَعْبَداً
في الأرضِ من طينٍ، وماءْ
فقَدْ سَئِمْتُ مِنْ رخامٍ
ونقوشٍ، وهُراءْ
وأَوْقِدُوا في شاعرِ المَشْرِقِ
... وَمْضَ الأنْبِياءْ
وعلِّمُوهُ صُنْعَ آدابٍ
جنونٍ، وانتِشاءْ
ولَيْسَ هٰذي المدَنيَّاتُ
سِوى دُنيا هَباءْ
أو مصنعٍ يُبْنى زجاجاً
من هراءٍ وافْتِراءْ

*****

الإنسانُ مغزى الكون

كلُّ شيءٍ مسافِرٌ، كلُّ شيءٍ

في طريقِ المَجاهلِ الأبديَّهْ

أَنجوماً كانَتْ، أَمْ الطيرُ في الأجْواءِ

... أَمِ الحوتُ في البحارِ القصيَّهْ

أنْتَ رمزُ الحياةِ، أنتَ فتى الميدانِ،

... أنتَ المغزى، وأنتَ القضيَّهْ

إنَّ فضلَ السماءِ جندُكَ لو تدري،

... استَغْلَيْتَ هذِهِ الجُنُدِيَّهْ

سَجَدَتْ نَحْوَكَ الملائِكُ إكْباراً

... لِما فيكَ مِنْ معانٍ سَنِيَّهْ

وأَقَامَتْ دَهْراً حوالَيْكْ...

تَستكْشِفُ ما فيكَ من رموزٍ حَيَّهْ

لَيْسَ تَدْري ما في كيانِكَ مِن فَضْلٍ

... وشَأنٍ، وقيمةٍ رمزِيَّهْ

فلَكَ الويلُ، مِن بليدٍ قصيرِ الطَّرْفِ

... يَعْمى عن الأمورِ الجَلِيَّهْ

لا يرى نفسَهُ، وإِنْ هي لاحَتْ

في دّجى الكونِ كالنجومِ المُضِيَّهْ

فإلى ما تظلُّ عَبْداً لدُنْياكَ

... مُقيماً في ذِلَّةٍ وبَلِيَّهْ

عِشْ بِدَيْرِ الرُهْبانِ من فوقِ دُنْياكَ

... أو أَحْلِلْ عرشَ الملوكِ العَلِيَّهْ

فهُمَا خُطَّتانِ للمؤمِنِ الحُرِّ

فإِحداهُما، وإلا المَنِيَّهْ

قيمةُ المؤمنِ الأبيِّ مَعَانٍ

كَتَبَتْها المشيئَةُ الأزليَّهْ

فحرامٌ أنْ يُرَخَّصَ الثمنُ الغالي

... وَتُسْتَعْبَدَ النفوسُ الأبِيَّهْ

*****

أَنا لاقيتُ سادنَ الحرم الشيخَ

فلَمْ ألْقَ عندَهُ الأمنيَّهْ

واهنَ القولِ، خامدَ الروحِ، ما في
فـعـلِـهِ حـرقـةٌ، ولا مـعـنـويَّـهْ
لَيسَ يدري، ولا يحسُّ بما حوْلَيْهِ
... مِنْ رَوْعَةٍ، ومِنْ قُدْسِيَّهْ

*****

مناقشة "إقبال" لربِّه

يا ربِّ عالمُكَ السيَّارُ في نظري
حلوٌ جميلٌ، ولكنْ فيهِ ما فيهِ
الطيِّبونَ، وأهلُ الفنِّ فيهِ أذلاَّءٌ
... وذو المالِ في عزٍّ وتأليهِ
والأرضُ تنظرُ نحو الغربِ نظرتَها
لسيدٍ تتوقَّاهُ وتُرضيهِ
لَمْ تُعْطِ ذا اللبِّ في دُنياكَ من ورقِ...
الصفصافِ قوتاً بلا كدٍّ يُعانيهِ
وهؤلاء حملوا الفردوسَ مزدهِراً
إلى الحميرِ لترعى في مغانيهِ
إنَّ الكنائِسَ فيها الخمرُ قانيةً
حمراءَ تشعلُ مَن فيها وتُذْكيهِ
وفي المساجدِ وَعْظٌ ميِّتٌ حَرِجٌ
يُميتُ سامعَهُ غَمّاً ويُفنيهِ

قرآنَكَ الحقُّ لكنْ مَنْ يُفسِّرُهُ
يصدُّنا فيهِ عن أسمى معانيهِ
يُلقي بهِ جهلُهُ الأعمى، ويجعلُهُ
كأنَّهُ سِفْرُ تضليلٍ، وتمويهِ
فِرْدَوْسُكَ الضَّخْمُ لمْ تنظرْ حقائِقَهُ
عينٌ ولَمْ يتصِلْ شخصٌ بأهْليهِ
وفي قُرى الغربِ جَنَّاتٌ معجَّلةٌ
يَرى بها المرءُ ما أقصىٰ أمانيهِ
عقْلي بأفلاكِكَ العُظمى يحلِّقُ في
ذُعْرٍ ويضربُ في ليلٍ من التيهِ
فاحبِسْهُ في القَمَرِ الوضَّاءِ، وارمِ بِهِ
إلى مغاراتِهِ أو في دواهيهِ
أعْطانيَ القَدَرُ الوهَّابُ جوهرةً
عُلْوِيَّةً فأَضاءَتْ في لياليهِ
أنا التُرابيُّ لكنْ ليسَ بي رَقَعٌ
مِنَ التُّرابِ لتلويثي وتشويهي

أنَا الفقيرُ إلى ربّي أعيشُ بهِ
نشوانَ في عزّةٍ منهُ وفي تيهِ
ولَسْتُ في الشرقِ شرقيّاً كأمَّتِهِ
ولَسْتُ في الغَربِ غربياً كَأهْليهِ

*****

ابن الصقر

أيُّها الصقْرُ ليسَ في طرفكَ اليومَ طموحُ المُحلّقُ المتألّهْ

لَيسَ يدري جناحُكَ السابحُ الجَوّالُ أنَّ السماءَ مُدَّتْ لأجلِهْ

أَنْتَ نجلُ الشاهينِ لكنَّ عَيْنَيْكَ تقولانِ أنتَ لَسْتَ بِنَجْلِهْ

لَمْ نَرَ البأسَ فيهِما ورأيْنا، كلُّ فَرْعٍ يحوي عناصرَ أصْلِهْ

******

الحياة حرب

إذا لَمْ تَكُنْ ذا نهًى واعيَهْ،

وذا عـزمـةٍ صـلـبَـةٍ مـاضـيَـهْ

ولَمْ تَدْرِ سرَّ الحياةِ العميقِ

ولَـمْ تَـرَ أغـوارَهـا الـنـائـيـهْ

فـإنَّ الـفُـؤادَ الـزجـاج الـبـلـيـدَ

سَيُحْطَمُ في الصخرةِ العاتِيَهْ

هُـنـا مـوضِـعُ الـقـوَّةِ الـطـاغِـيَـهْ

هُـنـا مـوطِـنُ الـغُـرْبَـةَ الـقَـاضِـيَـهْ

حَياتُكَ حربٌ فلا تَنْشِدَنَّ في الحرْبِ أنغَامَكَ اللاهِيَهْ

وَإنَّ الـحَـيَـاةَ دَمٌ عـاصِـفٌ،

ولَيْسَتْ شَذى المِسْكِ والغَالِيَهْ

ومَا رَأْسُ مالِكَ مِنْكَ سِوى

دم الـقَـلْـبِ والـهِـمَّـةِ الـعَـالِـيَـهْ

*****

إذا ما ادَّخَرْتَ المِياهَ العِذابَ
وَأَتْـرَعْـتَ أكـوابَهـا الـصَّـافِـيَـهْ
ولَـمْ تدَّخِرْ لكَ ملءَ العروقِ
دمـاً كَـدَمِ الأُسُـدِ الـضَّـارِيَـهْ
تَمُتْ ظمأً في حياةٍ مَشَتْ
عـلى الـدَّمِ عـابِـثَـةً قـاسِـيَـهْ
*****

الفقر الحيدري

فقيرٌ على خُطْوات نفحَة حيدرِ
أعزُّ لَنا مِن ألْفِ كِسْرى وقيْصرِ
وإنَّ الشَّبابَ الحرَّ بأس وعزْمةٌ،
وإعلانُ قولِ الحقِّ والمَنْطِق الجري
وإنَّ جنودَ الله لَيْسَتْ ثعالِباً،
تُراوِغُ من جُبْنٍ وتَعوّي وتَفْتَري
يَسيرُ على لَيْثِ الشرى نَهْب رِزْقِهِ
عسيرٌ علَيْهِ أنْ يَبيعَ ويَشْتَري
*****

السموّ بالإنسان

لَمْ أَجِدْ يا إنسان معناكَ في الدَّيْرِ ولا في مساجِدِ الحُنَفاءِ
لَسْتَ في الشرقِ غير روحٍ من الأفيونِ مشلولةِ القِوى خَرْساءِ
أَنْتَ إنْ لَمْ تَكُنْ حذقْتَ صراع الأرض أو لَمْ تكُنْ بها ذا غِناءِ
فقبيحٌ بكَ الطموحُ إلى الأفلاكِ والاتجاهُ نحو السماءِ
إنَّ خَطْباً عليكَ أنْ لا ترى نفسَكَ إلا تمثالَ طينٍ وماءِ
سَوْفَ تبقي مروَّعاً حذر الموت وتلقى الفَنا قبلَ الفَناءِ
عَجلاتِ الزمانِ أضخمُ مِنْ أنْ
يتوارى مسيرُها في الخَفَاءِ
غيْرَ أنَّ الفؤاد إذ لَمْ يكُنْ عفّاً طهوراً يعمى عن الأشياءِ
هذه أرضُ آسيا مُلِئَتْ لي، حَطَباً من تعاسَةٍ وشقاءِ
أطْعم الشُعلة التي ملأتْ قلبي حنيناً إلى اكتِساحِ الفضاءِ

*****

أنتَ عينُ السما على الإنسانِ
ورقيبٌ لها على الحدثانِ

لا تضَعْ في نشاطِكَ الاجتماعي مع الناسِ فنَّكَ الروحاني
ومُعيبٌ عليكَ لِبْثُكَ في النادي ولو كانَ مثلَ لُبْثِ الزَّمانِ
إنَّ صرعى المخدَّراتِ الحُزانَى
وضحايا الإفلاسِ والحِرْمانِ
هزَّهُمْ صوتُكَ القويّ وأَغْطا
هُم سُموّ الإحساسِ والوِجْدانِ
والطيورُ المُحطَّماتُ التي تَقْبَعُ للعيشِ داخلَ الحيطانِ
أطْلَقَتْها يَداكَ للأُفُقِ الأزرقِ تجري فيهِ بِغَيْرِ عِنانِ
فَغَدَتْ تنظرُ السمٰواتِ في شوْقٍ إليها وَلَهْفَةٍ وافتِتانِ
*****
عِشْ معِ الفنِّ في السما وتَعلَّم
طيرانَ الأنغامِ والألحانِ
لا تُضَيِّعْ صداكَ في ضجَّةِ المَحْفَل
قبْرِ الأذهانِ والآذانِ
سوْفَ تَلقى عِقابَ ربِّكَ حِرمانا
مِنَ الابتِكارِ والإفْتِتانِ

سوفَ لا يَصْطَفيكَ للنَّغَمِ الحلو

ولا لــلــتــخْــليقِ والــطــيَــرانِ

سَوْفَ لا يَبْعَثُ النَّسَائِمَ في الفجْرِ

إلى روْحِــكَ الــكَــســول الــواني

****

أسير الحضارة

يا أسيرَ الحضارةِ العَصْرِيَّهْ
يا صريعَ المطامحِ المستحيلَهْ
إنَّ فَقْدَ اليقينِ في الحُرِيَّهْ
هوَ شرٌّ مِنَ القُيودِ الثقيلَهْ

****

عِشْ بِروحِ الخليلِ إذ كانَ في النارِ وآمِنْ إيمانَهُ المعْصوما
واملأِ القَلبَ من يَمينِكَ بالله وخلِّ الإيمانَ رَحْباً عميما

*****

في أغاني القيثارةِ الأعجمِيَّهْ
لَفَحاتُ العواطِفِ العَرَبِيَّهْ
إنَّ طيَّ القَداسَةِ الحَرَمِيَّهْ
سِرُّ توحيدِ الأمَّةِ العالَمِيَّهْ

*****

لَيسَ لِلْغَرْبِ وِحْدَةٌ فِكْرِيَّهْ؟
فهُوَ في فُرْقَةٍ وفي فوضوِيَّهْ

ما بَنَى كَعْبَةً لَهُ أو بنيَّهْ
تلتقي عندَها نُهى المَدَنِيَّهْ

*****

مسجد قرطبة

سلسلةُ الأيامِ والليالي
نِقَاشُهُ الحوادث التوالي
وعنصرُ البقاءِ والزوالِ
حاكِمَةٌ حُكْمَ العَنيدِ الغالي

*****

سِلْسَلةُ الأيامِ والليالي
قيثارُ لحنٍ خالدٍ جَوَّالِ
تَظْهَرُ منهُ الذَّاتُ للأجيَالِ
في ثوبها المختلَفِ الأجْيالِ
في طَبْعِها الملحَّنِ المثالي

*****

لونان في خيطٍ من الحريرِ
تستلُّهُ الذاتُ مِنَ الدُّهورِ
فترتدي أَجنِحَةَ الصقورِ
لسَبْكِهِ المُسْتَحْسَنِ المضفورِ

تَنْسُجُ ثَوْبَ الطابِعِ المفطورِ
مِنْ نسجِهِ قوادمُ النسورِ
وليدةُ الأسودِ والنمورِ والروحُ في الباشِقِ والعُصفورِ
والقيدُ للآسِرِ والمأسورِ
والنعشُ للمهزومِ والمنصورِ!
والقبرُ للقاهِرِ والمَقهورِ

*****

سلسلةُ الديجورِ والنهارِ
قيثارةٌ للأزَلِ القصَّارِ
للذاتِ فيها فنُّ موسيقارِ
يظهرُ بالعَزْفِ وبالأوتارِ
ما في الأنا من نَغَمِ الأقْدارِ

*****

بليتُ منها بالذي ابتلاني
كأنَّها ملأى من الأضغانِ
تطربُ للأنَّاتِ والأشجانِ
وتنتشي للمدمعِ الهتَّانِ

وتـأخُـذُ الأَجْـرَ مـن الـشـيـطـانِ

*****

الـدهـرُ لـلأكـوانِ صـيـرفـيُّ
فـإِنْ يـكُـنْ مـيـزانُـهُ الـغـبـيُّ
يَـزْعَـمُ أنِّـي تـافـهٌ شـقـيُّ
فـالَمْوْتُ فـيـنا أجَـلٌ مـقـضـيُّ
يُمْحى بِهِ المَذْكورُ والمنسيُّ
ويَستَوي الصُعلوكُ والسَّرِيُّ
ما وقتُنا اليوميُّ والليْليُّ
إلا زمـانٌ واحـدٌ سَـوِيُّ
لا صُبْحُهُ صُبْحٌ ولا العشيُّ
ولا اقـتـبـالٌ فـيـهِ أو مـضـيُّ
وإنَّـمـا مـنـظـرهُ الـمَـخْـكِـيُّ
فـنٌّ مِـنَ الأوْهـامِ عَـبْـقَـريُّ

*****

عـالَـمُـنـا لَـيْـسَ لَـهُ خُـلـودُ
وكـلُّ مـا يُـبْـنَـى بـهِ يَـبـيـدُ

الأولُ المنصرِمُ البعيدُ
والآخَرُ المستقبَلُ الوليدُ
الباطنُ المُسْتَفلِقُ المرصُودُ
والظاهِرُ المُسْتبينُ المشهودُ
المنزلُ المُسْتَحدَث الجديدُ
والأثريُّ المُغْرِقُ العتيدُ
الكلُّ فانٍ عمرُهُ محدودُ

*****

لكِنْ بناءُ الرَّجلِ الإلٰهي
مُخلَّدٌ لَيْسَ لَهُ تَناهي
في نقشِهِ لونُ الخلودِ الزاهي
تَمْشي العصورُ وهو عنها ساهي
مدَّلَهَ في خمرةِ الإلٰهِ
وواقِفٌ للحُطَمِ الدَّواهي
لِوَقْفَةِ المُنْتَصِرِ التَيَّاهِ
كَأَنَّما شقَّتَهُ كفُّ الله

*****

إنَّ فتى الإلهِ من هيامِهْ
يستوْقِدُ الشُّعْلَةَ في اعتزامِهْ
تَنْبَجِسُ الحياةُ مِن إلهامِهْ
ويُكتَبُ الخلودُ في نظامِهْ
وتَقْشَعِرُّ الأرضُ مِن إقْدامِهْ

*****

إنَّ الهيامَ للحياةِ منجمُ
الموتَ والفنا لَهُ محرَّمُ
فإنْ يكُنْ هذا الزّمانُ المقدمُ
يجري كما يجري الأتيُّ العَرِمُ
فالعِشْقُ سَيْلٌ جارِفٌ مدَمْدِمُ
بموجِهِ كلُّ أَتِيٍّ يَرْدُمُ

*****

للعِشْقِ أزْمانٌ سِوَى الزَّمانِ
مجهولَةُ الأسماءِ والمَعاني

*****

العِشْقُ روحُ جبرائيلِ الموفدِ
العِشْقُ قَلْبُ المُصْطَفى محمَّدِ

*****

ما العِشقُ إلا كلامُ الله تسمهُ الدُّنْيا

فَـيُـشْـعِـلُـهـا نـاراً ويُـذَكِّـيـهـا

بِنَشْوَةِ العِشْقِ يبدو الوردُ مُبْتَسِماً

كأَنَّما قَدْ سقَاهُ الخَمْرَ ساقيها

العِشْقُ كأسُ كرامٍ من مذاقتِها

سادوا وراحٌ نَمَتْ أرواحُهُم فيها

العِشْقُ علاَّمةٌ في صَحْنِ مسجِدِهِ

والعِشْقُ للجُنْدِ هاديها وراعيها

العِشْقُ إبنُ سبيلٍ ضاقَ مسلكُهُ

لَهُ ألوفُ مزايا لَيحسَ نَذْريها

العِشْقُ يَهْدُمُ دُنْيانا وَيبنيها

العِشْقُ يُسْعِدها، العِشْقُ يَشقيها

لولاه ما دارت الأفلاكُ دَوْرَتَها

لولاهُ ما عاشَتِ الدُّنيا بأَهْليها

لولاهُ ما سكَنَتْ أرضٌ لساكِنِها

لولاهُ ما كانَ مِنَّا كائِنٌ فيها

لـولاهُ لانـتَـثَـرَتْ أجـزاءُ عـالَـمِـنـا
واندكَّ شـامُخِـهـا وانـمـاعَ راسـيـهـا

لولاهُ لَمْ تَحمِلِ الذرَّاتُ شحْنتَها
من الجحيمِ دهورٌ لَيْسَ تُحصيها

ولا استقرَّتْ وفي أحشائِها سَقَرٌ
ولا اطمَأَنَّتْ وفيها النارُ تَصليها

ولا استراحَتْ بِما تُخْفي جوانِحُها
ولا استكانَتْ بما تطوي نواحيها

*****

إنَّ هـــذا الـحـــرَمْ   فـي رُبَـــا قـرطُـبَـــهْ
عِـشْـقُ أَهْـلِ الـهِـمَـمْ   لـلـعُـلـــى أنـجـبَـــهْ
جـــابَ عـصـــرَ القِدَمْ   والـدُّنـــا الـمُـغْـرِبَـــهْ
ومَشَـــى فـــي الظُّلَمْ   والـدُّجـــى الـمُـرْعِـبَـــهْ
لَـمْ يُـصِـبْـهُ الـسَـأَمْ   فـــي الـــذي جَـــوَّبَـــهْ
ولـــهٰـــذا زَعَـــمْ   لـلـــذي اسْـتَـجْـوَبَـهْ
إنَّـهـــا رحـلـــةٌ   لَـمْ تَـكُـنْ مُـتْـعِـبَـهْ

*****

الـهـوى خـالـدٌ رأسُـهُ والـقَـدَمْ
واقِـفٌ لَـمْ يَـسِـرْ خُـطْـوةً أوْ قـدَمْ
كـلُّ مـا حولَـهُ صـاخِـبٌ مُـخْـتَـدِمْ
ذاهِـبٌ آيِـبٌ فـي طـريـقِ الـعـدَمْ
وهـوَ فـي وضعِـهِ ثابِـتٌ لَـمْ يَـرَمْ
فـوقَ عـرشِ الخُلودْ نـاعِـمٌ يَـسْـتَـجِـمْ
قـاهـرٌ يَـخْـتَـكِـمْ فـي مصيـرِ الأُمَـمْ
*****

يـا بـنـاءً نَـمـا فـي ثَـرى حُـبِّـهِ
أنْـتَ حـدَّثْـتَـنـا عَـنْ فَـتـى ربِّـهِ
فيـكَ نـورٌ جميـلْ مـن سَنـى لُبِّـهِ
فيـهِ مـعـنًـى جـلـيـلْ مِـنْ مَعـانِ بِـهِ
أَفَـأَنْـتَ ابـنُـهُ جـاءَ مـن صُلْبِـهِ؟
أمْ حـواريُّـهُ كـانَ فـي سَرْبِـهِ؟
أمْ جـريءٌ لَـهُ قُـدَّ مِـنْ جَنْبِـهِ
أمْ أمـانـيُّـهُ قُمْـنَ فـي قلبِـهِ
*****

أُسُسٌ أَغْرَقَتْ في حنايا السُّهولْ
رَسَخَتْ كالدَّليل في ثنايا العقولْ
وسِوار بلا عددٍ أوْ مثيلْ
في ظلامِ الفَلا كجموعِ النخيلْ
أشرَقَتْ قِمَّتُكْ لسنى جبرئيلْ
وطَوَتْ قبَّتُكْ نورَ أرض الرسولْ
فيكَ سِرُّ الكليمْ فيكَ معنى الخليلْ

*****

الفتى المسلمُ شأنُهُ لا يزولْ
في نداءاتِهِ صوتُ قلْبِ الخليلْ
ما لأوطانِهِ من حدودٍ تحولْ
كلُّ أرضٍ لَهُ سَهْلُها والتلولْ
والمدى مُلْكُه يدَّني أو يطولْ
لَيْسَ في دينِهِ مأرَبٌ مُستَحيلْ
كلُّ شيءٍ لَهُ مستكينٌ ذليلٌ

*****

عَجَبٌ دهرُهُ ونداءاتُهُ

كـلُّ عَـهْـدٍ قـديـمْ طـالَ إخْـبـاتُـهُ
فـانْـبَـرَتْ لـلـرحـيـلْ مـنـهُ أمـواتُـهُ
وجَـرَتْ كـالأعـاصـيـرِ هَـبَّـاتُـهُ
وفَـتـى اللهِ لا تَـمَّـحـي ذاتُـهُ
خـالـدٌ روحُـهُ وكـرامـاتُـهُ

*****

هـو سـاقٍ لأرواحِ أهْـلِ الأدَبْ
فـارسٌ فـي الـهـوَى إنْ صَـبـا أو أَحَـبْ
روحُـهُ مـن رحـيـقِ الـسَّـمـاءِ انـسـكَـبْ
أصْـلُـهُ مـن أصـولِ الـقَـنـا والـقُـضُـبْ
كَـمْ لَـهُ فـي الـعُـلَـى مـن حـديـثٍ عَـجَـبْ
هوَ جوهرُ أكوانِهِ المُنْتَخَبْ هُوَ كلُّ المُنى هو كلُّ الأرَبْ

*****

هـو جـنـديٌّ بَـطَـلْ بَـطْـشُـهُ بَـطْـشُ إلٰـهْ
دَرْعُـهُ إذْ حَـمَـلْ لا إلٰـهَ إلاّ الـلّـهْ
تَـحْـتَ ظـلّ سـيـفُـهُ مُـشْـتَـهـيـنٌ بِـالـحَـيـاةْ
حِـرْزُهُ مِـنْ حَـتْـفِـهِ لا إلٰـهَ إلاّ الـلّـهْ

*****

فيكَ سرُّ الفَتَى المؤمنِ الخالِدِ
حَرُّ أشواقِهِ في الدُّجى البارِدِ
ولظى قلبِهِ في الضُّحى الهامِدِ
وذُرى شأوِهِ الشَّامِخِ الصاعِدِ

*****

وانْتِهاجاتُهُ العَذْبَة الباسِمَهْ
وخيالاتُهُ الفخمةُ العارِمَهْ
وأمانيُّهُ الحلوةُ الحالِمَهْ
وإطاعاتُهُ الحرَّةُ الحازِمَهْ

*****

كفُّهُ هي كفُّ الإلٰهِ الصنَّاعْ
غالِبٌ بأسُهُ كالهِزبْرِ الشجاعْ
في ظلامِ الثرى من ضياءِ الشُّعاعْ
هو عبدٌ لَهُ مِن إلٰهٍ طِباعْ
وهو عَنْ كونِهِ في غِنى واقْتَناعْ
حاجَةٌ سَهْلَةٌ عفَّةٌ والمتاعْ

وأمانيُّهُ فوقَ أَنْ يُسْتَطاعْ

*****

فاتِنٌ قولُهُ ساحرٌ طَرْفُهُ

مُسْعِرٌ بحثُهُ رائِعٌ ظُرْفُهُ

في الشَّقا والنَّعيمْ شامخٌ أنْفُهُ

طاهِرٌ قلبُهُ طاهِرٌ كَفُّهُ

القلوبُ المؤمناتْ سُرُّ خَلْقِ الكائِناتْ

وسِواها ترّهاتْ باطِلاتٌ تافِهاتْ

*****

للنّهى في رَجُلِ الله عَرْشٌ لا يُضامْ

كمَلاكٍ يَعْبُدُ الله في البَيْتِ الحَرامْ

هو محصولُ قوى العِشْقِ إنتاجُ الغرامْ

وهو نارٌ تُوجِدُ الدفءَ في كلٍّ مقامْ

*****

يا بِناءً سادَهُ البَأْسُ والعَزْمُ الصَّميمْ

أنتَ كالكَعْبَةِ للفنِّ والدِّينِ القويمْ

ثريَّةُ الأسبانِ منكَ ازدَهَتْ زَهْوَ النُّجومْ

كَسَبَتْ منزِلَةَ الحرَمِ الزاكي العظيمْ

إن يَكُنْ مِثلَكَ تَحتَ سماءٍ أو نجومْ

فهُوَ قَلْبُ المُؤمِنْ الباسِلِ الحرِّ الكريمْ

*****

أيْنَ فُرسانُ العربْ

أَيْنَ أَبْطالُ الغلبْ

أيْنَ أَرْبابُ الحجى

أَيْنَ أَصْحابُ الأَدَبْ

أَيْنَ أَهْلُ الخُلُقِ الفذِّ والشأْنِ العَجَبْ

أَيْنَ أُولي ذلكَ المَجْدِ أَمْ أَيْنَ ذَهَبْ

*****

بِهِمْ قَدْ شاعَ في عصرِهِم رمزٌ غريبْ

في ظلالِ الفِقْرِ والحُبِّ سُلْطانُ القلوبْ

لَيْسَ في مُلْكٍ ولا في بطونٍ وجيوبْ

كانَ في فطرتِهِم ألفُ درْسٍ للشُّعوبْ

رَبِيَ الشَّرْقُ بها فتصدَّى للخطوبْ

وانْــبَــرى كــالــصَّــقْــرِ فــيــهــا كــلُّ غــزو ووثــوبْ

لَــيْــسَ يَــدْري مــا شــروقٌ بــأرْضٍ أَوْ غُــروبْ

كــلُّ دُنْــيــاهُ لَــيْــسَ لَــهُ عــنــهــا هــروبْ

كــلُّ مَــنْ فــيــهــا أخٌ أَوْ حــبــيــبٌ أَوْ قَــريــبْ

أَوْ شــريــكٌ فــي الــعُــلــى أَوْ زَمــيــلٌ فــي الــحــروبْ

أَوْ عــدوٌّ خــاضِــعٌ مُــسْــتَــكــيــنٌ مُــسْــتَــجــيــبْ

عــالَــمٌ مــا فــيــهِ عُــزَّىٰ ولا فــيــهِ صَــلــيــبْ

فــيــهِ ربٌّ واحِــدٌ وغَــرامٌ وقــلــوبْ

*****

عَــلِّــمــوا الــغَــرْبَ الــعــتــيــقْ

كَــيْــفَ يَــصْــحــو ويُــفــيــقْ

ونُــهــاهــم كــانَــتْ الــنــورَ فــي كــلِّ طــريــقْ

فــلــدى الاســبــانِ مــن دمِــهِــم طَــبْــعٌ عــرِيــقْ

تَــرَكــوا أَنْــدَلُــســاً مــنــهُ ذا روحٍ عــمــيــقْ

فــلَــنــا فــيــهِ إخــاءٌ وقُــربــى وحُــقــوقْ

وبَــقــيــا خــالــداتٌ وأصْــلٌ وعُــروقْ

*****

إنَّ في الأَنْدَلُسي مزاجَ المسلمينْ
لَمْ يحوِّلْهُ البِلى لَمْ تُغَيِّرْهُ السنونْ
طيِّبَ القَلْبِ لَهْ مَعْشَرٌ حيٌّ حنونْ
ساذِجُ الطَّبْعِ مِنَ النُبْلِ وضَّاءُ الجَبينْ

*****

إنَّ أَنْسامَ اليَمَنْ لَمْ تَزَلْ في جوِّهِ
وصدى أرضِ الحرَمْ واضِحٌ في شَذْوِهِ
كانَ طفلاً عَلَّموه العُلىٰ في لَهْوِهِ
ذاقَ منهم جُرْعَةً فمَضىٰ لشأْوِهِ
هائِماً في مَجدِهِ ثمِلاً مِنْ زَهْوِهِ
ناظِراً إلى السَّماءِ في شهورِ حَبْوِهِ

*****

أرْضُكَ الغرَّاءُ في نَظَرِ النَّجْمُ سَما
شدَّ ما يوحِشَني
أنْ أَرى ما قَدْ جرى
مِن قرونٍ آهِ لَمْ نَسْمَعْ أذاناً أو نِدا
انْخَسِفْ يا أيُّها التُّرْبُ واسعدْ يا فضَا

أيُّها النَّهْرُ الكبيرْ لا عَدَتْكَ الكِبْرِيا
هَلْ يَرَى الناسُ بِشَطَّيْكَ رُؤْيا ما مضَىٰ

*****

عالَمُ العصرِ وما يَخْتَوِيهِ من هرا
لَمْ يَزَلْ مُختَجِباً تَحْتَ أَسْتارِ القَضَا
نظْرَتي قَدْ كَشَفَتْ عَنْ خفاياها الغَطا
إنَّني لَوْ أرفَعُ السِّتْرَ عَن وجهِ النُّهى
لَنْ يَطيقوا ما بِأَنغامِ شِعْرِي مِن لظى
إنَّما العيشُ إنْقلابٌ وبأْسٌ وفِدا
وحبانا ما بِها ثورةً عينُ الردى
كلُّ نَقْشٍ ما بهِ من دمِ القَلْبِ طِلا
ناقِصٌ ما فيهِ روحٌ ولا فيهِ رؤى
ذاهِبٌ مُنقرِضٌ ضائِعٌ مِثْلَ الهَبا
كلُّ لَحْنٍ لَمْ تُمازِجْهُ أَنْغامُ الدِّما

*****

عتاب إلى الربّ

إنَّ دُنْياكَ عالمُ الطيرِ والحوتِ
ودُنْيايَ آهةٌ ورزايا
أَنا مُسْتَعْبَدٌ سجينٌ بدُنْياكَ
وأَنْتَ الإِلٰه في دُنْيانا

*****

أَفهذا الإنسانُ سلطانُ هذا الكونِ أَمْ خَلَقْتَ منهُ شيئاً فَرِيّاً
سَوفَ أَرْوِي إليكَ أُحْدوثةَ الأَعْمى الي لَمْ يَرْبَحْ مِن الأمرِ شَيّا
لا يَرى نفسَهُ ولا يُبْصِرُ الدُّنْيا ولا يعرِفُ الإِلٰهَ العَلِيّا
أَفَهذا الذي صَنَعْتَ بِكَفَّيْكَ وأَبْدَعْتَ مِنْهُ خلقاً سَوِيًّا؟

*****

السهم الحائر

إنَّ أميرَ الجُنْدِ عَيٌّ لا يسوسُ عَسْكَرَهْ
ووضْعُنا مِنْحرِفٌ، وجُنْدُنا مُبَعْثَرَهْ
فَبِئْسَ سَهْمٌ حائرٌ، في يدِكَ المُحَيَّرَهْ
وَبِئْسَ رامٍ لَيْسَ يدري أَيْنَ يَرْمي مِسْعَرَهْ
لَمْ أَلْقَ في بحرِكَ من سِرِّ الحياةِ جوهرَهْ
قَدْ مَخَضْتُ كلَّ ما
أبدى لنا وأَضْمَرَهْ
مِنْ صدفٍ غافٍ بهِ
وموجَةٍ مُزَمْجِرَهْ
فَغُصْ بِأعماقِكَ كي
ترى بها ما لَمْ تَرَهْ
فَأَنْتَ كلُّ السرِّ في
هٰذي حياةِ المقفِرَهْ
واتْرُكْ هوى الأصنامِ فهي الخِدْعَة المُزَوَّرَهْ

ولا تَضَعْ دَمَ الفُؤادِ في طقوسِ الأَذْيِرَهْ
العِشْقُ موتٌ يُبْتَغىٰ في شرَفٍ وَمَفْخَرَهْ
والموتُ عيشُ أَنْفُسٍ ذَليلَةٍ مُحْتَقَرَهْ

*****

علَّمَني الروميُّ مِنْ
حِكْمَتِهِ المُدَّخَرَهْ
بأَنَّ ألفَ فيلسوفٍ هامُهُم منكسِرَهْ
منكوسَةٌ على الجيوبِ مِنْ حذارٍ وشَرَهْ
لو وزَنوا لَمْ يَعْدِلوا قَلْبَ كليمٍ قسْوَرَهْ
طَلْعَتُهُ لامِعَةٌ مِثْلُ النجومِ النَيِّرَهْ
واقِدَةٌ مِنَ الذُكا كالشُّعْلَةِ المُسْتَعِرَهْ
هامَتُهُ شامِخَةٌ وَطَلْعَةٌ مُحَرَّرَهْ
موضوعةٌ في يدِهِ للضَرْبَةِ المُنْتَظَرَهْ
ما إنْ يُبالي لَوْ رَماها في الوغى من الكرَهْ

*****

لَوح حُزْتَ إيمانَ الكليمِ بالخطوبِ المُنْذِرَهْ
إذا سمِعْتَ لا تَخَفْ مُعادةً مُكَرَّرَهْ

فـذاكَ صـوتٌ أَزَلِـيٌّ خـالِـدٌ فـي الـشَّـجَـرَهْ

*****

لَـمْ تَـنْـبَـهِـرْ عَـيْـنَـايْ بِـالـحَـضـارَةِ الـمُـزْدَهِـرَهْ

إِنِّـي اكْـتَـحَـلْـتُ مِـنْ ثَـرىٰ الـمـديـنـةِ الـمُـنَـوَّرَهْ

وعَـبَّ جِـفْـنـي مِـنْ تُـرابِ الـنَّـجَـفِ الـمُـطَـهَّـرَهْ

*****

إلى الشباب المسلم

أثـاثُـكَ مِـن (أوربـا) مُـسْـتَـجـاءٌ
وفَـرْشُـكَ فـارسـيٌّ عَـبْـقَـريُّ

ومِـمَّـنْ قَـدْ بكـيتَ دماً عـليـهِ
شَـبـابٌ مُـتْـرَفٌ لاهٍ غِـوِيُّ

لِـمـاذا تَـبْـتَـغي مُـلْـكـاً، ومَـجْـداً
ومـاذا يـربَـحُ الـغِـرُّ الـغَـبِـيُّ

فَـلَـمْ تَـكُ مثلَ سَـلْمانٍ عُـزوفاً
ولَـمْ يَـكُ فـيـكَ عـزمٌ حَـيْـدَريُّ

دَعِ المَـجْدَ المصدَّرَ مِنْ (أوربا)
إلَيْكَ فـإنَّـهُ مَجْـدٌ دَعِـيُّ

عُـزوفُ الـمُـسـلمـينَ لـهُـمْ رُقِـيٌّ
رَفـيـعٌ لا يُـطـاوِلُـهُ رُقِـيُّ

*****

إذا ما اسْتَيْقظَتْ روحُ الصُّقورِ
وهَبَّتْ في الجوانِحِ والصدورِ
رأى الشُّبَّانُ في الأَفلاكِ مَثوَى
عَزائِمِهِمْ وفي الأُفُقِ المُنيرِ
أَلا لا تَأْوِيَنَّ إلى قِبَابِ المُلوكِ ولا تُرِدْ عَيْشَ القُصورِ
وأَنْتَ الصَّقْرُ، فابْنِ الوَكْرَ واسْكُنْ
على قِمَمِ الشَّواهِقِ والصُّخورِ

*****

أشعار مترجمة عن الشاعر (حالي)

سداسيات الشاعر حالي

أَتى سائِلٌ بِقِراطَ يحذرُ خطْبَهُ
ويَسْأَلُهُ فتوَى تُعالِجُ كَرْبَهُ
أَلا أيُّ داءٍ في البَرِيَّةِ مُهْلِكٌ
إذا مسَّ إنساناً قضى منه نَحْبَهُ
فقالَ لَهُ لَمْ يَخلِقِ الله مرَّةً
لنا مرَضاً إلا ويَخْلُقُ طِبَّهُ
ولكنَّ داءً هيِّناً لا نخافُهُ
هو الداءُ يَسْتَشْري ويَقْتُلُ رَبَّهُ
وأَخْطَرُ أمراضٍ علينا مَغَبَّةً
هُوَ المرضُ السَّهْلُ الذي لَنْ نُطِبَّهْ
نَرى أمرَهُ هوناً ونَتْرُكُ سُمَّهُ
بِأَعْماقِنا يَسْري ويُعْلِنُ حَرْبَهْ
ونَعْتَدُّ أَقْوالَ الطبيبِ بشأْنِهِ
خُرافَةَ شيخٍ أَصْبَحَ الهَجْرُ دَأْبَهُ
*****

إذا هُوَ بالتشْخيصِ أَعْلَنَ رَأْيَهُ
زَعَمْناهُ بالتَّشْخيصِ يُعْلِنُ عِيَّهُ
وسُقْنا إلى آرائِهِ أَلْفَ عِلَّةٍ
وَأَلْفَ طبيبٍ كَيْ نُعالِجُ غِيَّهُ
وثِرْنا علَيْهِ هازِئينَ نُذيقُهُ
الهَوانَ ونَسْقيهِ مِنَ الصِّعَابِ رِيَّهُ
ونَسْلُقُهُ سَلْقاً بِأَلْسِنَةٍ لَنا
حدادٍ تعريهِ وتَكسوهُ خِزْيَهُ
كأَنَّ بِهِ مسَّ الجنونِ، كأنَّنا
حوالَيْهِ أطفالٌ نُحاوِلُ كَيَّهُ
نُحاذِرُ أسْبابَ الشِّفَاءِ وإِنْ يَكُنْ
نُطاسِيَّهُ الآسي لَنا أَوْ نَبِيَّهُ
*****

كذاكَ يمدُّ الداءُ في الروحِ مدَّهُ
ويَبْلُغُ بالتدريجِ فينا أشُدَّهُ
ويَنْزَعُ عَنَّا الأُنْس بالطبِّ والدواءِ
إلى أنْ نذوقَ اليأْسَ والموتَ بَعْدَهُ

وفِكْرَةُ أَنْ نلقَى الطبيبَ بِدائِنا
ولَوْ كانَ سرَّ الحيِّ والمَيْتِ عِنْدَهْ
كذلِكَ حالُ الشَّعْبِ يومَ تغولُهُ
الغوائِلُ في الدُّنْيا ويَفْقدُ رُشْدَهُ
وتَبدو لعَيْنَيْهِ الشموسُ غَياهِباً
ويُصْبِحُ هٰذا العالَمَ الرَّحْبُ لَحْدَهُ
يَلحُّ عَلَيْهِ الرُّعْبُ حتَّى يذلَّهُ
ويَطْغى عَلَيْهِ اليَأْسُ حتَّى يهدَّهُ
ويَحْسَبُهُ مِنْ عَجْزِهِ وضلالِهِ
يعيشُ بِهذا الكونِ حيرانَ وَحْدَهْ
يؤلِّهُ مَنْ يَقْوى علَيْهِ فَلَوْ مَشىٰ
على رأسِهِ كَلْبٌ لَهُ صارَ عَبْدَهُ

*****

أحاطَتْ بِهِ دوّامَةٌ فَغَزَتْ لَهُ
فَماً مِثْلَ شِدْقِ الوَحْشِ يَبْدَأُ أَكْلَهُ
على مركبٍ تُرغي المنَايا حِيالَهُ
بِأَمواجِها الغَضْبَى وتَزْأَرُ حولَهُ

تَجرعه مِنْ هولِنا الجْرَعَ التي
تُؤود جناحَيْهِ وَتُبْهِظُ حْملَهُ
لقَدْ ساءَ حظُّ الفُلْكِ فَالمَوْجُ هائِجٌ
على رأسِهِ والمَوْتُ يَنْشُرُ ظِلَّهُ
وأنَّى لَهُ شطُّ النَّجاة وإنَّما
يَرى قَبْرَهُ الخالي ويَرْقُبُ وَحْلَهُ
تَرَنَّحَ مِنْ ذُعْرٍ وضَجَّتْ بِأَهْلِهِ
جوانِبُهُ الغَرْقَى لتوقِظَ أَهْلَهُ

*****

ولكِنَّهُم ركبٌ نؤومٌ تهزُّهُ
المنايا ولا يرضى لها أَنْ تَهُزُّهُ
سحابُ الردى من فوقِهِ مُتَلَبِّدٌ
على رأسِهِ والشُؤْمُ يَبْعَثُ رَمْزَهُ
أَحاطَ بِهِ الأدْبارَ من كلِّ جانِبٍ
وَهِمتْ بِهِ أشراطُهُ أَنْ تؤزَّهُ
وأَقْبَلَ صوتُ الحقِّ يَسْأَلُ نومَهُ
الشَّقِيَّ وَيَسْتَفْتي وَيَغْمُزُ غَمْزَهُ

أَهَلْ أَنْتُمُ مَنْ كُنتُم الأمْس في الورى
وهَلْ أنتُمُ مَنْ ضَيَّعَ اليَوْمَ عزَّهُ؟
أَأَيْقَظْتُم الدُّنيا قديماً ونِمْتُمو
وريثاً كَمَنْ يَغْفو لِيَسْتُرَ عَجْزَهُ
لقَدْ كُنْتُمو لِلكونِ كَنْزاً مِنَ المُنى
فحينَ أُضِعْتُمُ ضَيَّعَ الكَوْنُ كَنْزَهُ

*****

هُوَ الشَّعْبُ لاهٍ لَيسَ يَتْرُكَ لَهْوَهُ
قناعَتُهُ بالدونِ تُنْسيهِ شَأْوَهُ
كفى أنَّهُ ما زالَ يَحْلُمُ حِلْمَهُ
ويَشدو بِأنْغَامِ السيادَةِ شَدْوَهُ
تَمَرَّغَ في الأوْحالِ عَجزاً وذلَّةً
ومَا زالَ غِرّاً لا يُفارِقُ زَهْوَهُ
تَجَلَّى عَلَيْهِ الصُّبْحُ لكنَّ ظُلْمَةَ السُباتِ
عَليهِ لا تُغادِرُ جَوَّهُ
قنوعٌ فلا تأسىٰ على الذُّلِّ نَفْسُهُ
صبورٌ فلا يَشْجَى مِن الخَسْفِ شَجْوَهُ

فمَا شالَ رِجْلاً كَيْ يُمارِس خَطْوَهُ
ولا هزَّ جَفْناً كَيْ يُجَرِّبُ صَحْوَهُ
يُعَذِّبُهُ الباغي ويَقْصُم ظَهْرَهُ
فَيَحْبوهُ دُنْياه ويُعْطيه عَفْوَهُ
تَطَوَّرَتِ الدُّنْيا وطارَتْ بِأَهْلِها
وما زالَ يُحْبو أوْ يُمَجِّدُ حَبْوَهُ

*****

يقدِّمُ للسكِّينِ كالكَبْشِ نحْرَهُ
ويَصْبُرْ للتقطيعِ والسَّلْخِ صَبْرَهُ
وَيَحْيا كَما تَحْيا البَهائِمُ عمرَهُ
ويُحْمُدُ دُنْياه ويَشكُر دَهْرَهُ
وَيُغْضي إذا ما استَعْبَدَ البغيّ قَطْرَهُ
ولَوْ ساقَ خَسْفاً وأَلْهَبَ ظَهْرَهُ
فكُلُّ هَوانٍ لَيْسَ يُوقِدُ جَمْرَهُ
وكُلُّ فخارٍ لَيْسَ يوقِظُ كِبْرَهُ
وَما طَلَبُ الجنَّاتِ يَشْرَحُ صَدْرَهُ
ولا حذر النيرانِ يُجْلُبُ ذُعْرَهُ

*****

أَساءَ إلى الإسلام إذْ حملَ اسمَهُ
وعَطَّل معناه وأَبْطَلَ فَهْمَهُ
وشوَّهَ مِنْهُ وهُوَ يُعْلِنُ وِدَّهُ
عالِمَ يُشوِّهُ مِنْهُ لَوْ كانَ خَصْمَهُ
تظاهرَ في أَثْوابِهِ وَلَوَ أَنَّهُ
بَدا عارِياً ما كانَ يَأْثَمُ إِثْمَهُ
فَما تركَ الأَثوابَ بيضاً ولا خَفَىٰ
معايِبَهُ السَّوأىٰ ولا زانَ جِسْمَهُ
يُحاوِلُ تَضليلاً فيَفْضَحُ نَفْسَهُ
وَيَنْسُجُ أَثْواباً فيَكْشِفُ جُرْمَهُ
يُرائي نِفاقاً وهو يدري بِأَنَّهُ
كذوبٌ وأَنَّ الناسَ تَضمِرَ شَتْمَهُ
فَيا ليْتَ شِعْري مَنْ يُغالِطُ في الورى
ومَنْ ذا يُراعي حين يَزْعَمُ زَعْمَهُ

*****

ومِن عجبٍ كيفَ استطاعَ إساءةً
إلى سُمْعَةِ الإِسلامِ واجتثَّ فَضْلَهُ

وشكَّكَ فيهِ النَّاسَ إذ كانَ ظِلَّهُ
على زَعْمِهِمْ والظِلُّ يُشْبِهُ أَصْلَهُ
معاذَكَ يا ربَّاهُ فالبَوْنُ شاسِعٌ
ودينُكَ ما في الأرضِ أَمثلةٌ لَهُ
لَوِ انتَسَبَتْ شمْسُ النَّهارِ بِهَدْيِها
إلى هَدْيِهِ القدسيِّ لَمْ تكُ مِثْلَهُ
ولا أَحْسَنَتْ في أنْ تسُدَّ مَسَدَّهُ
ولا نَجَحَتْ في أنْ تحُلَّ محَلَّهُ
وما هي أهْلٌ أنْ تكونَ سُلالَةً
لتاريخِهِ أو أنْ تُمَثِّلَ أَهْلَهُ
سَنى الشمسِ يبني الأرضَ بالنورِ وحدَها
وروحُ الهدى يَستهدف الكونَ كُلَّهُ
ذُكاءٌ تُرَبِّي الشرَّ والخَيْرَ في الورى
ودِينُ السماءِ يَصنَعُ الخَيْرَ وَمْدَهُ
بِهِ صارَتِ الأعداءُ من قَبلي أُخْوَةً
تَهيمُ بِعَلْياهِ وَتَعْشَقُ مَجْدَهُ

وَتَحْيا نَشاوى في فراديسِ حُبِّها
تَعلُّ حميَّاهُ وتَنْهَلُ شَهْدَهُ
تَسودُ بِهِ فَوْقَ الحَياةِ وَأَهْلِها
وتَنْشُرُ ريَّاهُ وتَكْتُبُ عَهْدَهُ
تطوّلُ عُمْر الشَّعْب حتَّى كَأَنَّما
تَذودُ مُناياهُ وَتُغْلِقُ لَحْدَهُ
غَذَتْ روحُهُ سِحْراً فغَادَرَ مَهْدَهُ
بِساعاتِهِ الأُولى وأَدْرَكَ رُشْدَهُ
أَحَالَتْ تُرابَ الأرضِ تِبْراً وصَيَّرَتْ
بِهِ كُلَّ فَرْدٍ عَنْهُ يُضْمِرَ زُهْدَهُ
*****

وبِالوَحْيِ لاقى الوَحْشُ بالغابِ عَقْلَهُ
وَأَضْحَتْ سِباعُ الدَّهْرِ تَرحَمُ أَهْلَهُ
وَصَارَتْ رُعاةُ الضأْنِ في كلِّ موطنٍ
ملوكاً شرقيَّةً وتَنْشُرُ عَدْلَهُ
وَأَصْبَحَتِ الأرضُ التي كانَ مَجْمَعُ
السوائِحِ فيها تعدلُ الكونَ كُلَّهُ

وصارَ ثراها الماحلُ القفرُ ناسِجاً
غماماً لأَهْلِ الأرضِ يَبْعَثُ وَبْلَهُ
وَصَحَّتْ مواعيدُ السَّراب فساقها
غيوثاً على الصحرا تروِّي مَطَلَّهُ
وفَاضَتْ بِهِ رَمْضاؤها وتَفَجَّرَتْ
عيوناً بِقاعِ الرَّمْلِ تَكْشِفُ مُحْلَهُ
خِبانٌ من التنزيلِ والوَحْيِ خَلَّدَ الإِلٰهُ
بِهـا فـي أَكْـرَمِ الأرْضِ ظِـلَّـهُ

*****

الفهرس

القصيدة	الصفحة
تقديم	٥
ثورة الشعر	٣٧
قصتي مع الشعر	٣٨
مصدر اليقين في الثورة	٤٣
دور الشعر في خلق اليقين الثوري	٥٥
صوَر من المحاولة	٥٧
نهاية التجربة	٦٣
هل من مزيد؟	٦٥
كفر وإيمان	٦٦
بوادر ثورة	٧٥
لا تحرقونا بناركم	٧٦
نكسة الثورة اليمنية	٧٨
شعب متربّص	٨٠
الأمن الزائف	٨٢
هل يخاف الشعب من نفسه؟!	٩٠
خطبة الموت	٩٢
مغفرة الشعب	١٠٦

القصيدة	الصفحة

إلى الغاضبين علينا ١١١
مثاب وعتاب ١١٧
تحية الخروج من العزلة ١٢٩
من أحرار اليمن إلى أحرار العراق ١٤٤
حنين الطائر ١٥٧
إلى الأحبة ١٦١
صخرة ١٦٣
إلى وطني ١٦٥

صلاة في الجحيم
الديوان الثاني

إلى وطني ١٦٨
إعلان مروع ١٧٠
لحظات الإشراق الفني ١٧١
مولد الرسول الأعظم ﷺ ١٧٧
حراء ١٨٠
إشراق النبوّة ١٨٢
صوت الله ١٨٤

القصيدة الصفحة

القسم الأول ١٨٦

في سبيل فلسطين ١٨٧

تحية إلى السيد رضا الشبيبي ١٩٣

جماعة الطلبة العرب ١٩٧

أين الغد؟ ٢٠٥

طاقة تياهة ٢٠٧

في عنفوان النشوة الفتية ٢٠٨

إبر النحل ٢٠٩

نبات خائن ٢١٠

مصرع الضمير ٢١١

إلى الشهيد الموشكي ٢١٤

الخروج من اليمن... السجن الكبير ٢٢٠

صرخة إلى النائمين ٢٢٥

إلى علي محمد لقمان ٢٣٦

رثاء القاضي العلاّمة يحيى بن محمد الأرياني ٢٤٣

الحنين إلى الوطن ٢٥٣

طليعة الشهداء ٢٥٨

قيد جماعي ٢٦٧

رثاء السيد عباس بن علي ٢٧٢

القصيدة الصفحة

بمناسبة العيد الأول لقيام باكستان ٢٧٦
في استقبال الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٨١
ميلاد القائد الأعظم الباكستاني محمد علي جناح ٢٨٩
صيحة البعث ٢٩٦
رثاء شعب ٢٩٩
الجامعة العربية ٣١١
إفتتاح دار الجمعية اليمانية الكبرى ٣١٥
يا بحر ٣٢١
في حفلة العلم ٣٢٢
شكوى ٣٢٤
حرب الطغيان الهتلري ٣٢٥
عيادة مريض ٣٢٨
وداع طبيب دانمركي إنسان ٣٢٩
دعيّ ٣٣١
استقلال الهند وباكستان ٣٣٢
محمد سيد الأنبياء ٣٣٤
في محراب الإمام يحيى ٣٤٠
يوم الجلاء ٣٤١
صفقة الأسلحة ٣٤٨

القصيدة الصفحة

العجوز وعسكري الإمام ٣٥٨
غربة ٣٦١
البلبل ٣٦٢
ديوان نقطة في الظلام: قصائد لم تُنشر من قبل ٣٦٦
إهداء ٣٦٧
مقدمة ودراسة ٣٦٩
آخر العناقيد الشعرية ٣٩٤
نقد الزبيري ولغة ترجمة الشعر ٤٠٩
إنذار ٤٢٢
أنا آه ٤٢٥
أقدار النكبة ٤٢٦
أشجاني وآلامي ٤٣٠
ضجران ٤٣٢
نقطة في الظلام ٤٣٥
عدوان وانسحاب ٤٣٩
ملحمة بور سعيد ٤٤٧
العشق وراء الأقنعة ٤٧١
دعوة إقبال ٤٧٢
غزو الأعماق ٤٧٣

القصيدة	الصفحة
فلسطين	٤٧٤
عبقريّ الطب	٤٧٩
ميلاد جناح، والقضية الباكستانية	٤٨١
إلى شيخ الإسلام	٤٨٧
ببغاء بهاولبور	٤٩٧
قوة الإيمان	٤٩٨
المؤتمر الإسلامي في حفل إفتتاحه بباكستان	٤٩٩
كفاح	٥٠٥
تحية لصوت عمان المكافحة وشعب عمان الباسل المناضل	٥٠٨
المغامرة هي الحياة	٥٠٩
الغازِية	٥١٠
الطغيان الحلال	٥١١
طلب الغفران	٥١٢
أشعار مُترجمة عن محمد إقبال	٥١٣
العشق وراء الأقنعة	٥١٤
أمنية إقبال	٥١٥
غزو الأعماق	٥١٦
الفجر الثاني	٥١٧
إمتداد الشعب العربي	٥١٨

القصيدة	الصفحة
دعاء	٥١٩
الطائر اللاّهوتي	٥٢٠
شحّاذ	٥٢٢
بيت منفرد	٥٢٣
الأمر الإلـٰهي للملائكة	٥٢٤
الإنسان مغزى الكون	٥٢٩
مناقشة "إقبال" لربّه	٥٣٢
ابن الصقر	٥٣٥
الحياة حرب	٥٣٦
الفقر الحيدري	٥٣٨
السموّ بالإنسان	٥٣٩
أسير الحضارة	٥٤٢
مسجد قرطبة	٥٤٤
عتاب إلى الربّ	٥٦٠
السهم الحائر	٥٦١
إلى الشباب المسلم	٥٦٤
أشعار مُترجمة عن الشاعر (حالي)	٥٦٦
سداسيات الشاعر "حالي"	٥٦٧

*****